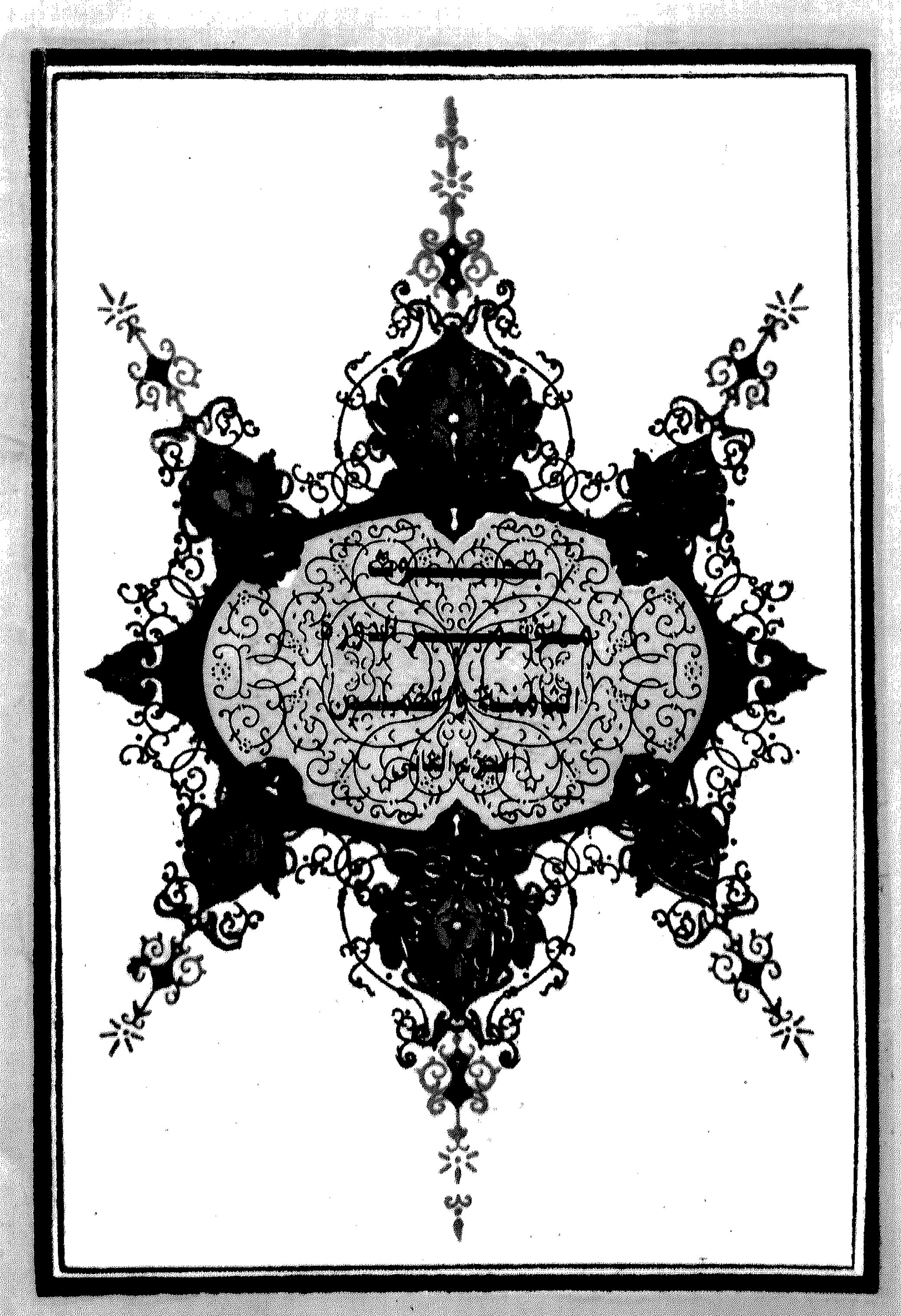
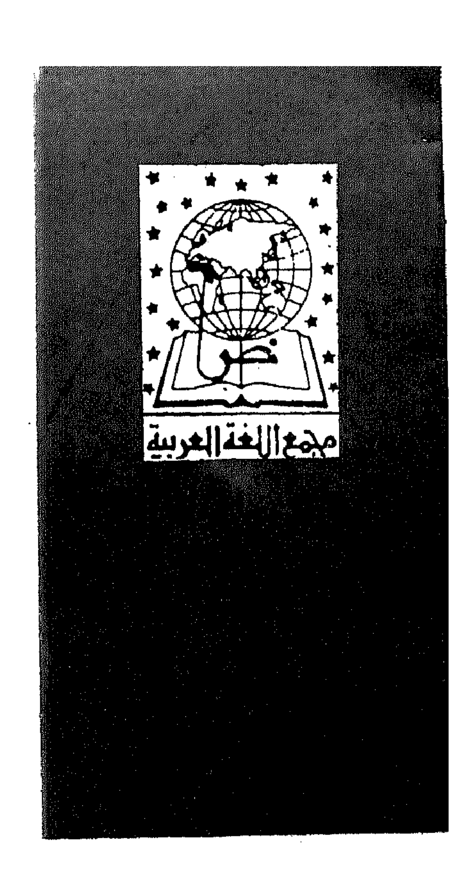
مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء الرابع والسبعون
ذو الحجة ١٤١٤ هـ
مايو ١٩٩٤ م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١ ش عزيز أباظة بالزمالك

اهداءات ٢٠٠٣

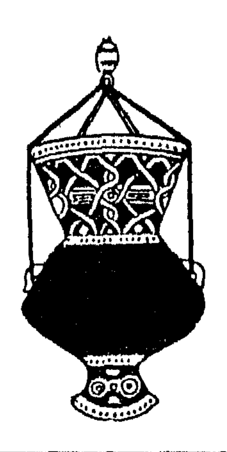
أ.د / شوقى ضيف
رئيس مجمع اللغة العربية

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين فى السنة)

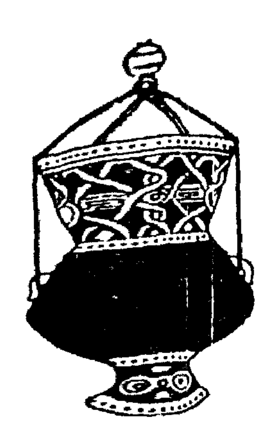
الجزء الرابع والسبعون

جمادى الآخرة ١٤١٤ هـ / نوفمبر ١٩٩٣ م



الفهـرس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الفهـــرس

فجر الطب

الجزء الثاني والأخير

للدكتور حسن علي إبراهيم

تكلمت في المؤتمر الماضي عن الطب الفرعوني وذكرت بعض روائعه وقد اختصرت كثيراً لكي لا يمتد الكلام إلى ساعتين أو أكثر فقد كان الطب المصري شديد الوضوح وقد عالج كلَّ داء على حدة ، فكان هناك متخصص في طب العيون والأذن والمعدة وغير ذلك ، وكان العلاجُ – سواء كان خطأ أم صوابا – واضحا جدا وقد بلغ بهم التقدم أنهم قسموا علاج التهاب الأذن الوسطى ثلاثة أقسام كل منها له علاج ولن أطيل .

أعود فأقول : إنَّ الطب المصري بقدر ما كان دقيقا وواضحا فإن الطب الأشوري يحيط به كثير من الغموض . والذي لا شك فيه هو أن الطب الأشوري كان قديما جدا وربما سبق الطب الفرعوني ، ومن البارز اهتمام الأشوريين بالصحة العامة فقد عرفت مجاري الصرف الصحي في كيش ويرجع تاريخها إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكذلك المراحيض التي وجدت في أور يرجع تاريخها إلى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، وذلك سابق لعصر حسى رع وامحتب بوقت طويل .

سبب حفظ الطب الفرعوني أنه كان ينقش على الحجر أو يكتب على أوراق البردي ، أما الأشوريون فقد دونوا طبهم على ألواح من الطين والكتابة على الطين يطمسها مرور الزمن ، كما أنها تتحطم بسهولة أثناء عمليات التنقيب ، وقد لجأ المنقبون إلى تحميصها قبل نقلها للمحافظة عليها إلا أن ذلك كان يؤدي إلى التصاق التراب ببعض أجزائها فيخفي معالمها .

أما السبب الثاني لغموض الطب الأشوري فهو المصطلحات التي تشمل الكتابة عن الأمراض ؛ فالأمراض الزهرية يشار إليها بيد عشتار إلهة

(*) ألقى البحث في الجلسة السابعة المنعقدة يوم الاثنين ٢٩ من رجب سنة ١٤١٢ هـ الموافق ٣ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢ م .

الحبِّ والأمراض المعدية يكنى عنها بيد «سني» والأمراض العصبية بيدلوليتو وهكذا .

أما سبب الغموض الثالث فيعزى إلى أن من قام بترجمتها من الغربيين كان يجهل اللغة العربية التي ينتمي إليها الخط المسماري المكتوب به لوحات الطين الأشورية .

كما أن هناك تعابير لا تفهم في طبهم مثل زيادة معبد شماس كناية عن اقتراف إثم ، أو الإصابة بالجنون أو نبيذ البقر ويعني ماء الورد وهكذا .

قام الطب الأشوري على أسس تجريبية أمبيريقية إلى جانب الأسس السحرية والكهنوتية ، ولعله لم يعرف الأسس المنطقية الصورية مثل تلك التي بني على أساسها الطب الإغريقي مع أن الطب الإغريقي كان خاطئا في ذلك وغالبا ما كان الطب الأشوري أقرب إلى الطب الفرعوني ، ولو أن السحرة الفراعنة كانوا في مرتبة دون الأطباء كما أسلفت في مقالي السابق .

أما كون الطب الأشوري قائما على السحر فواضح من الأدعية والتعاويذ التي كان يوحى بترتيلها إما بمفردها أو مع تناول بعض العقاقير ، ومن أمثلة ذلك دعاء لعلاج العين يقول (أيتها العين الصافية يا عين البصر الصافي إلخ) .

ومن أمثلة التفكير السحري اعتقادهم في الحسد بالعين فقد كانوا يؤمنون أن سبعة من الشياطين تسمى «المسقم» وتلقب بالأشباح السبعة ، وهم توابع لعشتار إلهة السحر والظلام وهي التي تستطيع أن تسبب الأوبئة ، كما أنها قد تسكن جسد إنسان حتى إذا نظر إلى إنسان آخر خرجت الشياطين من عينيه فأصابت ذلك الشخص .

الكهنوت في الطب الأشوري : يتمثل ذلك في اعتقادهم بوجود ثلاثة آلهة عظام مثل «أيا» إله الأعماق والشتاء . و«بل» إله الأرض ، و«أنو» إله السماء . وكان الأشوريون يستنجدون «بمدردوخ» ابن «أيا» . وإذا استمر تعداد أبناء الآلهة الذين كان يستنجدون بهم فسوف نضيع بينها جميعا لكثرة الأسماء واختصاص كل إله .

ومن ممارسات المدخل الكهنوتي ما كانت تقوم به كاهنات المعبد من مزاولة الجنس مع الغرباء خدمة للمعبد بعد تعقيمهن جراحيا (ولم يذكر كيف) .

أما المدخل المادي التجريبي (الإمبريقي) : فهو الغالب على ما نشر من ترجمة الألواح الأشورية فهي مليئة بأسماء النباتات (٢٥٠ نوعًا) ومواد أخرى متفرقة ويضاف إليها الكحوليات مثل البيرة القوية وبيرة السمسم والنبيذ والشحوم والزيوت إلخ . كما كانوا يعرفون الحقن الشرجية وكذلك اللبوسات وقطرات ومراهم للعين والأذن واللبائخ كما كانت تحقن بعض الأدوية في الإحليل بواسطة أنبوب مجفف . وفي لوحة «ينبولتو» ذكر عامل لكل الأدوية المستعملة وطريقة هذا الاستعمال .

وقد نظمت قوانين حمورابي عمل الجراح أكثر مما فعلت بالنسبة للطبيب كذلك ذكر الأشوريون أمراضًا كثيرة مما نعرفه اليوم كخراج الكلية والرعاف والكسور وقاموا بعلاجها . وكان الطبيب يحمل في حقيبته أعشابًا وأدوية وبعض الآلات الجراحية ومن الغريب أنه كان لديهم إلهام بأن الأمراض تسببها أجسام غير منظورة تدخل الجسم مع الهواء أو الطعام أو عن طريق الجلد (وكانت إرهاصة بما نسميه ميكروبات الآن) كذلك أعتقد الأشوريون في انتقال بعض الأمراض بالعدوى ومنها الجذام والمادة ٢٧٨ من شرائع حمورابي تبطل بيع العبد إذا ما ظهر به الجذام بعد شهر واحد من بيعه ، ثم طالت الفترة بعد ذلك إلى مائة يوم ، كذلك كانوا يغسلون أيديهم قبل الأكل وبعده .

وقد عرف الأشوريون من فحص جروح القتال الكبيرة وجود قلب أيمن وأيسر (يعني حجرتين) والأمعاء والكبد وقنواتها والوريد الأجوف السفلي . والمعدة والبنكرياس والطحال وغير ذلك من كلية وحالب ومثانة وبروستات ورحم وشرايين وأوردة وعضلات لها أوتار ، كما كونوا فكرة عامة عن سيطرة الجهاز العصبي على الجسم كله ، وعن أهمية الكبد وكثرة وظائفها .

ومن هذا يتبين أن الطب الأشوري

يشترك إلى حد كبير مع الطب الفرعونى فى الاعتماد على المدخل التجريبى والعلاج المادى للمرض دون تفسيرات منطقية كالتى أدخلها الإغريق (وحسنًا فعلوا) هذا مع بقايا التفكير السحرى الكهنوتى وهو ما اتبعه المصريون القدامى قدر ما استطاعوا .

وكان الأطباء من فئات ثلاث :

الكاشف : هو أول من يزور المريض ويشخص المرض والمآل ، وقد تميز الكاشف بخلفية غريبة ؛ فكان يتطير من الطيور التي تمر به في طريقه إلى بيت المريض ؛ وإلى جانب فحص المريض يقوم بحساب الفلك والأبراج ثم ينبأ بنتيجة المرض ويترك العلاج لمن يليه .

الآسي : وهو الطبيب المهتم بالجزء المادي من الطب وقد أخذت مكانته تزداد بمرور الزمن ، ولو أنه لوحظ أن هناك تكاملاً بين الكاشف والآسى .

الجراح : وهو لم يذكر في النصوص الطبية إلا نادراً ويرجع ذلك لممارستهم السرية للجراحة خوفا من شرائع حمورابي التي كانت تفرض عقوبات قاسية على الجراح إذا فشل . وكان الناس سواء عربا أم أوربيين يعتبرون الجراح خليفة لحلاق الصحة حتى منتصف القرن الماضي تقريبا .

وقد يكون من الممكن استعراض بعض ما جاء في طبهم :

ذلك الرجل قد ذهب إلى معبد شماش (أصابه الجنون) خذ صمغ الصنوبر ثم لفه بصوفة على بطنه ، ثم يأكله بعد ذلك بخبز الحنطة ويداوم على ذلك ، وسوف يشفى . ورجل آخر ذهب إلى معبد شماش والذى يرى أشياء خيالية ولأجل شفائه ضع حب العزيز على رأسه وداوم على العلاج وسوف يشفى .

كما جاء فى أوراقهم الطبية إذا أصاب الرجل وجع في الرأس ووخز فى الفم واضطراب فى العين وطنين في الأذن واختناق فى البلعوم ووجع فى عضلات الرقبة والكتف والصدر والخاصرة والأسفل والتهاب في المعدة وحرارة فى الأمعاء وألم فى اليدين والقدمين والركبتين فهو إما عنده ... وأن

أمعاءه أو كليتيه هى السبب ... وهو مصاب بالانحباس (الإمساك) أو انحباس الريح أو أن كليتيه مصابتان أو أنه مريض بالصفراء أو اليرقان أو أنه مريض باللعنة أو الروماتيزم أو به الشبح أو أنه مريض بالعفاريت التي تجمع الرؤوس للشيطان ... ثم يمضي هذا الكلام غير المفهوم مع علاجات لا نعرف عنها شيئا الآن إلا الخشخاش والبلسم وعرق السوس (وهى حالة تشبه الشلل البصلى الكاذب كما نعرفه الآن) وربما كانت بعض الصور تبين شيئا مثل :

إذا هاجمت الحمى رجلا فتقيحت أوردة جبهته وأصابت عينيه غشاوة ووجع شديد والتهاب وسيلان فخذ نبات الزعرور ... الخ . ولكن هذه الصورة تنطبق على انسداد الجيوب الوريدية الكهفية داخل الجمجمة .

وأخيرا أرى أيها السادة أن أخرجكم من هذه الدوامة والمتاهات ويمكنكم الآن المقارنة بين الطب الأشوري والطب الفرعوني الذي تكلمت عنه في مؤتمر هذا المجمع الموقر في العام الماضي.

ولا يسعني في ختام كلامي إلا أن أتقدم بمزيد الشكر للأستاذ الدكتور محمد عماد الدين فضلي الذي كان المصدر الوحيد لى فيما قلت . وقد لجأت إلى مقال جامع كتبه فى المجلة الطبية المصرية الجديدة .

شكرا أيها السادة والسلام عليكم ورحمة الله .

حسن على إبراهيم

عضو المجمع



حياة كلمة

للاستاذ سعيد الأفغاني

في قول سائر بين المحصّلين : زلَّة العالِم زلَّة العالَم .

وعلوم اللغة العربية لكل منها منهج خاص ، متعارف بين المتخصصين ، لا يجوز فيه الخلط بين أحدها والآخر ؛ فطريق متن اللغة غير طريق النحو ، غير طريق البلاغة ، غير طريق العروض .. إلخ . وعمدته النقل الصحيح عن أهل اللسان المتفق على فصاحتهم ، والاحتجاج بأقوالهم ، والقياس على ما ثبت منها واطرد ولم يشذّ .

وهذا ما حفظ على اللغة سلامتها ورواءها ؛ فإن خالف شيء من ذلك القواعد المطردة ، وثبت سماعه عن أهله سماعاً صحيحاً لا شائبة فيه ، حُفظ ولم يقس عليه كبعض الضرورات الشعرية وما إليها . والهادي إلى ذلك إمعانٌ متروٍ فيما في المعجمات وكتب اللغة الموثوق بها عند علمائها وفقهائها ، وتجنُب ما عُرف بوهْي الثقة ، وتسقُّط الشوارد والنوادر ، والتهاون بالرواية ، ككتب المحاضرات والقصص والأخبار . وليس كل قارئ في معجم أن يبادر إلى الحكم بما فهم . فإن قراءة سريعة في معجم ، لمدة لم يعرف شأن صاحبه في الثقة به ، ومبلغَ اعتماد المحققين كلامه ، مورّط في زلل هو أحيانا فضيحة .

وأول متبادر إلى الذهن في هذا الباب كلمة (إخصائي) بمعنى اختصاصي ، وهي مثار لغط بين الحين والحين ، فَلأتتبعْ تاريخها الحديث ، منذ شاعت أول هذا القرن الميلادي الذي شهد الخلاف حولها غير مرة : أنكرها بعضٌ كلَّ الإنكار ، وتهاون في استعمالها بعض محبي التفاصح بالغريب في الحديث ، وصارت تظهر في بعض الجرائد والمجلات .

(*) ألقي هذا البحث في الجلسة الخامسة للمؤتمر (السبت ٢٧ من رجب سنة ١٤١٢ هـ الموافق الأول من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢.

في سنة ١٩٠٨ نشرت مجلة المقتبس التي أصدرها في القاهرة الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله ، في عددها الثالث ص ٩٠ – وكان يعني بالموضوعات الاجتماعية عنايته بالموضوعات العلمية والأدبية ، نشرت مقالاً عنوانه : (الإخصاء في العلوم) بدأه بتعريف المصطلح بقوله :

«المُخْصي» هو الذي ينفرد بدراسة فن واحد ، من أَخْصى الرجل إذا تعلم علماً واحداً» . وهذه الكلمات الست بين القوسين ، منقولة بنصها من (القاموس المحيط) للفيروزابادي . في مادة (خ ص ي) ، لا في مادة (خ ص ص) حيث يجب أن تكون في محلها الطبيعي ؛ وكما شرح الزبيدي القاموس استراب فأراد إبراء ذمة صاحب القاموس بقوله : «نقله الصغاني وهو مجاز» . وهذا الشارح رحمه الله أهمل مصدر الصغاني من الذكر كما لم يبين طريق هذا المجاز . وظل هذا النقل موضع ريبة . مجهول القائل مغمضًا لا نور بين يديه ولا من خلفه . وبقيت التبعة معلقة بعنق الصغاني رحمه الله .

وقصته أنه أراد الاستدراك على الجوهري ما فاته في كتابه العظيم (تاج اللغة وصحاح العربية) المشهور اختصاراً بـ (الصحاح) ، فألف الصغاني في ذلك كتابه (التكملة والذيل والصلة) . وفى هذا الكتاب أثبت الكلمات الست كما نقلها القاموس المحيط (أخصى الرجل إذا تعلم علمًا واحدًا) . فعلمنا أنه أول من أخطأ فوضع هذه الكلمات في غير موضعها الطبيعي ، وأن موضعها الطبيعي (خصّ) ، لا (أخصى) ، ولاتعنينا الاحتمالات التى يمكن أن تورد هنا متعددة كلها ممكن ، تشابههما فى الرسم (أخصى) و(أخصّ) ، خطأ الناسخ .. ولكن الذي يتصدر السؤال : أفلم يتساءل الفيروزابادي أو شارح كتابه : ما علاقة هذا المعنى بما قبله ؟ أفلم يلفت الانتباه هذا الإنبتات بين المعنيين ؟

أم هو درس للمتأمل أن لو كان أحد ينجو من سهو أو غفلة وهو مكبٌّ على عمله ، لكان هؤلاء الفضلاء . هل عدّ محققو العلماء (الصغاني) مع نقوله

الواسعة من الضابطين ؟ هو مكثر في التأليف اللغوي ، وعني خاصة بالنوادر والشوارد والشواذ ، فجمع منها مالم يجمع غيره ، وهو كثير الترحال ولقاء الرجال والاستيضاح من الرواة والمصادر ؛ إلا أن شأنه شأن المكثرين غالبا يتسرعون بالنقل والإثبات تسرعًا لا يُجنبهم الزلل ، وقد عرفوا ذلك من أمره ، وأتوقع – إذا طبع للصغاني كتاب جديد طبعة محققة – أن نرى فيها من حواشي المحقق ما يشير إلى مادة في غير موضعها ، أو كلمة مصحفة أو ضبط غلط ، الشيء الكثير دون أن استكثره عليه .

صدرت للصغاني طبعة جديدة محققة أخرجها المجمع العلمي العراقي في سنة ١٩٧٨ من كتابه (العُباب) بتحقيق الأستاذ فير محمد حسن ، وقد عدَّد المحقق في تقديمه لهذه الطبعة المآخذ على الصغاني فيه ثم قال : « .. ولا يُوجب ما ذكرنا فوقُ من أخطاء قليلة في العباب ، وأنه كان ينتحل أقوال العلماء ، ولا ينبه عليها إذا أخذها منهم .. النقصَ في كتابه الجليل .. الخ »[1].

وكذلك أخذ عليه محقق كتابه (الشوارد في اللغات) – الأستاذ مصطفى حجازي – في مقدمته الوافية أنه لم يراع «الترتيب الداخلي للكلمة ، **وربما أدخل في بعض الحروف كلمات ليست منها**»[2]. وهذا ما فعله في حرف الخاء من التكملة والذيل والصلة . حين أنزل معنى (الإخصاص) في مادة (الإخصاء) ، وورّط الفيروزابادي صاحب القاموس ، وشارحه الزبيدي من بعده ، وخلقاً كثيراً آخر المئة التاسعة عشر للميلاد ، وإلى اليوم .

وأما الفيروزابادي الذي نشر هذه الزلّة وشهرها حتى احتج بها غير متثبتين ، فتآليفه في اللغة كثيرة ، وعني بكتب الصغاني ، واهتم بها . وأراد أن يجمع بين المحكم لابن سيده ، و(العباب) الصغاني ، فألف (العجب العجاب ،

(١) العباب تحقيق فير محمد حسن طبعة المجمع العلمي العراقي صفحة ج ١ ق ١ .
(٢) ص ٣٤ طبعة مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٨٣ .

الجامع بين المحكم والعباب) . وتوقف العلماء في قبول بعض دعاويه ، قال ابن حجر :

«كان الفيروزابادي يرفع نسبه إلى الشيخ أبى إسحاق الشيرازي ، وكان الناس يطعنون فى ذلك مستندين إلى أن الشيخ الشيرازى لم يعقب ، ثم ارتقى فادعى - بعد أن ولي قضاء اليمن - أنه من ذرية أبي بكر الصديق» . وعقّب ابن حجر : «ولم يكن مدفوعا في معرفة ، إلا أن النفس تأبي قبول ذلك .. وسافر إلى أقاليم عدة ، وسمع بها ، وجال فيما بين الأناضول إلى اليمن والهند ، وحظى عند ملوكها ، وولي القضاء في بلاد عدة ..» .

وألّف في الحديث كتابه (السَّيح الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري) الذي قال فيه ابن حجر : «ملأه بغرائب النقول ، ولما اشتهرت مقالة ابن عربي في اليمن ، صار يدخل منها فيه ، فشانه ..» . وعلى هذه الشاكلة من عدم الثبوت ، نجعل نقله الساهي عن الصغاني تلك الكلمات الست (أخصى الرجل إذا تعلّم علمًا واحدًا» في غير موضعها الصحيح ، وبذلك عُرف الصغاني نفسه من قبل .

***

هذا في زمن (الصغاني - ٦٥٠هـ) و(الفيروزابادي - ٨١٦) و(الزبيدي - ١٢٠٥ هـ) ، فماذا في زماننا الذي عشناه حتى اليوم وهذه الكلمة (الإخصاء) ؟

سأقصر الكلام على عملين :

معجم ، وكتاب تصدى صاحبه لتصحيح أخطاء دارجة :

١ - المعجمات التي أصدرتها الشام ومصر وغيرهما كثيرة بين مختصرة ومتوسطة ومطولة ، وغالبها قام بها أفراد، فهي أعمال شخصية لا تلزم لا أصحابها، الذين هم بين متعلم وعالم وجاهل مركب الجهل[1] . يتسم كثير منها بالجرأة والاقتحام حيث يتجنب أولو الفضل ويتخوف العلماء مزالقها . وغالبها تعرض للملام والذم ، وكان ضررها محققا ، ونفعها موضع ارتياب .

(١) لا يدري ولا يدري أنه لا يدري .

اختــرت من هذه الأعــمــال اللغــوية معجمًا أراد صاحبه الفاضل ، أن يحمل مــا ينوء بالعــصــبــة أولى القــوة فــرزح تحته ، ولم يستطع الوفاء بما عزم عليه . وعذره عندي أن مـا خطط له فـوق طاقة الفرد بأضعاف ، فكان من الطبيعي أن يقف ، على رغم مـا بذل من مـجـهـود وأنفق من مــال وسنين عـدة ، ذلك هـو (المرجع) للأسـتـاذ الشيخ عـبـد الله العلايلي أحسن الله إليه ، فـقـد أراده «معجمًا وسيطًا علميًا لغويًا فنيًا مرتبًا وفق المفرد بحسب لفظه» ، وألزم نفسه ذكر المقابل بالإنكليزية وبالفرنسية . فحوى جزؤه الأول المواد اللغوية بين حرف الألف وكلمة (جدا) في ٧٣٦ صفحة بالحرف الصغير الذي يكاد لا يتبينه سليم العين - هذا عدا قسم بالفرنسية .

ويعنينا منه الآن تناوله كلمة (الإخصاء) التي نحاول التأريخ لها . كنت أقدر أنه سيمر بها غير عابئ البتة - وكان من وراء تقديري القدر - فانجرَّ إلى المزلق وزاده توسيعاً ، إذ كانت عبارة الصغاني في ست كلمات ، فزادها شرحا ، ومكن لها بزوائد طفيلية عن يمين وشمال حتى صارت أسطرا ، وجعل لها المكان الأول في التعريف قائلا :

«الإخصاء مصدر من (خصي) : الاقتصار على فرع واحد من فروع المعرفة والعلم أي أفرده ولم يعدّد ... ومن «المنسوب» الإخصائي . بإزاء «انج Speciaist» و«فر T» المستحكم العلم في شئ ما . وله أيضا متخصص . وهو أصحُّه . وقوله : «وهو أصح» غير دقيق ، والصواب أن يقول : «وهو الصحيح» .

هذا المعجم (المرجع) عدد المعنى المزعوم الذي أداه الصغاني في ست كلمات ، وجعل له إضافات حتى كأنه هو المعنى الأساسي في الكلمة ، على غير ما يسوغ في المعجمات الأصولية ذوات المنهج الملتزم ، بينما لم يحظ المعنى الأساسي إلا بكلمتين . وفي هذا بعض الإخلال في التوازن الواجب ، الذي يفرق بين المعنى الأساسي والمعاني الفرعية .

إن سعة الميدان الذي أخذ المؤلف نفسه بالجولان فيه لا تُدرك ، وأنّي لفرد

واحد ، مهما يؤت من بسطة في الإمكانات العلمية والمادية ، أن يملك قدرات متخصصين متعددين في تخصصاتهم ليكون له معجم متعدد الأهداف (وسيط علمي لغوي فني مرتب وفق المفرد بحسب لفظه) وإزاء كل مادة فيه مقابل إنكليزي ومقابل فرنسي ؟.

أرجو ألا يكون أمثال هذا المأخذ كثيرة في معجم (المرجع) فإني أعرف صاحبه الصديق بكثرة الاطلاع وسداد الإدراك للغة . لكن طموحه فاق قدراته ، وجاوز بعيداً المدى الذي ظنه كافياً لهذا العمل ، وإن هدفًا واحداً منها لخليق باستنزاف سنوات من أعمار المجدين[١].

٢ - أما العمل الثاني من أعمال العصريين ، فكتاب (قل .. ولا تقل) للأستاذ مصطفى جواد العراقي ، فقد عرض لكلمة (إخصاء) بقوله ص ٩٧ :

« قل : متخصص بالعلم ، ولا تقل : إخصائي» ولو اقتصر على هذا لكفى ووفّى وأوجز؛ لكنه أراد شاهداً عليه ، وتوسعاً وتعليلاً له . فحاد عن سواء السبيل :

أولا: أما شاهده فقوله : قال جار الله الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار) وهو كتاب مشهور: «إن من لا يعلم إلا فنًّا واحداً من العلم ، ينبغي أن يسمى خصيَّ العلماء»[٢].

***

(١) كتب الأستاذ فؤاد أفرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية سنة صدور معجم (المرجع) صفحتين لتكونا كالتمهيد له فلم تمهدا لشئ ، بل كانتا فرصة أهتبلها للدعاية لمطبوعات بلده للمعاجم . ولا بأس في دعاية إنسان لمطبوعات بلده ولو خرج عن مراعاة الموضوع ، لكن القول قد اشتط به إلى الغلو بقوله : « .. حتى غدا كل متمرس بالعربية في مشارق الأرض ومغاربها ، إذا اعتاص عليه تعبير لجأ حتما إلى معجم لبناني – ص ج) اهـ وكان الله للمتمرسين بالعربية في مشارق الأرض ومغاربها ، وحماهم من الأسواء .

(٢) المجاز الذي استعمله العرب في (الخصاء) هو النقص والذل ، وهو ما وافق استعمال العرب . جاء في (لسان العرب) : «قال أبو المهوس الأسدي :

خصيتك يابن حمزة بالقوافي ... كما يُخصى من الحلق الحمار

قال الشيخ : الشعراء يجعلون الهجاء والغلبة خِصاءً ، كأنه خرج من الفحول ، ومنه قول جرير :

خُصى الفرزدق والخِصاء مذَلة ... يرجو مخاطرة القروم البُزَّل

قلت هذا كل ما في «لسان العرب ؛ لا شيء مما نقل القاموس المحيط عن الصغاني ، ولاما زعم المتأخرون من بعده حتى اليوم .

يفهم من قوله (ينبغي أن يسمّى) أنه لم يقع ، ولم يسمّ ، والزمخشري يقترح أن يسمّى بذلك ، أما الأستاذ جواد ففهم العكس ، ومضى يعلل قائلا : «والسبب في ذلك أن الوقوف على علم واحد عند القدماء كان عجزًا وعيبًا ، ومن لفظ الخصيٍّ المذكور في ذلك ، أخذوا الفعل (أخصى يخصي) ، والمصدر (الإخصاء) . فمعنى (أخصى فلان) صار خصيا (كذا) في العلم مثل أثرى صار ثريًا ، وأفصح صار فصيحا (كذلك أيضا) . قلت : لا يلزم من كلام الزمخشري شيء مما فهمه الأستاذ .

ثانيا : وتابع الأستاذ جواد تعليله مازجًا به استنباطًا آخر غير صحيح بقوله :

قال صاحب القاموس المحيط : «وأخصى تعلم علمًا واحدًا» ، فاستنبط منه ما لايدل عليه ، قال : «وفي قوله إشارة إلى أنه لم يتقن العلم الواحد(؟!)، ولو كان فيه دلالة على الإتقان لقال : علم علماً واحداً وأتقنه ، وبرع فيه وتبحر فيه .. وما إلى ذلك (أيضا) . فالإخصاء أقرب إلى الذم من التصريح به (كذا) . ثم إن قباحة اللفظ تدل على قبح معناه» وقد أحسّ بذلك من اختاره لتأدية معنى (سپْسيا لِسْت) الفرنسية .

وختم المؤلف كلامه بحكم سديد صحيح بقوله : «فأنت ترى أن «الإخصائي قبيح في المعنى وغلط في الوضع» .

قلت : ليته أراح القارئ من تعليلاته واستنباطاته ، واقتصر على السطر الأول والسطر الأخير .

***

مولد هذه الزلة إذاً ، المئة السابعة للهجرة ، ولم تعرف - في علمي- من قبل . أما المعنى فاطلبه في مادته الخاصة من المعجمات ، حيث تجد في مادة (خصّ) : خصّه بالشيء وخصّصه واختصه : أفرده به دون غيره . ويقال : اختصّ فلان بالأمر ، وتخصصّ له إذا انفرد به ، ويقال : فلان مُخِصّ بفلان أي خاص به»[1] .

(١) لسان العرب . مادة (خ.ص.ص) .

فالكلمة إذًا (أخصّ إخصاصًا) لا (أخصي إخصاء) . وعلى هذا فالكلمات (اختصاصي ، ومختص ، ومتخصّص ، ومُخِصّ ، ومخصّ ، وإخصاصي) كل أولئك صحيح فصيح ، أما إخصائي فخطأ فاحش قبيح (*) .

***

زلة الصغاني تلك في المئة السابعة للهجرة ، هي التي أزلّت صاحب القاموس المحيط في المئة التاسعة ، وأزلّت من تبعه تقليدًا دون انتباه إلى قبح معنى الإخصاء ، حتى يومنا هذا في المئة الخامسة عشرة .

وهذا هو الذي ينعته أهل العلم قديمًا بـ (الصحفية) ؛ فإذا قالوا : «فلان صحفي» ، عنوا أنه يأخذ علمه من الصحف بغير أستاذ ، فيزلّ بما تحوي من خطأ وتصحيف وزيادة ونقصان . أما الآخذ عن شيوخ العلم المختصين ، فهم يبصّرونه بخطئها فيصححه ، وبصوابها فينشره ويعلمه . جنبنا الله الزلل ، وهدانا إلى السداد .

سعيد الأفغاني

عضو المجمع من سورية

(*) من توفيق الله تنزه الطبعة الثالثة من (المعجم الوسيط) عن هذه الزلة القديمة ، وستتنزه أيضا الطبعة الجديدة من (المعجم الوجيز) قريبا إن شاء الله .

اللون والجمال
فى الشعر القديم

للدكتور عبد الله الطيب

قال امرؤ القيس :

ومثلك بيضاءِ العوارضِ } (البيت)

في بعض الشروح :

العوارض :صَفْحتا الخد . هذا خطأ.

قال عنترة :

وكأنّ فأرةَ تاجرٍ بِقسيمةٍ
سَبَقَتْ عَوارِضَها إليكَ من الْفَمِ

أي أسْنَانَها وبريقهن وحُسْنَهن – ترى ذلك وتَشَمّ طيبَه . وقال كعب بن زهير:

تَجْلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت
كأنّه مُنهل بالراحِ مَعْلولُ

وذكر الجوهري بيْتَ جرير :

أتذْكرُ يوم تَصقُلُ عارِضَيْها
بفَرْعِ بشامةٍ سُقِيَ البشام

ورواية الديوان :

أتنسى إذ تُودِّعنا سُلَيْمَى
بفَرْعِ بَشامةٍ سُقِيَ البشام

وهذا أحبُّ إليَّ ، على أنني أحْسَبُ أن البَيْتَيْنِ بروايتهما : كلاتَيْنك بلا ريب .

قول جرير : وفي صِحَاح الجوهري : قال أبو نَصر : يعني به الأسْنان ما بَعْدَ الثَّنايا والثنايا ليست من العارض (هكذا – وفي الهامش ص ١٠٨٦ طبع مصر – نقلا عن اللسان، العوارض) وعلى هذا فالفتاة كانت تستاك بفَرْع بشامةٍ مُجدَّةً في ذلك ، ثم فَطِنَتْ للوداع فأشارتْ بفرع البشام – شَرح أبي نصر للرواية التي رَوَى يوضح هذا المعنى . والعارضُ قد يُطْلَق على الثنايا وجميع الأسنان .

والعرب لا تصف الخُدود بالبياض ولكن تقول كما قال غيلان :

تُريك سُنَّةَ وجْهٍ غَيْرَ مقْرفَةٍ
مَلْساءَ لَيْسَ بها خَالٌ ولا ندبُ

واستحْسَن المتأخرون الخالَ لمقابلته بياضُ البَشَرة ومنه قول أبي الطيب :

عواذلُ ذات الخال فيَّ حواسد

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة الخامسة للمؤتمر المنعقدة بتاريخ ٢٧ من رجب سنة ١٤١٢ الموافق الأول من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢ .

وكما قال ابن ميَّادة (رَجَع الحديث إلى قَوْلِ غيلان وصفةِ الخدود بالصَّقلِ والبريق)

تَقُول خَوْدٌ ذات خدٍ براق

وقال غَيْلان :

برّاقةُ الجيدِ واللَّبَاتُ واضِحةٌ

وربما شبهوا بالدُّرة ؛ يريدون صفاء البشرة ورقتها – وذلك قول زهير :

فأما ما فُوَيّقَ العِقد منها

فمن أدماء مرتعها الخلاءُ

وأما المقْلتان فمن مهاةٍ

وللدرّ الملاحةُ والصفاءُ

الأدماء : الظبية ولَوْنُ الظباء السمرة والأدْمة السّمرة . والظبية الأدماء والأُدْمَانَةُ هي البيضاءُ فيها جُدَد ولونها لون جبلها – تأمل قولهم ، فهذا وَصْفٌ بالسمرة أظهر وعليها أدل .

وقال امرؤ القيس :

كبِكْرِ المقاناةِ البياضِ بصُفْرةٍ

غذاها نميرُ الماءِ غير المحلل

وفي بعض الشروح أنه أراد البرديّة ، ويقّويه قوله : «غذاها نَميرُ الماء» فهو لا يصلح أن يُرَدَّ على بِكْرِ بيض النعام ، ولكن ربما صلح أن يردّ على المشبهة ببكْر البيض . قال تعالى : «كأنهن بَيْضٌ مكنون» . وقيل : أراد الدرة . والعرب تقول النَّمير للماء العذب والماء الملح . والدُّرة منشأها في البحر الملح ولكن قوله : «المقاناة البياض بصفرة» ؛ أي التي تخالط بياضَها صُفرةٌ ، فيه بُعْدٌ مع الدرة . والمرأة مِمّا تُشَبّه بالبردية . قال الأعشي :

كبرديّة الغِيلِ وَسْطَ الغريفِ

إذا خالط المَاءُ منها السُّرورا

الغيل ، الشجر الملتفُّ والغريفُ الأجَمَة أي الغابة والسُّرورُ بَطْنُ البردية ، وإذا خالط الماء بَطْنَ البرديّة كان ذلك لها سبب اكتنازٍ وجَوْدَةٍ – أي إذا ارتوت من الماء .

ومن شواهد الجوهري في الصحاح :

جديدةُ سِربالِ الشبابِ كأنها

سَقِّيةُ بَرديٍّ نَمَتْها غيولها

وفي معلقة لامرئ القيس :

وساقٍ كأنبوب السقِيٍّ المذلّل

وفسروا أنبوب السقيٍّ بالبرديّ تنبت قصبته مع النّخل ، وهو السقيّ أيّ المسقِيّ

وقال قيس بن الخطيم :

ما تَمْنَعِي يقظي فقد تؤتينه
في النّوم غَيْرَ مصرّد محسوب

كان المُنَى بلقائها فلقيتها
فلهَوْتُ من لَهْوِ امرئٍ مكذوب

أي يا لك من لهو امرئ مكذوب ، إذ كان لهوا من طيف لا حقيقة له .

فرأَيْتُ مثْلَ الشمس عند طلوعها
في الحُسْنِ أو كدُنوِّها لغروب

صفراءَ أعجلَها الشّبابُ لداتها
مَوْسومةً بالْحُسْنِ غَيْرَ قطوب

تخطو على بَردْتين غذاهما
غَدَقٌ بساحةِ حائر يعبوب

قوله غذاهما غدق .. الخ ، كقول امرئ القيس « غذاها نمير الماء » وأحسبك فطنت إلى تكرار الغين في « غذاهما غدق » .

قوله بساحة حائر أي بمكان انساح فيه سيل يعبوب أو ماء مطر ، وسحاب يَعْبُوب أي كثير غزير . وأصل اشتقاق اليعبوب من عُبابِ البحر أي ارتفاع موجه . وأكثر ما يستعمل اليعبوب في وصفه الفرس الكريم . قال سلامة بن جندل :

من كلّ حَتٍّ إذا ما ابتل مليده
صَافِي الأديم أسيل الخدّ يَعْبُوب

وما تقدم من شرح أبي محمد رحمه الله . والحائر ما اجتمع من ماء المطر كقولنا «المَيْعَة»(١).

ونظر المخبل السعدي إلى كلمة قيس ابن الخطيم وذلك قوله :

برديّة سَبَقَ النعيمُ بها
أقرانها وغلابها عَظْمُ

وتُريكَ وجْهًا كالصَّحيفة لا
ظمآن مُخْتَلجٌ ولا جَهْمُ

فالمختلج الذي ليس بمستو ولا أملس وكأنه يابسُ قليل اللحم ، والجَهْمُ غير المليح أو كثير اللحم كثرة ممجة .

وقول ابن الخطيم « صفراء » على مذهب العرب في استحسان لون الصُّفرة في بَشَراتِ النساء . قال النابغة في متجردته :

صفراء كالسِّيراء أكمِلَ خَلْقُها
كالغُصْنِ في غُلوائه المتأوِّدِ

وقد يوصف بالغصن وبالبانة وكل ذلك في مجرى البرديّةِ . إلا أن البردية أدلُّ على الساق الخدْل وعلى القامة المُسبكرَّة .

(١) وأصل هذه الكلمة صحيح فصيح ، قولهم «مَيْعَةُ الشباب» أي ماؤه المترقرق وعنفوانه .

وتشبيه الأنصاري محبوبته بالشمس حين طلوعها مُنْبِئٌ بالرَّوْعة والإشراق الباهر ، وقد افتنّ في هذا المعنى حيث قال :

تبدّت لنا كالشمس تحت غمامة

بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وتشبيهه لها بالشمس حين دنوها لغروب ، فيه معنى هُدوءِ الضوءِ ووداعَتِه كما فيه معنى صُفْرةِ اللون الحَسنة .

وقال الأعْشيَ :

بيضاءُ ضَحْوتها وصَفْـ

ـراءُ العشيَّة كالعرارة

والعَرارُ نوَّار نَجْد - وقوله صُفراء العشية الخ كأنه عين مقاله حيث قال يصف هريرة :

مَا رَوضَةٌ من رياض الحَزْنِ مُعْشبَةٌ

خَضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يُضَاحِك الشمْسَ منها كَوْكَبٌ شَرِق

مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مُكْتَهِلُ

يومًا بأَطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ

ولا بأَحْسَنَ مِنها إذْ دَنَا الأُصُلُ

فقوله : «إذ دنا الأصل» فيه لون الصفرة . وهل كانت هريرة نفسها خضراء اللون كالروضة ، وبالإشراق كالشمس ، وبعلوق أصناف الطيب بهما صفراء العشية كالعرارة؟» وهل نظر أبو تمام إلى هذه الخضرة المُضَاحِكَةِ لضوْءِ الشمس ثم يكون لونها من أجل اكتهال النَّبت والعُشْب والنوار كأنه لَوْنُ الأصيلِ ذي الصُّفْرَة البهيجِ الوديعِ ، فقال :

تَريَا نهاراً مُشْمِساً قد شابه

زَهْرُ الرُّبا فكأنَّما هو مقمر ؟

وقال تعالى في قصة بقرة بني إسرائيل : ﴿ قالوا ادْعُ لنَا ربَّك يُبَيِّن لَّنا ما لَوْنُها قال إنّه يقول إنّها بقَرةٌ صَفْراءُ فاقعٌ لونها تسرُّ النّاظرين ﴾ - فوصف جلّ شأنه اللون الأصفر الفاقع ذا البهاءِ بالحُسْنِ وأنه يسر الناظرين .

هذا اللون الجميل في البقرة العزيزة جميلٌ أيضا في العقيلة من الكرائم . والعَربُ تُشَبِّه النساء بالبقرة الوحشية . قال أبو الطيب يتبدَّى وهو بِمصْرَ أقدمِ بلادِ الله في الحضارة وأعرقِهنَّ فيها :

لا تَجْزِني بضني بي بَعْدَها بَقَرُ

تَجْزي دُمُوعِيَ مَسْكُوبا بمسكوب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد احترس أبو تمام حين ذكر بني الأصفر أي الروم فزعم أن صفرتها صُفَرَةُ مرضٍ غير ذي إشراق ، وذلك في قوله :

أبقت بَني الأصفرِ المراضِ كاسمِهم

صُفْرَ الوجوهِ وجلَّت أَوْجهَ العرب

بالذي أصابوه من النصر .

وقيل إنما قيل للروم بنو الأصفر لأن أُمَّهم ولدَتْهم لزَنْجيٍّ فخالط لَوْنَ بياضها لَوْنُ سواده فصار ذلك في نسلهما صُفْرةً . ولعلهم إنما قيل لهم بنو الأصفر لما كان يُخالط سِبالَهم ولِمَّاتِهم من صُهْبَةٍ وتَذْهيب . قال عبد الله بن سَبْرَة يَصف مُنَازلَه الروميَّ - أطربوت - والأبيات التي منها هذا البيت في الجزء الأول من أمالي أبي علي القالي .

كأنَّ لِمتَّهُ هُدّاب مُخْمَلَةٍ

أحمُّ أزرق لم يُشْمِطْ وقد صلَعا

فقوله : هدّاب مُخْمَلَة» ، فيه دلالة على شَعر أصهب أو ذهبي . وقوله «أحمُّ أزرق» .فذلك لون عينيه . ولم يُشمِط أي شابٌّ ولم يخالط شباب شعره شَيبٌ .

والعرب تَصف العجمَ ولا سيما رُومهم وصقالبهم ومن إلى ذلك بزرقة العين وتعدُّه شؤما ، وقال الشماخ في رثائه أمير المؤمنين عُمَر رضي الله عنه :

وما كُنْتُ أخشى أن تكون وفاتُه

بكفيْ سَبَنْتَي أزرق العين مطرق

كأنه ثعبان ، ودافَع ابن حزم عن زُرْقَة العيون في طوق الحمامة «وفي طوق الحمامة» قولان ،

وقال عوف بن محلم :

فَفَرٌّ بَاني بأبِي أنتما

من وطني قبل اصفرارِ البنان

فهذه صفرة الموت وليست بذات بهاء.

وفي القرآن : ﴿ إنها تَرْمي بشَررٍ كالقصر كأنَّه جِمِلَتٌ صُفْر﴾[1] قالوا في تفسيره أي سُود . قال ابن جرير رحمه الله : وإنما قيل لها صُفْرٌ وهي سودٌ لأن ألوانَ الأبل سُودٌ تضرب إلى الصفرة ولذلك قيل لها : صُفْر، كما سمِّيت الظباء أُدْماً لِمَا يَعْلو بياضَها من الظلمة".

واعلم أن العَرب قد تقول للشئ أخْضَر وليس بأخضر ولكن تُقرّبه بذلك

(١) هذه رواية حفص عن عاصم ورواية الدوري عن أبي عمرو : جمالات وكلاهما جمع للجمع أو جمالة جمع جمل كذكارة جمع ذكر وجمالات جمع الجمع .

(وربما كان أسمرَ أو نحواً منه) إلى الخضرة ، كقول حسان :

أو من بَنِي جُمَحَ الخُضْرِ الجلاعيد

وكقول اللَّهبي من بنى هاشم يصف نفسه ويفتخر :

أَخْضَرُ الجِلدة من لون العرب

وربما سمَّت الشَّيَّ بلون يُدَانيه لا يَبْلغُه كقول الأعشى :

إذا تقوم يضوع المسك أصْوَرَةً

والزَّنْبق الورد من أردانها خضل

أي المُشْرَب بالحمرة . وقالوا : الأسد الورد وليس بورد ولكن تُخالطه سُمرة فيها ضرب احمرار. وقال الحسحاسي :

فلو كنتُ وَرْداً في الرجال عَشقنَني

ولكنَّ ربي شانني بسواديا

أي من هذه الألوان الروميـة التي جعلت تستحسنها العرب الآن ، ولكني يا للأسف إذ أنا من اللون الذي جعلت العرب تفرّ منه ، يَسْخَرُ العبد ويتهكم . وقد زعم من قبل أنهن تجمّعن إليه حتى اكتملن ثمانيا وما بنَى يائيَّته إلا على على عِشقهنَّ له الأسودَ العبْدَ في نظرهنَّ .

والعربُ ربما قالت الأحمر تعني مداناة البياض من السمرة ، وربما لقبوا أحدهم بذلك كالذى فى السيرة من خبر « أحمر بأسًا » أنه كان إذا بُيِّتَ الحرىُّ صرخوا به : يا أحمر ، جعلوا ذلك لقبًا وما أحسبه كان أحمر كحمرة الروم والله تعالى أعلم .

وقول الله تعالى : ﴿ ومن الجبال جُدَدٌ بِيض وحُمر مختلف ألوانها وغَرابيب سودٌ ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ يدل على أنه في اللون الواحد درجات يطلق اسمه عليها جميعًا وعلى هذا المعنى تفسير ابن جرير لله درّه .

وفي الحديث «بُعثتُ إلى الأحمر والأسود» ؛ فالأحمر العجم والأسود العرب وقال ابن الأثير في النهاية (١:٢٥٧) : لأن الغالب على ألوان العجم الحمرة والبياضُ ، وعلى ألوان العرب الأُدْمة والسمرة» .

قال أبو تمام يذكر رماح أبي دُلف في مدحة له :

مُثَقَّفات سَلَبْن الروم زُرقتها

والعرب سُمْرتها والعاشِق القضفا

تأملْ حِذق أبي تمام حيث قال «زرقتها» هنا ولم يقل صفرتها ؛ إذ الصفرة مطلقا حسن ولون العرب المحبب المفضل مدحه القرآن ومدحوه قصيداً ورجزا [1]. والقضَفُ النحافة . فللرماح المثقفات من الروم زرقة نصالها ، ومن العرب سمرة القناة نفسها ، وهذا يقوي عندك ما ذكرناه من قبل في البرديّةِ ومن العاشق النحافة والدقة واللطافة وهي لفظ التبريزي في شرحه .

وقال ابن الأثير في تفسير الأحمر والأسود :«وقيل الجن والإنس» فالعجم كما ترى يشبهون الجن والحمرة لون النار. «وقيل أراد بالأحمر الأبيض مطلقا فإن العرب تقول امرأة حمراء أي بيضاء» – قلت : والبياض هنا نسبي لا يُرادُ به كبياض الروم ، وعليه تسمية أُمِّنا عائشة رضي الله عنها حُميراء . فيما يُذكر من خبر كلاب الحَوْأب وهو منزل بين مكة والبصرة .

وقال ابن الأثير أيضا : «وسئل ثعلبٌ لم خُصَّ الأحمر دون الأبيض (أي أنه أشبه بالمقابلة أن يجعل الأبيض فى مقابلة الأسود ، لا الأحمر فى مقابلته هذا على ظاهر الأمر من وجوه البلاغة والبديع) . فقال – أي فقال ثعلب – : « لأن العرب لا تقول رجل أبيض من بياض اللون ، إنما الأبيض عندهم الطاهر النقي من العيوب فإذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا الأحمر » .

ثم قال ابن الأثير : « وفي هذا القول نظر ، فإنهم قد استعملوا الأبيض في ألوان الناس وغيرهم».

قلت : ماذكره ابن الأثير هذا صحيح، إلا أنه لا ينقض ما تقدم من قول ثعلب فقد كان رحمه الله بكلام العرب عالمًا حافظًا لضروبه متقنا . وما ذكره ابن الأثير يحسن أن يرّد إلى مواضعه فقد لا يزيد مدلوله على معان نسبية أو خاصة . مثلا قول رؤبة :

---

(١) كقول أحد بني جذيمة :

قد علمت صفراء بيضاء الإطِلْ   لأُغنيَنَّ اليوم ما أغنى رَجُلْ

والإطل هو الجنب . وقال آخر :

قد علمت صفراء تلهِّي الفرسا   لاضربن اليوم ضربا وَعْسا

فهذا رجز وله نظائر .

لقد أتَى في رمَضان الماضي
جَارِيَةٌ في درعِها الفضفاض
أبيض من أخت بني إباض

فهذا بياض نسبي كما تدل المفاضلة ولعلها هي وأخت بني إباض لم تكن الأسمراونى بالقياس إلى بياض العجم الذي هو من أشدّ الحمرة .

وقال الأعشي :

من كل بيضاء رُعبوبة
لها بَشَرٌ ناصعٌ كاللّبن

والسِّياق مشعر بأن هذه ليست من العرب ولكن من بغايا العجم كَكَأس عمرو التي شرب بعلبك وقرى الشام التي كانت آنئذ من بلاد الروم .

وكأْسٍ قد شربتُ ببعلبكٍّ
وأخرى في دمشق وقاصرينا

قال امرؤ القيس وهو في طريق رحلته إلى القسطنطينية :

لقد أنكرتْني بَعْلَبَكُّ وأهلها
ولابْنُ جُرَيْجٍ في قُرىَ حِمْص أنكرا

فجعل يشيم البرقَ أين مَصابُه يشتاق إلى ديار العرب وهو في ديار الروم .

وممّا يجري مجرى ما ذهب إليه ثَعْلب النعت بالبياض للدلالة على النّور والإشراق ، وجليٌّ أن معنى الطاهرة من بَيْضاء الأعشي التي كاللبن بعيد .

وقال قيس بن الخطيم :

بيضاءُ فرعاءُ يُسْتَضَاء بها
كأنها خُوطُ بانَةٍ قَصِفُ
تَغْترق الطَّرفَ وهي لاهية
كأنما شفّ وجهها نُزُفُ

أي رق وجهها كأنما نزفت فتوهج واحمرّ . والموصوفة هنا عَمْرَةُ بنت رواحة وفيها يقول :

وعَمْرة من سَرَوات النسّا
تَنفَحُ بالْمِسك أردانُها

وقبله :

فما رَوْضة من رياض القطا
كأنَّ المصابيح حَوْذَانُها
بأحْسَن منها ولا مزنة
دَلوحٌ تَكشَّف أدْجانها

فهذا إشراق جمال لا بياض بشرة . وعمرة كانت من الخزرج ولم يكونوا بِيضًا بل السواد عليهم أغلب وربما داني الخضرة قول حسان في بني جُمَح :

أو من بني جمح الخضر الجلاعيد

وقد يكون قوله «الخضر» نعتًا لما ذكر من قبائل قريش حيث قال :

لو كنت من بني هاشم أو من بني أسد

إلا أنه هنا على بني جمح رهط صفوان بن أمية (وقد أسلم بعد الفتح) وأبويه أمية وأُبيّ بن خلف أدلّ والله تعالى أعلم .

وقيل إن كعب بن زهير عرَّض بالأنصار حيث قال :

يَمْشُون مَشْيَ الجمالِ الزُّهر يعصممهم
ضَرْبٌ إذا عرّد السُّود التنابيل

قال السهيلي في الروض الأنف : «وجعلهم سودا لما خالط أهلَ اليمن من السودان عند غلبة الحبشة على بلادهم ، ولذلك قال حسان في آل جفنة :

أولادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قبر أبيهم
بيضُ الوجوهِ من الطراز الأول

يعني بقوله من الطّراز الأول أن آل جفنة كانوا من اليمن ثم استوطنوا الشام بعد سيل العرم فلم يخالطهم السودان كما خالطوا من كان من اليمن، من الطراز الأول الذي كانوا عليه في ألوانهم وأخلاقهم»[1]. وهذا من السهيلي رحمه الله وَهْمٌ فإن هجرة أولاد جفنة وابْنَيْ قيلة جميعا كانت في زمان واحد ، وما أرى إلا أن الأنصار نفروا من قوله : التنابيل فهو أدل على ما كان من قصر قاماتهم بالنسبة إلى المهاجرين وما كان الأنصار بأشد سوادًا من كثير من قريش ، فقد وُصفوا - عدد منهم وقبائل منهم - بالأدمة وبالخضرة كالذي مرّ من قول حسان وكقول الفضل بن العباس بن أبي لهب :

وأنا الأخْضَرُ من يَعْرفُني
أخضَرُ الجِلْدةِ من لَوْنِ العَرَبْ
من يُساجِلْني يُسَاجِلْ ماجداً
يَمْلأ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

(١) الروض الأنف تحقيق الأستاذ عبد الرحمن الوكيل ج٧ ص ٣٠١ /٣٠٢ ورواية الديوان والمشهورمن أمر قصيدة حسان «قبر أبيهم» «بعدَه قبر ابن مارية الكريم المفضل» ، «ثم بيض الوجوه» كريمة أحسابهم شم الأنوف إلى آخر البيت» .

وفي هامش الشرح ص ٣٠٤ عن لاميَّة «كعب قال وقد أورد ابن إسحاق القصيدة دون إسناد ، قلت وابن إسحاق معاصر مالك ووثقه البخاري ومسلم كلاهما ولم يكن دأب العلماء بسط الإسناد كل حين وكانوا في غير الحديث يختصرونه والسير والأشعار والنحو وكثير من التفسيرأجروه هذا المجرى ، وهذا باب يطول تفصيله ولا ريب في صحة ما روى من أمر لامية كعب لاشتهار ذلك وإشارة الشعراء القدماء وغيرهم إليه والله تعالى أعلم .

وكـأنهم إذ كـانوا أهل فـلاحـة وعـمل كَرِهُوا ما يدل عليه القِصـرُ مع سَوادِ الأعقاب من ضرورة وشقاء. قال النابغة:

ليستْ من السّود أعقاباًإذا انصرفت
ولا تَبِيعُ بجَنْبَيْ نَخْلَةَ البرما

وقال الفرزدق :

إذا القُنبضاتُ السُّودُ طَوَّفْنَ بالضُّحى
رقَدْنَ عليهم الحِجَال المسجَّف

هذا وقريب مما ذهب إليه ابن الخطيم ما قـاله جـمـيل يشبـه ضـيـاء الجـمـال واشراقه بفاثور الفضَّة :

سَبَتْنِي بعينيْ جُوذُرٍ وسط ربرب
وصَدْرٍ كفاثور اللُّجين وجِيـد

فجعل الصدر والثدي كلَّ ذلك إشراقا واحدا .

ومما يدل على صـحـة مـا ذكره ثعلب رحمه الله قول ابن أبي ربيعة :

أبرزوها مِثْلَ المهاة تهادَى
بين خَمسٍ كواعبٍ أتـــراب
وهي مكنونةٌ تحيَّر منها
في أديم الخدّين ماء الشباب

أخـذه من قـول ابن الخطيم «كـأنما شَفَّ وجـهـهـا نُزُف » يريد رقتـهـا ولُطْفَ شـبـابهـا وقـد أحكم المخـزومي المعنى وأتَّمه :

دُمْيَةٌ عند راهبٍ ذي اجتهاد
صَوّروها في جَانِب المحـراب
وتكنَّفْنهَا كواعبُ بيــــضٌ
واضحات الخدود والأقــراب
ثم قالوا : تحبّها ؟ قلت : بَهْرا
عدد النجم والحصى والتراب
حين شَبَّ القتولَ والجيدَ منها
حُسْنُ لون يرِفُّ كالزريـــاب
أذكرتني من بهجة الشمس لما
طَلَعت من دجنة وسحـــاب

فـالزرياب - كلمـة مـعربة - هـو الذهب أو مـاء الذهب . فـهذا لون الصـفـرة التي تسـرالناظرين . وقـوله في صـاحـبـاتـهـا وهي تِرْبُهن ومنهن أنـهن بيض واضـحـات الخـدود والأقــراب لا ريب على مــذهـب ثعلب . هُنَّ دون لونها لونهن ، أشدُّ منها أُدمةً ووضـوح خـدودهن لبريقـهن وتَـحَيّرُ مـاء الشبـاب فيـهـن . والأقراب الخـصـور ووضــوحــهـن وضــوح ضــمــورهـن مع اسـبكرارِ القـامـة . وبيضٌ أي حـسـانٌ حرائر كرائم . وقوله أذكرتني من بـهـجـة

الشمس ، من مقال قيس بن الخطيم « بدا حاجب منها وضنّت بحاجب » ، وقوله « حين شبّ القتول » عني به سحر العينين .

وقال أبو الطيب :

ألا خدّد الله ورد الخدود
وقَدّ قُد ود الحسان القدود

وقال :

نَسيتُ وما أنسى عتابا على الصدّ
ولا خفرا زادت به حمرة الخدّ

وقال :

حيث التقى خدُّها وتفاح لُـ
بنانَ وثَغْرَي على حُمَيَّاهـا
كَحْلاءُ فى بَرجٍ صفراء في نَعَجٍ
كأنها فضة قد مسَّها ذهب

أي صفراء لون البشرة الحسن الناعج - أي الخالص بياض ما كانت تعدُّه العرب أبيض من النعاج أي بقر الوحش ومن الإبل . وكل ذلك من درجات لون الرمل ولون السُّمرة كما لا يخفي .

وما كانت العرب في قديم أشعارها تمدح الخدود الحمر . فصارت بعد الحضارة لا ترى الجمال إلا الأحمر ، كما قال أبو عبادة البحتري :

ويَشوُقني وَردُ الخدود الأحمر
وأجرَى لها الأشفاق دمْعاً موردا

وقال أبو تمام :

من الدم يَجرى فوق خدٍّ مورد

وقال الحكمي :

يا قمرًا أبصرت في مأتَمٍ
يندُب شَجْواً بين أتراب
يبكي فيُذري الدمع من نرجس
ويلْطُم الورد بُعنّـاب

فأين هذا من حزينة عمر التي قال فيها :

فقامت كَئيباً ليس في وَجْهها دم
من الحُزنِ تَذري عَبْرَة تَتَحدَّرُ

فهذه لم تكن حمراء ولكن عربية سمراء غام وجهُها للهمّ والحزن بعد بَهْجَةٍ وبريقٍ وإشراق .

وما أحسب إلا أن العرب أرادت حاقَّ خضرة اللون أو كخضرته فيما نعتت من جمال تشبهه بخضرة الروضة وإشراق البرق في مُدجنات السحائب . وقال ذو الرمة :

أسيلةُ مستنِّ الوشاحين قانئٌ
بأطرافها الحِنَّاء في سَبِطٍ طَفْـلِ

أي كف سبط الأصابع ناعم

من المشرفات البيضِ في غيرِ مُرْهةٍ
ذوات الشّفاهِ الحُوّ والأعين الكُحْـل

وفي الأساس « الشفاه اللُّعْس » وفي الديوان « من الأشرفات » وأراه تحريفًا والصواب من الأساس وهذه سَمْراءُ لحوّةِ الشفاه ، وكذلك فتاةٌ طرفة :

وفي الحيّ أحوى ينفض المَرْدَ شادن
مظاهر سِمْطَيْ لؤلؤ وزبرجد
ووجه كأنّ الشمس ألقتْ رداءَها
عليه نقيّ اللون لم يتخدَّدِ

فلم يذكر هنا للخد حُمْرةً إلا تلميحا لبعض ما يكون في التفاح من توريد . وكأنه نظر في هذا إلى قول الرَّمَّاح بن ميادة :

فيهنَّ صفراءُ المعاصِمِ طفلة
بيضاء مثلَ غريضة التفاح

وذكر التّفاح في شعر العرب قليل. وذكره حسَّان لما كان له من علاقة ومعرفة بالشام وقرابة نسب من بني جَفْنة ملوكِ غسان . على أنه لم يذكر حُمْرَة خدٍّ ولكن أشار إلى الطعم وضمَّن ذلك معنى الرائحة الزكية الطيبة .

كأنّ سبيئةً من بَيْتِ رأسٍ
يكون مزاجَها عسلٌ وماءُ
على أنيابها أو طَعْمَ غضٍّ
من التّفاح هصّرة اجتناء
على فيها إذا ما الليل قَلَّت
كواكِبُه ومال به الغطاء
إذا ما الأشرِبَاتُ ذُكِرْنَ يوما
فهن لِطيِّبِ الرّاح الفداء

وأعرض أبو الطيب فلم يلتفت إلى ذكر وردِ الخدود في غزله بالبدويات:

من الجآذِرِ في زيِّ الأعاريب
حُمْرِ الحُلَى والمطايا والجلابيب

فجعل الحُمرة كما ترى لما عليهن من الحلية والثياب ولإبلهن ولم يَنْسُب إليهن الحمرة ؛ إذ الحمرة كما تقدم ذكر ذلك للعجم .

وكتب زياد إلى معاوية أيام عمله لعليّ واخلاصه له (وذلك قبل أن يستلحقه مُعَاوية ويصير هو ساعده الأيمن) يصف نفسه أحْمَر ضرَّابا بالسيف ، أي أعجميًا لا يعرف لنفسه في العرب نسبًا وإنما نسبه إلى أمه ولم تكن من الحرائر، فتلك لها عُجْمةٌ مع أن اسمها سُمية .

وقال ذو الرمة يهجو بَطنًا من بني سعد يقال لهم بنو امرئ القيس :

تَسَمَّى امرؤُ القيس ابْنَ سَعْدٍ إذا اعتَزَتْ
وتأْبَى السِّبالُ الصُّهبُ والآنف الحمر

ولكنَّما أصل امرئ القيس مَعشَرٌ

يَحِلّ لهم لحم الخنازير والخمر

فجعلهم لحمرتهم عَجماً روماً أو إلى الروم أقرب . وهو القائل في ميّة :

لمياءُ في شفتيها حُوَّة لعس

وفي اللثاتِ وفي أنيابها شنب

قوله : أحوى يجوز أن يكون أراد به فم الفتاة كالذي قال ذو الرمة من بعد «الشفاه الحُوّ» ويجوز أن يكون أراد صفة الشادن من الظباء وشبَّه المحبوبة به في أُدمة لونها وجمالها ، وأظهر من هذا وأشبه بالسياق أن يقال إنسان أحوى ، أي ضارب إلى السواد أي أخضر اللون أو آدمه شديد الأدمة . وقالوا في « لم يتخدَّد » لم يتشنّج ولم يتغضّن ، قال الشيخ السقا رحمه الله : « غير متشنج ولا متغضن لأنها في ريعان الشباب وربيع الحياة » .

وأشبه بظاهر سياق المعنى وأقرب إلى نمط بلاغة هذا الشاعر الفحل المقدم على غيره في هذه القصيدة خاصة أن يكون أراد بقوله لم يتخدد أي لم تُصنع فيه أخاديد . أي خطوط على خدّه . وهي التي نقول لها في عاميتنا الشلُوخ إذا كانت طوالاً والرشوم إذا كانت صغارا . قال الشيخ عبد الله عبد الرحمن رحمه الله :

الخدُّ لم تَجْرِ مُوسَى في جوانبه

والجيدُ في حُسْنِه عن حلية غان

وفي صحاح الجوهري قال :

لَقًى حملته أُمه وهي ضَيِّفَةٌ

فجاءت بِيَتْنٍ للضيافة أرشما

اليَتْن : الذي تخرج رجله في الولادة قبل رأسه وذكر الجوهري عجز البيت في مادة «اليتن» وقال : « والأرشم أيضا الذي به وشم وخطوط » .

والبيت للبعيث يهجو جريرا (النقائض طبع بريل بليدن ١٩٠٧م ص ٤٤) :

لَقًى حملته أُمه وهي ضيفة

فجاءت بتزٍّ للنزالة أرشما

قال أبو عبيدة في الشرح بعد تمهيد ذكره : « أرشم أصحم الوجه إلى السواد ، ويقال الأرشم الذي به وسم وخطوط ، ويقال الذي يشتمل على الطعام[1]. ويحرص عليه ويروي « من نزالة أرشما » - قلت وهذا أشبه ؛ إذ لم

(١) الحق أن الأرشم بمعنى الشره من باب إبدال النون ميماً . والراشن « هو الذى ياتى الوليمة ولم يدع إليها » كما ذكر الجوهرى رحمه الله .

يوصف جرير بأن على وجهه وشما ، كما لم يوصف بصُحْمة ظاهرة . وُصِفَ بنحو من ذلك غيلان فقيل إن ميّة فزعت من سواده . والذي في كتاب أبي علي أنه كان حلو العينين خفيف العارضين برّاق الثنايا واضح الجبين حسن الحديث » وأن ميّةً وصفها عصمة راوية غيلان فقال : « كانت ميّ صفراء أملودا واردة الشعر حلوة ظريفة وأن في النساء التي معها لأحسن منها وكانت عليها ثوب أصفر ونطاق أخضر » قلت فهذا نحو مما يلبس أهل بلادنا والنطاق الإزار .

وبيت البعيث كأن الوجه الصائب فيه رواية من روي «من نُزَالةَ أرْشَما » ، أي من نطفة أرشم أي ذي خطوط - كما هجا جرير البعيث بالحمرة هجاه البعيث أنه لغير رشدة من ذي رشوم لعله أسود عبد .

قول ذي الرمة « في غير مُرْهَة » قالوا أي في غير تَرْكٍ للكحل . وعندي أن هذا فيه بعد ، إذ ما يمنعها من الكحل ، وقد وصفها بأنها «كحلاء في بَرَجٍ» ؟ وليس النفي ههنا يقوي الإشعار بالمدح .

وفي قولنا لمن ليس في وجهه «شلوخ» أو «رشوم» في لساننا العامي « أمْره ومرهاء » ما عسى أن يستعان به في هذا الباب ، إذ أصل الأمْره الذي لا يخالط بياضه شيء . فيكون الذي ليس به وشم أمْره ، ولا يَنْفي أن ميّة كان بها وَشْمٌ أو رَشْمٌ سكوت عصمة عن ذلك ، والله تعالى أعلم .

وفي العرب منذ الجاهلية فزعٌ من السواد ، ربما كان من حاقّ أسبابه قوة صلتهم بأهله الغرابيب ، وأن السمرة والصفرة من السواد في اللون قريب . وقولهم أخضر يعنون أسود البشرة كأنه من لون السَّوادِ فرار .

وقال الآخر

أنسُب العبد إلى آبائه

أسودَ الجلدةِ من قوم عُبُد

وفي الفيروزابادي : «أسود ولد غلاما سيدا أو غلاما أسْوَد ، ضدّ » فكأن الأسود عنده عبد ضربة لازب وفي الصحاح بلا تعليق وذلك أصح وأجود .

وقول علقمة :

يحملن أُتْرجة نَضْخُ الْعبير بها

كأنّ تطيابها في الأنف مشموم

فيه إلماع إلى لونها خضراء أو صفراء كما يكون الأترج . وزعم بعض الشراح أنه « كأنها أترُجّة من طيب رائحتها » ، فحصر المعنى في أمر واحد وبعد هذا البيت :

كأن فارة مسك في مفارقها

للباسط المتعاطي وهو مزكوم

فهذا بيان لقوله «نضخ العبير بها» وبَقِيَتْ في الأترجة بقيات دلالةٍ من لون وجمال .

وإن تكن الفَرَسُ السلهبة التي في آخر القصيدة كناية عن سلماه فقد شبهها ، بالسُّلاءَة ، أي شوكة النحل وهي خضراء ، ولا يقدح في هذا أن السُّلاءة في شعر امرئ القيس ، ولعلّه على تقدمه اتّبع علقمة ، فقد كانا في زمان واحد ، وبينهما في قول الشعر تنافس .

والفحل الأكلف الذي في آخر القصيدة كأنه جعله رمزا لنفسه .

والأكلف الذي في سواده حمرة - حمرة ألوان الإبل ولا تكون قانية وقد مرّ بك أن الإبل السود يقال لها صفر فتأمل .

وقال طفيل الغنوي ، فذكر الوردة في ألوان الخيل وهي كما تقدم لم يذكرها القدماء في ألوان النساء ، وكانوا مما يشبهون النساء الحسان بالخيل وبالقلاص من الإبل تصريحا وتلميحا .

قال الأعشى :

عَهْدِي بها في الحيّ إذ أبرزت

هيفاء مِثلَ المُهْرَةِ الضّامر

وقال القطاميّ يصف الإبل :

يَمشِين هَوْناً فلا الأعجاز خاذلةٌ

ولا الخُصور على الأعجاز تتكل

وقال الأخطل وكان القطامي معاصرا له وهو أي الأخطل ، أسن :

وقد عَهدت بها بيضاً منعمة

لا يرتدين على عَيْبٍ ولا وصب

يَمْشِينَ مَشْيَ الهجان الأُدم يوعثها

أعراف دكداكة منْهَالة الكُثُب

من كل بيضاءَ معطال برهرهةٍ

زانت معاطلها بالدّر والذهب

حوراء عجزاء لم تُقْذَف بفاحشة

هيفاء رعبوبة ممكورة القَصَبِ

وهو كقوله :

كانت منازل أقوام فسيّرها

مرّ الليالي ونضخ العارضِ الهزم

وقد تكون بها هيفٌ منعمة

لا يلتفعن على سوءٍ ولا سقــم

يمشين مشي الهجان الأدم روّحها

عند الأصيل هَدِيرالمُصْعَب القطم

أي الفحل الهائج . وهنا نفس من أواخر ميمية علقمة. وقد مرت أبيات طفيل ومنها مما أشرنا إليه الآن :

ورَاداً وحوّا مشرفا حجباتها

بناتُ حصانٍ قد تعولم منجب

وقول يزيد بن الخذّاق :

ألا هل أتاها أن شكة حازمٍ

لديّ وأنيّ قد صنعت الشموسا

وداويتها حتى شَتَتْ حبشيّةً

كأن عليها سُندُسا وسدُوسا

فيه تشبيه المهرة بالفتاة وهي هنا حبشية جميلة تلبس الخُضْرة (السُّدوس) وقد يكون سُندسها أصْفَر كما ذكر عِصْمة من نعت ميّة . وخُزَامي الخرْجِ في ميمية ذي الرمة كالكناية عنها والمزنة الفارق والظلماء علجوم .

تلك التي أشبهت خرقاء جلوتها

يوم النّقا بَهْجةٌ منها وتَطهيم

ومعنى من جمال الحبشيات في قول أبي ذؤيب :

تروّت بماء البحر ثم تنصّبت

على حبشيات لهنّ نَئيج

ويروى (رواة الأصمعي رحمه الله) :

شَرِبْن بماء البحر ثم ترفّعت

متى حبشيّات لهنّ نئيج

ورواية النحويين وأحسبها مما روى الأصمعي[1].

متى لُجَجٍ خُضْرٍ لهن نئيج

فهنا إيثار لجمال البحر الملح ، وأمواجه الخضر على خضرة الحبشيات وصفرتهن . وقد صار الحبشي من بعد في مادة تشبيهات أخر ، العبد ذو الفرو الطويل الأصلم قد صرّح حبشيًا في قول غيلان :

كأنه حبشيٌّ يقتفي أثرًا

أو من معاشر في آذانها الحرب

وقول لبيد :

يضئ ربابه في المزن حبشا

قياما في الحراب وفي الالال

كأنّ مصفّحات في ذراه

وأنواحا عليهن المئالي

تصوير جمالي لا عنصرية فيه . ونَفَسٌ من عنصرية في قول الأخطل :

---

(١) شرح فى أشعار الهذليين ، دار العروبة ، مصر ، جـ ١ – ص ١٢٩ .

أناخوا فأدنوا شاصيات كأنَّها

رجالٌ من السودان لم يتسربلوا

وهو مأخوذ من قول الأعشي :

تَحْسِبِ الزّق لديها مُسندا

حَبَشيا نَام عمدا فانبطح

وقد رأى الأعشي بلد الحبش . ولعل الأخطل إنما عَنَى سودان جيش يزيد بن معاوية . وذكر الجاحظ أنه كانت لهم أفاعيل في يوم الحرّة . وفي الجاحظ عثمانية وميل إلى أمية ذو أصل قديم والله تعالى أعلم .

وقال العجاج وعنصر الاحتقار لا يخفي :

كالحبشي التفّ أو تسبّجا

وقال رؤبة يذكر الغربان الحُجّل أي التي تحجل (وهي مشية الغراب) وهي تَنْتَاش ما طرحته الرواحل من حَمْلها فصار للنسر والضبع :

وحُجَّل كدردق الأزْناج

أي كصغار أولاد الزنج . وقد صار أمر الحبش والزّنج والنوبة وسائر السودان في نظر العنصرية التي نشأت من بَعْد من إيثار الحمرة على سائر الألوان ، أمراً واحدا يُزْدرَي .

حتى لقمان العبد الصالح أو النبي قيل «كان عبدا مجدَّعا ذا مشفر» «وقصيرا أفطس الأنف من النوبة» «ومن سودان مِصْر ذا مشافر» وما أشبه مما ليس فيه توقير لابس عدم التوقير هذا المنبعث من العنصرية المنافية حقا لروح الإسلام ولماضي ما كان عليه العرب سذَاجَةُ القصص القديم ، وما لا شك فيه ، أن صحت روايته عن السلف أنه كان مرادا للعظة والتنبيه على سِعةِ رحمة الله إذ يجتبي من يشاء ويؤتي الحكمةَ من يشاء ويضع التقوى في القلوبِ فلا يشغلنَّ أولي الألباب مظهر لون الجسد وهيئته .

ومماشاع عند المتأخرين حين يتغزلون بسوداء أن ينسوا كل محاسنها بل أن يعتبروا سواد لونها شَيّناً ويحتفظوا لها بَعْدُ بفضيلة جنسية شَهْوِيّةٍ هي وحدها عندهم كل ما لدَيْها من حُسْنٍ يُعْتَذَرُ به عن لونها المرغوب عنه .

تُخْتَارُ لابن الرومي أبيات قافية في هذا المعنى منها قوله :

تزداد ضيقا على المراس كما

تزداد ضيقاً أُنشوطَةُ الوَهَق

في أبيات هي على نهجه من تشقيق المعاني على مذهب صناعة جدل البديع. «ولصاحب الطراز المنقوش في محاسن الحبوش» تفريع بارد في هذا الباب .

وفي أنساب الأشراف أبيات ليزيدَ بن معاوية يُفَضِّلُ فيها جاريةً له سوداء على ابْنةِ عَمِّه أم ابنه خالد من أجل فضيلةٍ جسديةٍ من هذا الضَّرْب .

وهي فضيلةٌ في الظاهر وفي باطنها ذَمٌّ مردّه إلى دَعْوَى التفوق العنصري الشديد . والحق أن التعصب والعنصرية مفسدان للذوق والرأي .

وقد عاب الكاتب الإنجليزي شارلس لام على قومه تمثيلهم رواية «توثيلو» لشكسبير إذ زعم أنه لا يصلح تمثيل منظر عِشْقٍ بين أسود وبيضاء وأنه سَمِجٌ . ولم يأخذ على شكسبير قِصَّته لحبه شعره وقال إنما صيغت لتقرأ لا لتمثل وتُرَى أشخاصا .

ومع هذا التعصب العنصري الذي حجب عنه ما قد يتأتي في «أوثيلو» من جوْدَةِ التمثيل تنبه شارلس لام ونبَّه على أن المغاربة قومٌ بيض بياضَ قومه وأن قَوْمَه يعرفون ذلك وقد رأوا منهم سفراء .

خَفِي عن شارلس لام أمر تعصب آخر هو عداوة الصليبية التي كان عليها قومه للإسلام والمسلمين . المسلمون لأنهم أعداءٌ ، سودٌ . وانطبع سوادُهم في قلوبِ الصليبية انطباعا منذ أيام يُوسف بن تاشفين حيث انتصر في الزلاّقة ومعه مجاهدون من المسلمين السودان على الجمال بأيديهم المزاريق .

والمغاربة المسلمون وأن يكونوا بيضا بياض الإفرنج و الصقالب ، فهم سودٌ عند نصارى الإفرنج لأنهم مسلمون ، لأنهم أعداء . سواد «أوثيلو» إسلامه المستتر ، أنطقه مع هذا شكسبير بما ينطق به الكفرة في قوله :

.... Set you down this;
And say, besides, that in Allepo once,
Where a malignant and a turban'd turk

Beat a venectian and traduc'd the state,
I took by the throat the circumcised dog, and smote him - thus[1]

ويقابل سوادَ البيض من المسلمين ، سوادَ العداوة واختلاف الدين ، بياضُ السُّودِ من نصارى السودان الحَبش .. حلم تخدير الأفيون ، رأى صمويل تيلور كلردج الحبشية جميلة رائعة :

A damsel with a dulcimer
In a vision once I saw:
It was an Abyssinian maid,
And on her dulcimer she played,
Singing of Mount Abora.,

وأنكر التعصُّبُ العنصري أن يكون من بَيْن السود نَبِيٌّ مرسل فزعم زاعمون أن الرق منع لقمان النبوةَ ، وقد شرى يوسف عليه السلام بثمن بخس دراهم معدودة فلم يمنع ذلك نبوّته ولا مَنعَها هرون عليه السلام وكان بنو إسرائيل جميعا ممن عبَّدهم فرعون .

وقال المعرى :

وما قام في علّيا زُغاوة مُنْذرٌ
فما بالُ سُحْم يَنْتَجِين إلى بُقْع

وفي تفسير الطبري لقوله تعالى «ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» أن الذين لم يقص قصصهم علينا أنبياء السودان . قال يسنده إلى علي كرم الله وجهه : «بعث الله عبْدًا حبشيا نبيا فهو الذي لَم نقْصُص عليك» – فالحبشيُّ كما ترى لا يكون إلا عبدا ، وصناعة القصص لا تخفي هنا إذ آخر سياق الخبر على خلاف ما نصت عليه الآية : ﴿ لم نقصص عليك ﴾ .

(١) اكتبوا هذا :
ثم أضيفوا أنه مرة في حلب ،
حيث خبيث من الترك معمّم
ضرب رجلاً من أهل البندقية وأهان الدولة ،
أخذت بحلقومه ذلك الكلب المختون
وصفعته هكذا –

(٢) فتاة ذات أوتار قانون // رأيتها طيفًا في حلم // كانت جارية حبشية // وكانت تضرب أوتار قانونها // تتغنى من جبل أبورا .
قلت هل عني بأبورا « أبرهة » أو « أتبرا » أو « عتباى » – كان كلردج واسع الاطلاع ولعله يشير إلى أغنية (سوناتة) شكسبير (١٢٨) ذات المغنية التي بعض وصفها كأنه محذو على مغنية أبى تمام التى تكسب يداها من الوجد ما لا تكسب الخدود . والله أعلم .

هذا وأحسبه غير خاف عنك قول الفقهاء بكراهة التجارة إلى بلد السودان كراهة تحريم[1]. وفي ترتيب المدارك للقاضي عياض رحمه الله : « وكان مالك يعجبه الموز ويقول : لم يمسّه ذباب ولايد أسْود وليس شئ أشبه بثمر الجنة منه ، لا تطلبه في شتاء ولا صيف إلا وجدته ، قال تعالى «أكلها دائم وظلها »[2].

وما أرى إلا أن مالكا رحمه الله قد أراد بالأسود هنا الشخص لا أمراً من السودان أسودَ اللون . ويقال للأشخاص أسْودة لأن كل شخص يرى أسود من بعيد . وجعلوها جمعا لسواد . ويقال أساود أيضا فهي جَمْعٌ لأسود بمعنى شخص . وأكثر السودان على مذهب مالك رضي الله عنه .

وقال نُصَيْب يعتذر عن سواد لونه ، وكان عبدًا فَعَتق :

سَوِدتُ ولم أمْلك سوادي وتحته
قميصٌ القوهيّ بيض بنائِقُـــهْ
ولا خَيْرَ في ودٍّ امرئ متكــارهٍ
عليك ولا في صاحبٍ لا توافقـــه
فإن شئْت فارفضه فلا خَيْرَ عنده
وإن شئت فاجْعَلْهُ خليلا تصادقه

ونسبها في بعض أبواب اللسان إلى عنترة . وإلى عنترة منسوب قوله :

لئن يعيبُوا سوادي فهو لي نَسَبٌ
يوم الطراد إذا ما فاتني النسب

وهذا كأنه من صناعة القصاص .

وقد كان امرؤ القيس من كِنْدَةَ وأصلها من اليمن وفي اليمن أُدْمَةٌ وسواد ، فهل كان له من ذلك نصيب ، فهذا إنكار بعلبك وابن جريح له حيث قال :

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها
ولابن جريجٍ في قرى حمص أنكرا ؟

---

(١) انظر حاشية العدوى على شرح الرسالة جـ ٢ ص ٤٤٩ – قال الشارح « إلى بلد السودان منهم للصلة المتقدمة وهى قوله : لأن فى ذلك تغريرَ الإنسان بنفسه وماله وإذلالاً للدين » . قال العدوى فى الحاشية : قوله الكفار منهم فهو من عطف الخاص على العام ونكتة ذلك أن الكفار السودان ليسوا مثل غيرهم من الكفار فى شدة الحمية فربما يتوهم جواز السفر » لهم ثم قال من بعد « واستظهر الشيخ أحمد زروق أن المراد بلاد السودان ولو المسلمين لما فيها من المخاطرة بالنفس والمال . ١ – هـ .

(٢) ترتيب المدارك ، طبع المغرب جـ ١ ص ١٢٥ .

وأنفاس، من إنكار ابن جريج على امرئ القيس لونه – إن كان أنكره – نحسها في قول المعري ، يُنْكِرُ على الصحابيّ المجاهد الجليل خُفَاف بن نُدْبة السُّلَمي ، وكان سيدُ سُلَيْم وحاملَ لوائها يوم حنين ، سواد لونه :

مثل خُفافٍ ساد في قومه

على اجتياب الحَسَب المُظْلِم

وقد كان خفاف في الجاهلية سيدا فزاده الإسلام شرفا ، رضي الله عنه وأرضاه .

وقد أحسن ابن الرومي بعد أن سما عن وَهْدةِ أنشوطة الوهق إلى أوج الإنسانية الرفيع فقال في رثائه ليحيى العلوي :

وعيرّتموهم بالسواد ولم يزل

من العَرَبِ الأمجاد أخْضَرُ أدعج

ومرثيته أهل البصرة أظهر فيها روْح الفاجعة والمأساة من سوي ذلك – وفي قوله : «دخلوها كأنهم قطع الليل » من السواد نفور عظيم . وهذا بعد أصلحنا الله وإياك أيها السامع الفاضل والقارئ الكريم بابٌ واسع يوشك أن يخرج بنا من رياض علوم الأدب إلى صحارٍ أُخر ليس لها من نهاية .

والله المستعان وبه التوفيق .

عبدالله الطيب

عضو المجمع من السودان

الحضور العربي في جزيرة سردانية

للدكتور عبد الهادي التازي

أعتقد أن الأطروحة التي تقول بأن العرب لم يخلفوا لهم أثرا من شأنه أن يذكر أهل سردانية بأيام العرب فيها - على نحو ما خلفته آثار بيزة وجنوة وإسبانيا وغيرها - أعتقد أنها أطروحة متجاوزة[1]، وإن جولة عابرة من ساسارس إلى كالياري، وخاصة في بعض المتاحف الأتنوغرافية، نورو (Nuoro) مثلا، لخير شاهد على ذلك الحضور الذي تحدث عنه أكثر من مصدر بعد ظهور الإسلام في المنطقة. فلقد قرأنا عن سردانية[2] عند ابن عبدالحكم (ت257-871) في كتابه: «فتوح مصر والمغرب والأندلس»، وعند ابن قتيبة (ت276 هـ = 889م) في «الإمامة و السياسة» وعند ابن بسام (542هـ = 1148) في «الذخيرة»، وعند الشريف الإدريسي (560=1155) في: «نزهة المشتاق»، وأبي حامد الغرناطي (565=1169) في كتابه «تحفة الألباب» والضبي (599هـ = 1203) في «البغية»، وياقوت (626=1229) في «المعجم»، وابن الأثير (630=1233)، في «الكامل»، والحميري (727=1327) في الروض المعطار، وأبي الفداء (732=1331) في المختصر، والنويري (731 = 1332) في النهاية، والذهبي (748=1348) في التاريخ، وابن عذارى (750=1349) في البيان المغرب، وغير هؤلاء ممن اختصرنا أسماءهم[3]...

(*) ألقي البحث في الجلسة الخامسة للمؤتمر المنعقدة يوم السبت ٢٧ من رجب سنة ١٤١٢ هـ الموافق الأول من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢ م.

(١) T. Crouther Gorlon. Sardaigne, Ency. Islam.

(٢) سردانية (Sardegna)، أو (Cerdéna): ورد ذكرها وضبطها وتحديدها في معجم البلدان فهي على مايقول: «جزيرة في بحر المغرب، كبيرة، ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وقريطيش أكبر منها»..

(3) MARIA Giov anna Stasolla : (Boloyna) - ARABI E SARDEGNA Nekka Storiografia araba del Medioveo - Centro di Studi Maghribini - Studi Maghribini, Volume XIV 1982
I NSTITUTO UNIVERSITARIO ORIENTALE Napolic - ITALIA.

وقد كانت معظم الإفادات التي وردت في تلك المصادر تتركز على المحاولات الأولى لافتتاح الجزيرة التي قام بها القادة العرب - وفي صدرهم موسى بن نصير منذ أواخر النصف الثاني للقرن الهجري = الموافق لأوائل القرن الثامن الميلادي ، كما تتركز على المصاعب التي واجهت الفاتحين سواء منها ما يرجع للمقاومة المستميتة لأهل الجزيرة أو ما يرجع أيضًا لرداءة أحوال الطقس التي كانت تعاكسهم باستمرار ..

ولعل مما يعبر عن تعلق العرب بالجزيرة أن نراهم يطلقون اسمها على أحد المواقع الجغرافية جنوبي القيروان حيث تم عقد العقد يوم الأربعاء 20 ذي الحجة 361=2 أكتوبر 972 لبلقين ابن زيري من لدن المعز لدين الله الذي وصل بلقين بالخِلَع الفخرة وأنفذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الأعمال وسلم له الخاتم ولقبه بخليفة أمير المؤمنين[1]. 1014 أبو الجيش مجاهد العامري الملقب بالموفق صاحب دانية (الأندلس) الذي اشتهر في المصادر اللاتينية باسم (Museto) والذي كان يريد أن يجعل من سردانية صقلية ثانية !! وقد قصد الجزيرة — على نحو ما نقرأه حتى في الشعر العربي - في مائة وعشرين مركبا ومعه ألف فارس [2]حيث اضطر السَّرَادنة إلى طلب النجدة من الجمهوريتين العظيمتين - ذلك العهد - بيزة وجنوة .. وبعد أن تحقق النصر لهما على جيش

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، ج 5، ص 361 .

رشيد بورويبة : الدولة الحمادية الجزائر 1977 ص . 14

(2) ورد في أرجوزة أبي طالب عبد الجبار في التأريخ لملوك الطوائف :

وثار في شرق البلاد الفتيان * العامريون ومنهم خيران

ثم زهير والفتى لبيب * ومنهم مجاهد اللبيب

سلطانة رسا بمرسى دانية * ثم غزا حتى إلى سردانية

هذا وتشيد المصادر الأندلسية بمجاهد «فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره» وعندما تذكر الدبلوماسية الأندلسية في أوج عظمتها يذكر مجاهد الذي كان «إذا سفر أصلح وإذا سعى أنجح» على حد تعبير الكاتب ابن القلاس أو القلالس ، على لسان ابن هود .

ابن بسام : «الذخيرة» تحقيق د. إحسان عباس ، القسم الثالث ص 418 - ص 943 - الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس 1974 .

مجاهد[1]... أخـذتا في التنافس على أمتلاك الجزيرة لحسابهما على ما تذكره المصادر الأوربية .

كلّ هذا قرأناه عن سردانية في تلك المصادر، لكن يبقى مصدر من المصادر الهامة في تاريخ الجزيرة أهملته كلّ تلك المؤلفات العربية وحتى الأجنبية ، بما فيها الإيطالية ، ويتعلق الأمر بالوثائق الدبلوماسية المغربية المكتوبة باللغة العربية ..

أذكـر أنني قلت في إحـدى محاضراتي : إنّه لا توجد حدود بين المغرب وبين أيّة أمة من الأمم في الشرق أو الغرب ، فقد كان التاريخ الدولي للمغرب حاضرا على مرّ الزمن ومع كل الأحداث الكبرى ، وفي كل المناسبات[2].

وهنا نقرأ مثلا من الأمثلة على ذلك ..

عندما أصبحت المنافسات على أشدها بين بيزة وجنوة على امتلاك الجزيرة كان لابد لكل منهما أن يبحث عن حليف له قوي يعزّز ظهره في الحوض المتوسط ، ولم يكن ذلك الحليف غير هذا المغرب الذي كان أسطوله على ذلك العهد أسطورة البحار[3] !!

(1) كان ممن وقع في الأسر بسردانية أهل مجاهد وحريمه وفيهن نساؤه وبناته وعليّ ولده ، ويذكر ابن عذارى في البيان المغرب ، عند الحديث عن دولة علي بن مجاهد الملقب قبل الدولة ، يذكر أن عليّاً هذا كان أسره الروم في صباه ، وقصته مشهورة عند الروم الذي نشأ بينهم ، وكان أبوه ، قبل فدائه من الأسر ، رشح للإمارة بعده ولده الأصغر حَسَن الملقب بسعد الدولة ، وصرف الأمر بعده لعلي هذا الطليق .. ويذكر التاريخ أن عليا هذا خرج من الأسر وهو يتكلم بلسان الروم ، الذي ربّى بينهم وتزيّا بزيهم . أقول : وهذا يشبه الأمير المغربي محمد الملقب بالبرتغالي الذي ظل أسيراً في البرتغال أمداً طويلاً قبل أن يفتديه والده .

محمد عنان : دول الطوائف ، القاهرة ، طبعة أولى 1380=1950 .

AMARI : Storia Dei Musulmani di SiCilra (Fierenze 1868) V. 111 P. 6-7-9.

(2) المحاضرة التي ألقيتها في جامعة محمد الخامس ، لتقديم موسوعتي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» بالمدرج رقم ١ كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية يوم الجمعة ٦ رجب 1410 الموافق ٢ يبراير 1990 تحت رئاسة السيد عبد اللطيف بن عبد الجليل رئيس الجامعة وبدعوة من د. عبد العزيز بن جلوان عميد الكلية .

(3) تعرضت سردانية طوال تاريخها لعدد من الامتحانات والاختبارات التي كانت تهزها وكانت أحيانًا تتعرض بسببها للتفتت والتمزق فكان طرف منها يتبع بيزة وجانب آخر يتبع جنوة وطرف ثالث يداهن هذه وتلك ، وكانت في هذه الأحوال ينطبق عليها المثل المغربي الذي قيل في حق مدينة أصيلة المغربية «أصيلة صغيرة ومحاينها كبار» ! .

ومن هنا سجل التاريخ عددا من الاتفاقيات الشفوية بين دولة المرابطين وبين جمهورية بيزة ، ولم تلبث هذه الاتفاقيات أن أصبحت مكتوبة حيث وجدنا القائد محمد بن ميمون يتولى توقيعها نيابة عن السلطان علي بن يوسف بن تاشفين عام 527=1133 ، بضع سنوات قبل أن تشيد المنارة العظمي التي اشتهرت بها مدينة بيزة !.

ولم يكن غريبا علينا أن نجد جمهورية جنوة تتهافت بدورها على بلاط المرابطين لتطلب ودّ المغرب في أعقاب ما بلغها من أخبار عن علاقات المغرب مع بيزة ، وهي الحقيقة التي يفسرها التجاء أهل مرسيليا إلى جنوة للتوسط لدى المرابطين حتى لا تتعرض مراكبهم لهجوم محتمل من قطع الأسطول المغربي[1].

وفي هذا الصدد قرأنا في أحداث سنة 547 = 1553 أنّ الأسطول الموحدي ، وبالضبط في أيام الخليفة عبد المؤمن بن علي ، يرفع الحصار عن بعض السفن في كالياري (سردينية) وكانت تابعة لجنوة !!

وقد أبرمت اتفاقية بين الخليفة أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن وبين كوكوكريفي السفير البيزي عام 561=1166 .. وبمقتضاها يتم التعاون بين الطرفين في المجال البحري..

وقد تبع هذا وصول خطاب من حاكم بيزة وسردانية أوبالدي (OBALDE) عام 576=1181 إلى أبي يعقوب يذكّره في الإتّفاقية سابقة الذكر ويشكو فيها مما تعرض له مركب تابع للجمهورية ، في طرابلس الغرب ، وهذا ما استدعى صدور مرسوم ملكي «في خمس نسخ يمسكون منها واحدة في بلدهم ويستظهرون بباقيها في البلاد المأذون لهم في الوصول إليها ..» وقد كان المرسوم يحمل تاريخ أوائل رمضان عام 582=1186 .

(1) TRAITES DE PAIX et DE COMMERCE ET DOCUMENTS DIVERS CONCERNANT LES RELATIONS DE L'AFRIQUE SEPTENTRIALE AU MOYEN AGE, PAR LF COMTE M.L. DE MAS LATRIE . PARIS 1866 - 1868.

وفي أثناء «التمرد» الذي حدث في المهدية (بتونس) ضد السلطة المركزية حوالي سنة 598 = 1202 وجدنا والي تونس الأمير عبد الرحمن بن الخليفة أمير المؤمنين يرفع خطابا إلى رئيس بيزة وسردانية وكورسيكا حول ما بلغ للحكومة المغربية عن مساعدة بعض السّرادنة للمتمردين في المهدية !!

ومعنى كلّ هذا أن الصلات بين المغرب وبين سردانية لم تنقطع في الفترة التي كانت فيها تابعة لبيزة أو جنوة ..

وخلال هذا وجدنا أن البابا بونيفاس الثامن يقوم عام 696-697=1297 بجعل الجزيرة إقطاعا للملك جاك الثاني ملك أراغون الذين دشن أيامه بإعلان الحرب ضد بيزة وجنوة معاً . !

وهنا وجدنا ملك أراغون يبعث بسفارته إلى المغرب عام 723=1323 إلى العاهل المريني السلطان أبي سعيد يطلب منه قرض أربعين ألف ضبلون (Double d'or) وإرسال عدد من الجند الأمر الذي استجاب إليه العاهل المغربي « .. كما تقدمت بذلك عوائد أسلافنا الكرام مع الملوك أمثالكم[1]..» .

وقد شهدت تلمسان 5 شوال 739=16 أبريل 1339 إبرام اتفاقية للسلام والتجارة لمدة عشر سنوات بين السلطان أبي الحسن بن أبي سعيد وبين جاك الثاني ملك أراغون وسرطانية[2] كما ترسمها الوثائق التاريخية التي تعتبر أقدم اتفاقية أبرمها العاهل المغربي أبو الحسن مع أعظم قوة كانت توجد على ذلك العهد في المنطقة ، وهي أي الإتفاقية ، تهدف على ما تقتضيه بنودها إلى التعاون بين الطرفين في مجال الملاحة البحرية كما تهدف إلى تحديد المواد التي يؤذن بالاتجار فيها وفق ما جرت به العادة في سالف الزمن»

(1) MAXIMILIANO A. ALARCON Y SANTON Y RAMON GARCIA DE LINARES : LOS DOCUMENTOS ARABES DIPLOMATICOS DEL ARCHIVO DE LA CORONA de ARAGON-Madrid 1940.

(2) ورد في الروض المعطار مادة (سرطانية) إنها بلاد المرجان ، قالوا : إن بها عينا تجري ، من شرب منها من الخلق وكان به وجع في عينيه أو غشاوة في بصره أو بياض أو أي ضرر ذهب عنه . فهل القصد إلى التي توجد جنوب القيروان ؟ .

على حد تعبير الوثيقة التي كانت تحتفظ بأصولها المكتبة الملكية بباريز[1]..

كلّ تلك الوثائق الدبلوماسية كانت تختفي تماما في المصادر التي تحدثت عن سردانية سواء منها المصادر العربية أو الأجنبية وخاصة منها النشرات الإيطالية التي تعرّف بماضي الجزيرة ، وكأن المغرب العربي لم يكن له وجود بالمنطقة !

لكن الشيء الذي أثار انتباهي حقاً هو أن زملاءنا في إيطاليا لم يعيروا أيضا كبير اهتمام لمصدر عربي آخر اهتم بالجزيرة ألا وهو الرحالة المغربي ابن بطوطة ..

كنت أشعر وأنا أتجول في معالم كالياري ومتاحفها المتعددة أن خيال ابن بطوطة يعترض طريقي وهو يتحدث عن ميناء عاصمة سردانية وعن حصونها وأسواقها ثم وهو يشير– وهذا مهم – لما كان يربط الجزيرة بمملكة أراغون أو بالحري ما يربط بين المغرب وسردانية عبر التاج الأراغوني ، ومن ثمت قدّرت حضور الرحالة المغربي أيضا في تاريخ الجزيرة الإيطالية .

وهكذا فإن مذكرات ابن بطوطه عن زيارته لسردانية في رجب 750 شتنبر1349 تعتبر – رغم اختصارها – وثيقة هامة عن الوضع السياسي في أقطار المغرب الكبير ، وعن حركة الأساطيل التجارية في حوض البحر المتوسط بصفة عامة ، وعن العلاقات الدبلوماسية التي كانت تربط المملكة المغربية بحليفتها آنذاك مملكة أراغون في أعقاب انتهاء مفعول الاتفاقية المبرمة في تلمسان عام 739-1339 بين السلطان أبي الحسن وبين الملك جاك الثاني سابقة الذكر .

علاوة على أنها ، أي المذكرات ، تقدم لقطات طريفةً لمدينة كالياري عاصمة سردانية ، ومن أجل كل ذلك حق على زملائنا في الجامعات الإيطالية أن يعدوا

(1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، المجلد السابع .. ص ، 196 .

ابن بطوطة مصدراً من مصادر تاريخهم في العصر الوسيط[1] !

لقد سمع ابن بطوطة وهو في القاهرة في مطلع عام 750=1349 بعد عودته من مناسك الحج ، بأصداء التطوّرات التي حصلت ببلاد المغرب أي بجلوس السلطان أبي عنان على كرسي الحكم في أعقاب الأنباء التي شاعت عن مصرع والده أبي الحسن بتونس .. وقد أحس بنوازع الشوق إلى وطنه سيما وقد مضى على مغادرته قرابة ربع القرن :

بلاد بها نيطت على تمائمي*

وأول أرض مس جلدي ترابها !

لقد اتجه نحو المغرب معرجاً على تونس حيث وجد السلطان أبا الحسن على حال من ضنك وضيق يعرفها الذين يتتبعون تاريخ تونس على ذلك العهد .

وهناك اجتمع بالسلطان المذكور الذي كان سأله بمحضر جلسائه أبي عبدالله السطى وأبى عبدالله محمد بن الصباغ من أهل المغرب وأبى على عمر بن عبدالرفيع وأبي عبدالله بن هارون من أهل تونس .. سأله عن الحجاز وسلطان مصر وملك الهند الخ ..

لقد استمر ابن بطوطة يتردّد على مجلس الملك زهاء ستة وثلاثين يوما .. أدرك خلالها أن الوضع في البلاد يزداد تفاقما .. ! وأن عليه أن يلتحق بوطنه في أقرب وقت ، ومن يدري ؟ لعله لو مدّد مقامه أكثر لعاد صحبة الركب الملكي مع الأسطول أوائل شوال 750 = أواسط دجنبر 1349 ولعله راح[1] في هم المأساة التي ذهبت بنحو ستمائة سفينة أو

(1) كل ما وجدته عن ابن بطوطة في سردانية هو الترجمة الحرفية للرحلة التي قام بها مشكوراً الأستاذ ف.كابرييلي(GABRIELI) وكذا التدخل المختصر جدا الذي ألقاه في ندوة الأسبوع المغربي المنعقدة بكالياري بين 22 و25 مايه 1969 .

F. Gabrieli : Viaggiatori arabi, biblioteca Sansani Firenze Viaggi di Ibn Battuta Scelta E Versione dall arabio di Francesco Gabrieli. Sansoni Editore Firenze 1961 - IBN BATTUTA. Viaggiatore M aghribino, Universita de cagliari, Istituto di Studi Africami .

(t) هناك حكمة تقول «لا يقتل الإنسان إلا همزه» وهو ما تذكرته عندما قرأت عن نجاة ابن بطوطة من عدد من المواقف التي كانت فيها حياته على قاب قوسين أو أدنى .. والمعتقد أن ابن بطوطة كان مرشحا .. وهو بتونس – ليكون ضمن الهالكين .

بالأربعمائة[1] عالم الذين لقوا مصرعهم في الكارثة التي رددت أصداءها كتب التاريخ المغربي[2] ، مهما يكن فقد حجز ابن بطوطة مقعده على متن سفينة أراغونية : «مركب قطلاني» كأن يربط الصلة بين تونس وتنس[3] ولكن عبْر جزيرة سردانية .

لقد كانت الطريق البرية غير آمنة نظرا للظروف التي أشرت إليها ؛ ومن ثمت فضل الرحالة المغربي هذا الطريق ولو أنه منعرج ! وهنا نأخذ صورة لما كانت عليه الحال على ذلك العهد في البحر المتوسط .. أي إنّ الأسطول التجاري لملكة أراغون هو الذي كان يتحكم في ممرات البحر سيما عندما كانت القيادة توجد في بلاد المغرب على حالٍ من التفكك والتفتت .. وعدم الاستقرار !

---

(1) كان من بين هؤلاء العلماء أبو عبد الله السطّي شارح الحوفي وأبو عبد الله بن الصباغ الذي ترجم له ابن خلدون في (ترجمته بقلمه) قال المقري : مات غريقا في أسطول السلطان أبي الحسن هو والفقيه السطي والأستاذ الزواوي .

نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ج 6 ص 215 .

(2) عرفت الكارثة عند الكفيف الزرهوني في (الملعبة) برّزية المسمار ، ولعله يقصد رزية الأسطول ، وكما يكنى عن المركب البحري باللوح يمكن أن يكنى عنه بالمسمار ، لأن المركب يتألف من اللوح والمسمار ويذكر المثل الأندلسي :«أن المسمار يضم اللوح» وفي القرآن الكريم : «وحملناه على ذات ألواح ودسر» وقد بادر أهل الجفن الوحيد الذي سلم إلى السلطان فاحتملوه .

الناصري السلاوي : الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج 3 ص 170 - 171 دار الكتاب - الدار البيضاء 1954 .

الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس 1966 .

ابن غازى : الروض الهتون : المطبعة الملكية 1964 .

ملعبة الكفيف الزرهوني تقديم وتعليق وتحقيق د. محمد بن شريفة المطبعة الملكية 1407-1987 ص 137 .

د. عبد الهادي التازي : جامع القرويين ، المسجد الجامعة بمدينة فاس الجزء الثاني ص 490 - دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى 1977 .

محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية - دار الغرب الإسلامى بيروت - لبنان 1406-1986 ص 407

(3) تنس : أحد ثغور المغرب الأوسط يقع غربي مدينة الجزائر العاصمة الحالية للجمهورية الجزائرية ، وكانت ترتبط بخط بحري - على هذا العهد مع سردانية ومع باقي الجزر المتوسطية .

كتاب الجزائر في التاريخ ج 3 تأليف د. رشيد بورويبة وزملاؤه ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 .

وكما تحط بنا اليوم السفن التجارية في بعض المراسي التي توجد على الطريق ، وكما يمكن أن يحدث عندما يقتضي الأمر أن نقضي بعض الوقت الذي يقصر أو يطول في تلك المراسي .. فقد وجد أبن بطوطة نفسه في كالياري (Caliari)[1] عاصمة جزيرة سردانية التي كانت تختلف اختلافا كليًا عما كان يألفه في المحطات التي نزلها في السنين السابقة . إنّ أهلها كانوا لا يتكلمون العربية ولم يجد فيهم من يعتنق الإسلام ! على نحو زيارته لبيزنطة . فهي إذن معدودة عنده من بلاد الروم كما كان التعبير سائدًا .

إنّ سردانية على هذا العهد كانت خاضعة لملكة أراغون على ما أسلفنا .

وقد نعت ابن بطوطة مرسى كالياري بأنه مرسى عجيب ، وبالفعل فإن المرسى يقع على خليج جعلت منه الطبيعة ميناء يسهل اللجوء إليه ، وتسهل كذلك حمايته وحراسته على ما نراه في هذه الخريطة التاريخية التي تصحب هذا البحث .

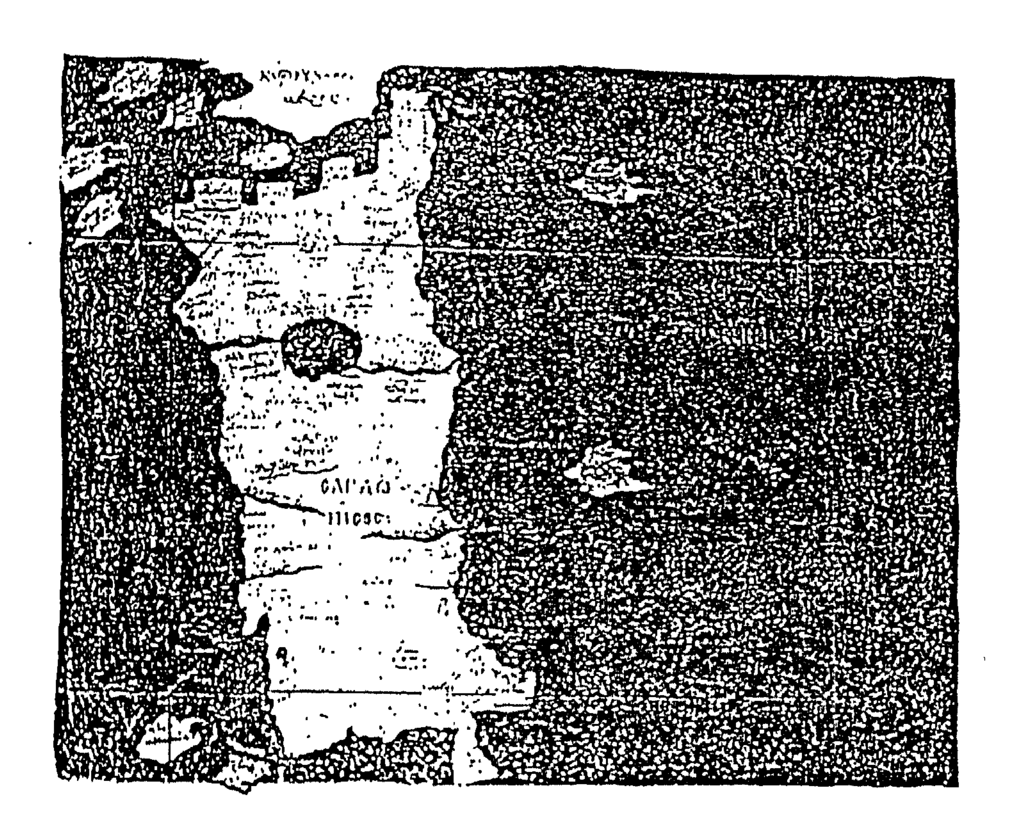
وقد غرست على حافات الميناء ألواح عظيمة الحجم من الخشب القوي دائرة عليه وعلقت بها سلاسل تتحكم في مدخله الذي يكون بمثابة باب للمرسي لا يفتح إلا بإذن من المسؤولين عن الميناء.

ذلك كان الانطباع الأول للرحالة المغربي .. وهو ما تؤكده المعلومات اللاتينية المعاصرة ، فقد ورد في الدليل البحري الذي وضعه ريتزو (Rizzo) نعت الميناء بأنه ميناء عجيب وأنه يقوم على متاريس قوية Bon Porto Fato Per Farza de Plangade.

وينزل ابن بطوطة الجزيرة وكعادته في حب الإستطلاع فإنه لم يلزم مكانا ينتظر فيه موعد إقلاع المركب إلى (تنس) ولكنه قام بجولة فى المدينة حيث شاهد حصون المدينة وذكر أنه دخل أحدهما .

---

(1) حظ حرف (G) في اللغة الإيطالية كحظها في اللغات الأخرى : إما حذف أو قلب إلى ياء أو كاف معقدة . ونحن نقول أحيانا في المسجد .. مسيد والخليجيون يقولون « ياء عوض ساء» والمصريون يقولون الكيزة عوض الجزيرة .



سردانية حسب وثيقة في
حاضـــرة الفاتيكان

سردانية في رحلة ابن بطوطة
نسخة بباريز رقم 2291 بخط الكاتب ابن جزي

ومن الثابت تاريخيا أن حكام جنوة هم الذين بنوا هذه القلاع (CASTEBGENOVESE) أيام التنافس الذي أشرنا إليه ، تحصيناً للمدينة من الأساطيل التي كانت تضيق الخناق علي الجزر المتوسطية .

ولم يحدّد ابن بطوطة اسم الحصن الذي زاره ولكنه على كلّ حال كان صادقاً في التعبير عن نقاط الدفاع عن المدينة .

وبعد هذا يذكر ابن بطوطة أن بالمدينة عدداً من الأسواق المختلفة ، ومعنى هذا أن ابن بطوطة وجد من الوقت ما يكفيه لزيارة الأسواق المنتشرة في العاصمة كالياري .

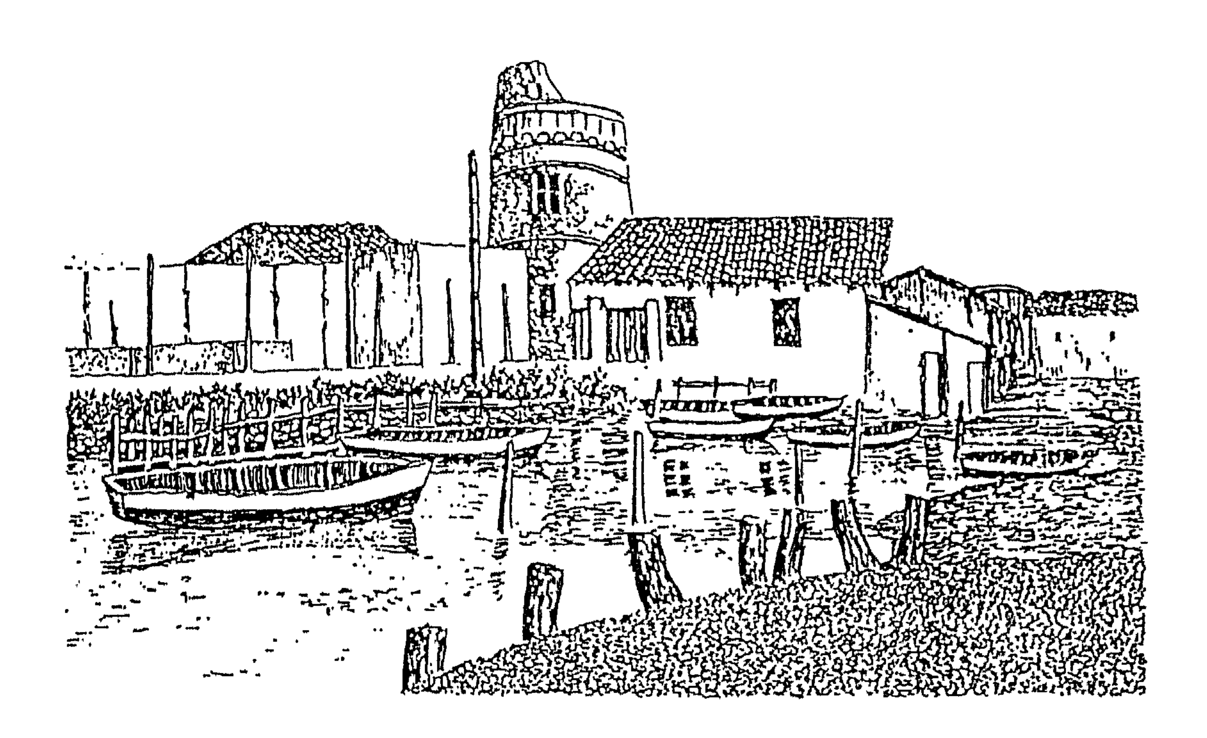
وبعد هذا تأتي الإفادة الطريفة .. وهي إحساس الرجل بأن السَّرادِنة – وقد عرفوا ربما عن هُوية الزائرين – ونفترض أنه كان يصحبه بعض آخر من أهل الجزائر والمغرب – أخذوا يتابعونه..!!

وهنا نرى من المناسب أن نذكر بصفحةٍ من صفحات التاريخ الدّولي للمغرب لنعرف عن العلاقات التي كانت تربط سردانية على ذلك العهد بالمملكة المغربية لنأخذ فكرة كاملة عن بواعث تلك «الهواجس» التي أخذت تخامر ابن بطوطة ..

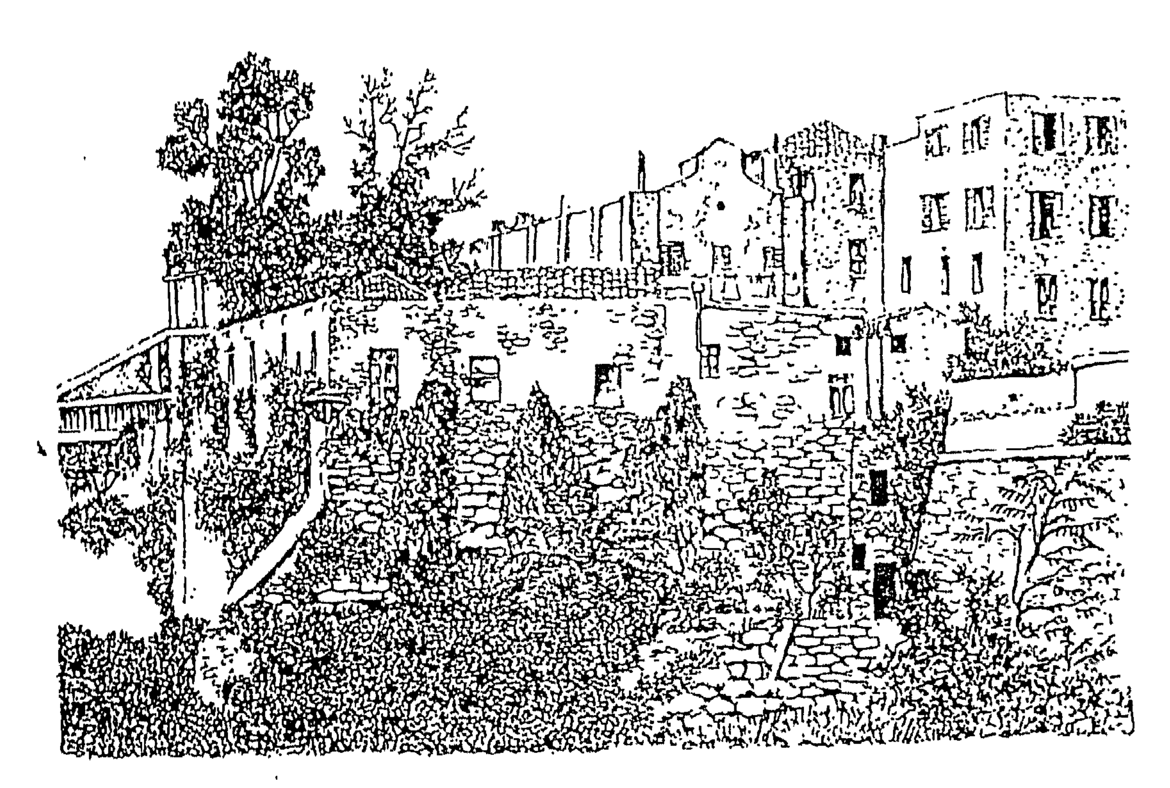
لقد سمعنا عن المساعدات المادية التي قدَّمها العاهل المغربي لملك أراغون من أجل اكتساح سردانية وخاصة الأربعين ألف ضبلون .. وخاصة جند بني مرين..

وكما تتسرب مثل هذه الأخبار اليوم فإنها تسربت – على ما يبدو– إلى أهل الجزيرة الذين يكونوا راضين باحتلال جزيرتهم ولو أن البابا بونيفاس الثامن أقطع الجزيرة للتَّاج الأراغونى على ماسلف ..

أكثر من هذا أن ملكة أراغون جاك الثاني أبرم اتفاقية في منتهى الأهمية مع العاهل المغربي أبي الحسن علي بن أبي سعيد بتلمسان يوم 5 شوال 1390 16 أبريل 1339 وهي السالفة الذكر ، وهو حدث اعتبر في نظر أهل سردانية مؤشرا واضحا على أن المغاربة كانوا متواطئين مع الأرغوانيين على احتلال بلادهم .. هذه تقديرات قد تخطر على البال ، واعتقد أنها واردة !!



جانب من ميناء كالياري



جانب من حصون كاليارى

وهكذا فقد كان لهواجس ابن بطوطة ما يبررها سيما وأن فترة المعاهدة المحددة في عشر سنوات ، كانت قد انتهت .. فلم يبق هناك التزام من لدن أراغون ولا من لدن المستعمرات السائرة في ركابها لحماية المغاربة الموجودين على أرض تابعة للتاج الأراغوني على ما تقتضيه معاهدة تلمسان ..

أقول : كل تلك العوامل الظرفية جعلت ابن بطوطة يشعر بأنه متابع ومضايق في حريته بل ومهدّد في حياته ، وهو الشعور الذي قواه لديه ما بلغه من أن أهل الجزيرة عازمون على متابعة المركب عندما يغادر الجزيرة ليأخذوه إلى الأسر!!

وقد رأينا الرحالة المغربي ينذر لله أن يصوم شهرين متتابعين إن هو خرج من هذه الزيارة سالما ..

ومن حسن الحظ أن ظنون ابن بطوطة لم تتجاوز أن تكون خطرات مسافر لا يعرف شيئا عن غده . !!

وقد حاولت أن أتتبع تعليقات زملائي الأساتذة الطلاينة على تلك الزيارة ، لكني لم أقف حسب علمي ، على أكثر من الترجمة الحرفية لما أتى به ابن بطوطة وهي التي قام بها مشكورا الزميل فرانسيسكو كابرييلي (F.Gabrieli) الأستاذ بمعهد الدراسات الإسلامية بجامعة روما والذي اكتفى أيضا بتدخل متواضع جدا حول ابن بطوطة(1) !

أما عن زملائنا من غير الطليان فإن المعلقين يختلفون من الواحد إلى الآخر فمعظمهم مر مرور الكرام لكن بعضهم استوقفته هذه «الانعطافة» من ابن بطوطة(2) ، وبعضهم من الأوروبيين كالأستاذ صطيفان ييرازيموس لم يكن

(1) IBN BATTUTA: Voyage, traduction de l'arabe de C. defremery et B.R. Sanguinetti 1858.
Introduction et notes de Stèphane Yerasimos T. 111, Edi. LA dècouverte , Paris 1990 .
Thomas J. ABERCROMBIE : Ibn Battuta, prince of Travelers (National Geographic Society) Washington, vol. 180 - No. 6 - Décember 1991 p.2-49.

(2) Ross E, Dunn: The Adventures of Ibn Battúta Cnoom Helm - London et Sydney 1986.

جـازمـا بـأن القـصـد بالمرسى إلى كالياري[1] مع أن الوصف المذكـور من قبل ابن بطوطة لم يترك مجالا للتفكير في غير كالياري ..

وأمـا عن زمـلائنا من المعلقين أو المختـصـرين ، فـإنه مما يؤخـذ على بعضهم إهماله نهائيا لنزول ابن بطوطة في سردانية لان إيجاز الرحلة زيّن لهم أن يحذفوا سردانية من لائحة الجهات التي تمت زيارتهـا من لدن الرحـالة المغربي[2] !

وإني على مثل اليقين من أن قصر مقام ابن بطوطة في الجزيرة حال دون إعطائنا فكرة عما إذا كان ما يزال هناك في وقـتـه أثر للوجـود العـربي في الجـزيرة .. على الأقل فـيـمـا يتـصل باللباس والأكل والعادات .. فقد علمنا أن الجزيرة تعرضت منذ ظهور الإسلام ، مـرارا وتكرارا للمحـاولات التي كـانت تهدف إلى اتخاذها محطة من محطات أسـاطيلهم وأنهم تمكنوا في بعض محاولاتهم من الشروع في إنشاء بعض القـلاع والمدن على مـا يذكـره الحميري[3].. أضـف إلـى كـل تـلـك المحاولات «الاستعمارية» إنّ صح هذا التعبير ، فإن تردد العرب الدائم على الجزيرة ، ونزولهم المستمر بها أمر معروف مشهور ، وحسبنا على سبيل المثال أن نجد اسم سردانية ضمن الدول التي تفتح لها المملكة المغربية سواحلها معاملة لها بالمثل ، هذا إلى أن سردانية كـانت محطة للوفـود المغـربيـة إلى

---

(1) F. Gabrieli : I Viaggi di Ibn Battuta - Scelta E Versione d'All' arabio, FIRENZE 1961-IBN BATTUTA; Viaggiatore Maghribino, Settimana Maghribina CALIARI 22-25 Maggio 1969 Publicazioni della Facoltà DI Giurisprudenza Istituto di Studi Africani 1970 .

(٢) محمود الشرقاوى : رحلة مع ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والاندلس وافريقيا 1968 مكتبة الانجلو المصرية ص 363 .

(٣) تذكـر بعض المصـادر أن السـرادنة بعـد أن هدمـوا مـابناه مـجـاهد أنشـأوا مكان ذلك مـدينة ألغيرو (ALGHERO)

الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تأليف : محمد عبدالمنعم الحميرى ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، مكتبة لبنان طبعة 1984 .

الامبراطورية العثمانية ذهاباً وإياباً حيث نجد أصداء تلك الزيارات في أرشيف الدولة ، وهو يتحدث عن المساعي الحميدة التي كانت المملكة المغربية تقوم بها لصالح افتداء أسرى الجزيرة المحتجزين في الولايات العثمانية بتونس أو الجزائر ، والعكس أي افتداء الأسرى المسلمين الواقعين في قبضة سردانية ، وهذا إلى الإتفاقية المغربية السردانية عام 1782 التي تعرف نصوصها في الحوليات الدولية .. إلى جانب بعض الرسوم التذكارية التي أخذت للسفارات المغربية (على سبيل المثال : عبد العزيز فنيش) أثناء استقبالها الكبير بميناء الجزيرة[1].

ومع كل هذا فهل يصح القول بأنه لم يبق في الجزيرة أثر من آثار الوجود العربي بها ؟ إني أعتقد أنه بالرغم من مقاومة أهل الجزيرة ومساعدة جيرانهم على إقصاء العرب من الجزيرة ، فإنهم – مع كل ذلك – تأثروا ببعض العادات التي حملها العرب إلى الجزيرة .

أعتقد – كما قلت في البداية – أن الأطروحة التي تقول : بأن العرب لم يخلفوا أثراً يذكّر أهل الجزيرة بأيام العرب فيها على نحو ما تركه وجود بيزة وجنوة وإسبانيا .. أعتقد أنها أطروحة تجاوزها الزمن ، وإن جولة عابرة في المتاحف التابعة للمعاهد العليا الإتثوغرافية المنتشرة في الجزيرة أصدق شاهد على ذلك ، لقد قدّرت كثيرا قيام كل إقليم من أقاليم الجزيرة بإصدار النشرات المتعددة عن إقليمه تاريخياً وحضارياً واجتماعياً وقدرت اهتمامهم بإنعاش مقاطعاتهم ومدنهم بل وقراهم الصغيرة[2] ... وإن رجائي مع ذلك أن

---

(1) RAMON Lourido Diaz : Marruecos y el Mond exterion en la secondu Witad del Siglo - XVIII INSTITUTO DE Coopercion con el Mundo Arabe Madrid 1989 .

د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب جـ 9 ص

CARLO Pilla : Tra. il 1786 ed. il 1787, du ambas, Ciatori marocchini si fermarono nella nastra città per oltre de mesi Almanacco di Cagliari 1986 .

(2) الإشارة إلى التعريف الذي قدمه إلينا عن نورو (Nuoro) السيد Giovanni Todde والذي قدمه السيد Michelle Carta عن أروزي Orosei .

يشمل ذلك الاهتمام البحث عن التأثير العربي في تلك الأقاليم والمقاطعات والمدن والقرى .. لقد وقفت على نماذج من الملابس التي كانت تتشابه تماما مع الملابس التي ترتديها السيدة العربية في الجهة المقابلة من البحر المتوسط ، وكذا كان الأمر في أنواع الحلى والمجوهرات التي تتزّين به السيدة السردانية .. التفنّن في إعداد الخبز وخاصة الرقاق المستدير المعروف هناك باسم باني كارازو (Pane Carasau) الصناعات اليدوية التقليدية .. كل ذلك لا يمكن مشاهدته من قبل زائرٍ عربي دون أن يشعر بمايعرفه سلفا في بيئته ومحيطه[1] ...

والأمل معقود على رجال البحث العلمي والآثار المهتمين بالأعلام الجغرافية (Caln Abbas) وكذا الانتربولوجيين المهتمين باللهجات المستعملة في اتجاه الجزيرة والألفاظ والكلمات العربية التي دخلت اللغة الإيطالية .. أقول الأمل معقود عليهم في أن يترصّدوا أثر العرب بالجزيرة ، فليس من الممكن إطلاقا أن يقتنع الباحث بوجود آثار كلّ الأمم الأخرى التي مرت بالجزيرة بمن فيها من لم تطل إقامته بالجزيرة ، دون أن يجد أثرا ما من الآثار العربية بها سيما وقد عرفنا عن أن مقام العرب طال أحياناً حتى لشيدت في الجزيرة بعض الثغور والقلاع ..

عبدالهادى التازى

عضو المجمع من المغرب

---

(1) "IL Museo et-Nogralico Di Nuara"

وثيقة رفيعة تضافر على إخراجها عدد من الباحثين المرموقين بإشراف باولو بيكير يدو P.Piquereddu .

نشر بنك سردانيا ،

وهذه وثيقة أخرى مختصرة بنفس العنوان أصدرها المعهد العالي الإقليمي الإثتنوغرافي :

"Il Museo et-Nogralico di Nuoro"

ثقافة الأديب المعاصر والتغريب

للدكتور يوسف عز الدين

بين الشرق والغرب :

مازال الصراع الحضاري بين الشرق والغرب مستمرا بالرغم من تطوره التقني الكبير فهو يرى الشرق قوة عارمة قوية تقف أمام طموحه الحضاري ورغبته في السيطرة الثقافية والهيمنة الفكرية لذلك يتجاهل حضارتنا وفضلها عليه محاولا طمسها ونسيانها .

قال ول . ديورانت في (قصة الحضارة) :

(إن قصتنا تبدأ بالشرق ، لا لأن آسية كانت مسرحا لأقدم مدنية معروفة لنا فحسب ، بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية ، التي ظن (سيرهنري مين) خطأ أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث ، فسيدهشنا أن نعلم كم مخترعا ألزم مخترعاتنا لحياتنا ، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي ومما لدينا من علوم وآداب ومالنا من فلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق) .

إن ديورانت يعترف بوضوح وبصراحة بأن مؤرخي الغرب لا يريدون وصل جذور حضارتهم بالشرق ، لذلك حالوا بكل جهدهم طمس حضارة الشرق ووليدها الأصيل الحضارة العربية الإسلامية وتجاهلوها وسموها حضارة الشرق ، لأن الحضارة اليونانية الغربية لها صلة بهم ، فهم يرونها أصل حضارتهم ومنبع ثقافتهم وقاعدة فنهم الجديد وأصل أدبهم . ولم تكن مصر وحدها التي أثرت في حضارتهم إنما تمتد الجذور إلى الأشوريين والكلدانيين والبابليين واستمدت قاعدتها من الشرق كله .. وقد اعترف ديورانت ثانية بأثر التعصب وتجاهل فضل الشرق بقوله :

(*) ألقى البحث فى الجلسة السادسة للمؤتمر المنعقدة ٢٨ من رجب سنة ١٤١٢ هـ الموافق ٣ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢ م .

(إن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسية في سطر واحد ولم يعد مجرد غلطة علمية ، بل كان إخفاقا ذريعا في تصوير الوقائع ونقصا فاضحا..) .

أوردت النصين عن كاتب منصف لأبرهن بأن كثيرا من علماء الغرب مازالوا يرون الثقافة اليونانية والفكر الروماني أصل ثقافتهم وعلى هذين المنبعين قامت حضارتهم وثقافتهم وفكرهم ليظهروا بمظهر القوى الذي لا يدين للشرق بشئ وأن حضارتهم ذاتية وخير من حضارة الشرق وأنضج من ثقافته ولابد للثقافة الناضجة والفكر الغربي المبدع أن يسيطر على العالم لقوته وأصالته وإبداعه .

ولاشك بأن الغرب وثقافته وحضارته دخلت إلى أفكارنا وسيطرت على كثير من عقول الكتاب ؛ لأن وسائل إعلامه في الصحف والكتب والإذاعة المرئية والمسموعة أصبحت علما يدرس ، وصناعة يجب أن تتقن ، وقد وصل في هذه الصناعة مستوى كبيرا ولن ترقى وسائل إعلامنا في الشرق كله إلى مستواه المتطور .

وسائل إعلام الغرب :

ولقوة وسائل الإعلام الغربي والأسلوب العلمي والفني في النشر والبثّ سيطرت على عواطف الجماهير وفهم نفسية الشرق ، وغدا سبيلا من سبل خلق الإبداع الفني والإنتاج الثقافي في الغرب نفسه وقد استغل الغرب هذ المواهب الإبداعية الكبيرة لفرض حضارته وثقافته وحياة مجتمع ومشكلاته الفكرية والأدبية على الأم وأبرز الفارق الحضاري بين حضارتن المعاصرة وحضارته الشابة الفعالة بع أن أثّر فكريا وحضاريا على كثير م التقاليد والعادات الشرقية ، وتمكن م الضغط على جماعة ممن ليست لـ الشخصية القوية والقاعدة التراثي الصلبة وأخذها إلى جانبه .

ومع أن الشرق بفكره وحضار وثوابت أصالته كان أقوى كثيرا م اليوم عندما جاء نابليون فقد استف

الشرق في حملته من ثقافة الغرب الجديدة وفكره المتطور ما كان متسقا مع تقاليد الشرق وعاداته الاجتماعية .. ولم تقدر هذه الحضارة على زعزعة الكيان الحضاري للأمة بل إن هذا التحدي الغربي كان له رد فعل أفاد الفكر والأدب وحضارة الشرق إذ نهض الفكر وتحرك بقوة وأخذ ما يناسبه وأبدع الكتاب والشعراء وتطورت الحضارة .. واستمرت هذه اليقظة حتى الحرب العظمى الأولى وزادت في الحرب العالمية الثانية وازدهرت في النصف الأول من القرن الحالي . ثم بدأت حضارة الغرب وثقافته تتغلغل بعمق وبقوة بعد انبهار المفكر بالمخترعات الكثيرة واستكان إلي الترف والرفاهية التي ولدتها هذه الحضارة .

التقليد والتبعية :

إن الانبهار بالحضارة الغربية التي تحمل ثقافته وأدبه وأسلوب حياته كان موضع استغراب من قبل البعثة الأولى التي ذهبت إلى فرنسة فقد رأي رفاعة رافع الطهطاوي أسلوب الحياة .

المصلحـــون :

إن ظهور عدد من المصلحين المسلمين والعرب كان سببا في توعية الأمة بالمخاطر التي سوف يتعرض لها الشرق من الثقافة الغربية للاختلاف الجذري بين الحضارتين والتباين بين العقيدتين فأراد المصلح رفع المستوى الثقافي في الشرق ليقدر على هضم هذا التحدي الجديد وينبه على مالايفيد الأمة من تراث الغرب وحضارته شرط الاحتفاظ بأصالة اللغة العربية والتراث الإسلامي منهم عبد الرحمن الكواكبي في كتابيه (أم القرى) و(طبائع الاستبداد) ودعوة جمال الأفغاني وتبعه محمد عبده ووُجِدَ هذا الصدى في كتابات محمد رشيد رضا وشكيب أرسلان .

التيـار المـادي :

كان رد الفعل واضحا أمام تيار الغرب المادي عندما نشرت (نظرية النشوء والارتقاء) لجارلس دارون في كتابه أصل الأنواع الذي احتقر الإنسان كونه سيد المخلوقات . وبما كتب شبلي شميل في (فلسفة النشوء والارتقاء) فرد

عليهم جمال الدين الأفغاني في (الرد على الدهريين) كما رد محمد عبده .. وكتب فريد وجدي كتابه (أطلال على المذهب المادي) للوقوف أمام التشكيك في ثقافتنا الروحية ومقاومة النظريات المادية الغربية .

موقف الشرق :

إن التطور العلمي أو الفكر الجديد في الغرب كان عاملا قويا في هز الشرق عندما رأي قوة الغرب وتطوره العلمي فقد أثرت فيه حملة نابليون والعلماء الذين جاءوا مع الحملة لما أسسوا المجمع العلمي المصري وبدأ العلماء المسلمون يحتكون بالعلماء الفرنسيين ووجدوا هناك علوما أخرى غير العلوم التي يعرفونها وقد حدثنا الجبرتي عن التجارب العلمية التي كانت تجري واندهاش علماء مصر بهذه العلوم الجديدة وقد كان ميالا إلى هذه العلوم وفضل الحكم الفرنسي على الحكم العثماني وحكم المماليك ، وذكر أسلوبهم في العدل وإصلاحاتهم وعدهم رسل الثقافة لا رسل استعمار فكان من أوائل من رضي بالثقافة الغربية . وكان حسن العطار أكثر صراحة عندما طالب بأخذ الحضارة الغربية عندما قارنها بما آل إليه حال مصر من تأخر وانحطاط . وجاءت (روضة المدارس) و(يعسوب الطب) وغيرها من المجلات التي صدرت وفيها طراز المجتمع وتقاليده تخالف كثيرا ما ألفه في الشرق ومن أبرز مواضع الاستغراب طريقة إعداد الطعام والشراب فوصفها لنا بقوله في تلخيص الإبريز :

لم نشعر في أول يوم إلا وقد حصل لنا أمور غريبة في غالبها وذلك أنهم حضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ونحو مئة كرسي للجلوس عليها لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان علي سجادة مفروشة على الأرض . فضلا عن الجلوس بالأرض ثم مدوا السفرة للفطور ثم جاءوا بطبليات[1] عالية ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية وجعلوا قدام كل

---

(١) الطبلية المنضدة ولعلها من الإنكليزية TABLE .

(٢) قزاز الزجاج ويريد قارورة .

صحن قدحا من القزاز وسكينا وشوكة وملعقة وفي كل طبلية قزازتين من الماء وإناء فيه ملح وآخر فيه فلفل ثم رصوا حول الطبلية كراسيً لكل واحد كرسي ثم جاءوا بالطبيخ ووضعوا في كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع لكل إنسان في صحنه شيئا يقطعه بالسكين التي قدامه ، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ولا بشوكة غيره أو سكينه أو يشرب من قدحه أبدا) .

هذا الاستغراب في طريقة تناول الطعام والجلوس إلى المائدة أصبح أمرا طبيعيا في عالمنا الشرقي فقد قرأت في مناهج دراسة التدبير المنزلي الأسلوب والقواعد ذاتها وبدأت المدارس تدرسها وتعلم الفتيات ترتيب المائدة ووضع الأطباق والجلوس إلى المائدة وطريقة الجلوس وقواعد تقديم الطعام ومتى يبدأ الجالس بالأكل وكيف يأكل .. وكأننا لم نكن نعرف حضارة الأكل وأسلوب تناوله .. لأن حضارة الغرب أصبحت جزءا من حياتنا وأسلوبا طبيعيا من شرائح المجتمع العربي الذي استغرب الطهطاوي من هذا الأسلوب حتى سجله لأنه شيء جديد غريب .

ضعف الشرق :

لا شك بأن شعور الضعف الذي استولى على كثير من أبناء هذا الشرق من جراء قوة الغرب وتقدمه التقني دعاه إلى التقليد منذ زمن محمد علي باشا . وعندما كان الجيل قوي الأصالة عميق الجذور في الحضارة الإسلامية أخذ من الغرب مالاءم تقاليده وعاداته ومثله ودينه ومجتمعه .

ذكر أعلام الغرب وعلمائهم مع مصطلحات حديثة في العلوم ومن ثم تبنت المقتطف ترجمة كثير من علوم الغرب ونظرياته فكان صدى هذه النظريات عميقا في فكر المفكرين في كثير من الأقطار العربية بخاصة نظرية التطور لجارلس داروين ونظرية جيمس جينز في تكون المجموعة الشمسية وظهور نظرية الجاذبية لإسحق نيوتن وأسهم شبلي شميل وصروف في نشرها وشرحها .

وفي العراق أصاب هوس الإعجاب بالغرب ونظرياته بعض المفكرين وكان أكثرهم اندفاعا جميل صدقي الزهاوي متأثرا بما تنشره مجلة المقتطف فدعا إلى مساواة المرأة بالرجل في جميع الحياة العامة والاختلاط قبل الزواج دون مراعاة المجتمع الإسلامي وتقاليده .

قال :

في الغرب حيث كلا الجنسين يشتغل
لا يفضل المرأة المقدامة الرجل

ويذكر سقراط وأرسطو وكوبرنيكس وداروين وسبنسر وأديسن وغيرهم من المخترعين والمكتشفين في الغرب مع الفلاسفة فقال في قصيدة الجحيم :

ثم إني سمعت سقراط يلقي
خطبة في الجحيم وهي تفور
وإلى جنبه على النار أفلا
طون يصغي كأنه مسرور
وأرسطاطاليس الكبير وقد أغر
ق منه المشاعرَ التفكير
ثم كوبرنيك الذي كان قد
أفهمنا أن الأرض جرم يدور
ثم داروين وهو من قال أنا
نسل قرد قضت عليه الدهور

وعندما مات توماس أديسون رثاه وسماه ملك الكهرباء :

يا بلاد الأمريك إنا معزو
ك على رزء قد أبى أن يهونا
ملك الكهرباء خلَّدك العلم
وإن كنت قد لقيت المنونا
ملك الكهرباء إنا محبو
بك وإن كنت في التراب دفينا
ملك الكهرباء إن علينا
لك فيما اخترعته لديونا

وقد أكثرت بعض المجلات من أسماء الكتاب والمخترعين والمفكرين والشعراء الغربيين وترجمت بعض آثار الأدب الغربي وعلومه أمثال فرويد وديكارت وكورنيل وأديسون وداروين ورسو ومنتسكيو وكوكول وتوركنيف وجيمس جويس ولافونتين .. وتبارى المعجبون بالعصرية التقدمية في حشد آراء الغربيين في مقالاتهم وكتبهم دون أن يهضم أكثرهم هذه الآراء أو تُعرف

دوافع هذه النظريات العلمية أو الفلسفة الأدبية وأسبابها وأهميتها الاقتصادية والاجتماعية التي أثرت في فكر الغرب .

أمام هذا الزخم الكبير من التيار الغربي الذي نشره كُتاب التحديث وقف التيار المعارض الذي كان يقف على قاعدة صلبة من التراث الإسلامي والأدب العربي وثبت أمامه ، لأن أكثر دعاة التغريب كانوا يجهلون جذور هذا الفكر والأسباب التي دعت إلى ظهوره وردد (العصري) الآراء كالببغاء دون عمق في الفهم ومعرفة بالأسباب فهو يتحدث عن الاتباعية (الكلاسيكية) ولكن يمثل بأمثلة من الإبداعية (الرومانتسية) ويتحدث عن الواقعية ولكن يمثل بالرمزية ولعد مرد هذا الخلط عدم فهم هؤلاء لنظريات الأدب والفكر الغربي فهما جذريا .

إن ثبات الفكر الشرقي أمام التيار الغربي يظهر قوة شخصية المفكر الشرقي الذي ما ضاعت شخصيته أو اهتزت مُثله أو ضاعت تقاليده وسلم من القلق والحيرة بالرغم من أن الفكر الذي وصله كان نتيجة قلق واضطراب في نفس الغربي من جراء الحروب والمطاحنات الطائفية والعرقية في الغرب وسيطرة المادية الجافة التي آمنت بالعلم والمختبر وبالتطبيق العلمي للنظريات الجديدة بعد انحسار سيطرة الإيمان الروحي من النفوس وتوغلها في العالم المادي الجديد .

إن الحروب والمنازعات الغربية انعكست على نظرياته وآرائه وفلسفته وعلى بنائه الفكري والأدبي والاقتصادي والاجتماعي .. إن فقدان الأثر الروحي وظهور المخترعات والاكتشافات الجديدة هزت الفكر الغربي القديم وأبرزت فلسفات وآراء جديدة ظهرت بعد الحروب الطاحنة فولدت الحيرة والقلق بعد تدهور المثل العالية وضياع التقاليد السامية التي كان يعيش عليها الفكر الأدبي التي أدت إلى ظهور تيارات فكرية وأدبية جديدة وأساليب فنية حديثة كالوجودية والسريالية وأدب اللامنتمي والدادية والتكعيبية والتجريبية واللامعقول والعبثية .

إن انشغال الفكر العربي بآلام حاضره سببت التوتر النفسي والحيرة التي كمنت في اللاشعور وأبعدت المقلد عن أصالة الفن ومتعة الجمال ورقة الأحاسيس الأدبية التي تلهم العواطف النبيلة والأفكار السامية ووضوح التعبير وجودة اللفظة وما فيها من صفاء روحي وهدوء لأن المتناقضات الغربية أدت إلى تشويه واضح في الإنتاج الأدبي والفني واضطراب في فلسفة الحياة التي رسخت في الفكر الغربي والتي وجد فيهاالكاتب العربي القلِق راحة نفسية .

الصراع الاقتصادي :

إن كثيرا من المفكرين المعاصرين لم يدرسوا الأثر الاقتصادي في السيطرة الثقافية والغزو الفكري وظنوا أن الاستعمار لم يأت إلا لنشر دينه وعاداته و تقاليده . والواقع أن الصراع كان بين الرأسمالية وفكر ماركس والفكر المتمثل بالشيوعية قويًا وأن التقدم الصناعي في الغرب أدى إلى وفرة الإنتاج وحاجة ماسة إلى المواد الأولية إضافة إلى أن الشرق خير سوق لبيع إنتاج المصانع المتقدمة التي تركت النول اليدوي إلى الآلة التي اختصرت عددا من العمال وأدت إلى بطالة لم تكن في الغرب من قبل الثورة الصناعية .

فالاستعمار الحربي أو السياسي جاء إلى الشرق وآثار الحروب للسيطرة على مخزن كبير للمواد الأولية رخيصة الثمن سهلة الحصول . جاء إلى الشرق تحت شعار تحضير الأمم المتأخرة وبث الحرية بنشر المدنية الأوربية وحضارة الغرب وعلمه وثقافته ولغته وقد كانت الكنيسة بقواها الدينية تسند هذه السيطرة التي أخفت باسم الدين والحضارة أزمتها الاقتصادية .

وجد الغرب ثوابت الشرق الحضارية ليست هشة الأخذ أو سهلة السيطرة لأن المفكر الشرقي له قاعدة من اللغة العربية ومن الحضارة الإسلامية درسها في الأزهر والمساجد في بغداد ودمشق ومكة المكرمة والمدينة المنورة والزيتونة ، وقف أمام تيار حضارة الغرب وهضمها واستفاد منها وطورها حسب حاجته وقوة إرادته والمنفعة التي تعود على أمته

فالعامل الاقتصادي كان الدافع الأول للاستعمار الحربي والسياسي والديني أخفاه وراء دعوة التمدن والحرية والحضارة .

إن مقاومة الاستعمار بالثورة عليه أو محاسبته أو رفض آرائه كانت تقوم على قاعدة الاختلاف في الدين واللغة والأصل بل بالشكل الخارجي لأن التراث الإسلامي الضخم لم يذب أو يضمحل أو يذهب إنما سكن في اللاشعور بالرغم من أن الحملات الأولى التي وصلت إلى الشرق كانت تلبس لباس البحث العلمي وحب الاستطلاع والسياحة .. أراد الغرب إضعاف هذه الشخصية القوية التي تقف أمام سيطرته بالدراسة العلمية والإحصاءات الحسابية وعرف أن الدين الإسلامي هو القوة التي تقف أمامه . وادعى بأنه سبب تخلف الشرق وانحطاطه فتصدى له المفكرون والشعراء والأدباء وفندوا هذا الزعم الباطل بإثبات أن المسلمين الأوائل قد تقدموا بالإسلام وتطورت حياتهم الحضارية فيه ومن هؤلاء معروف عبد الغني الرصافي قال :

يقولون في الإسلام ظلما بأنه
يصد بنيه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقا فكيف تقدمت
أوائله في عهدها المتقدم ؟
إذا كان ذنب المسلم اليوم جهله
فماذا على الإسلام من جهل مسلم
هل العلم في الإسلام إلا فريضة
وهل أمة سادت بغير التعلم
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلي
بصائر أقوام عن المجد نوم
فأشرق نور العلم من حجراته
على وجه عصر بالجهالة مظلم
وأنشط بالعلم العزائم وابتني
لأهليه مجدا ليس بالمتهدم

وكان رد الفعل الدعوة إلى إحياء التراث الإسلامي وإلى إصلاح أحوال المسلمين ونشر الثقافة العربية ونبذ كل غريب والاستفادة من مخترعات الغرب وفهم حضارته في الوقت نفسه .

نشر ثقافة الغرب :

بالرغم من قدرة الغرب على الحرب السياسية وانتصاره بالمخترعات الجديدة وبالرغم من أنه سيطر على كثير من

الأقطار العربية فلم تنثن المقاومة السياسية والتحدي الثقافي والحضاري فاضطر الاستعمار إلى إنشاء حكومات صورية حكامها من أبناء القطر وبدأ يحكمها من وراء ستار بالمستشارين الذين كانوا يعينهم مع الوزراء لامتصاص هذا التحدي وكسر حيويته الدافعة ثم بذل الجهد بإبعاد العربي عن التاريخ الإسلامي بالعناية بالتاريخ القديم مثل آشور وآكد وبابل في العراق وبالحضارة الفينيقية في الشام والحضارة الفرعونية في مصر وأخذ يظهر رمز هذه الحضارات في الطوابع والنقود وفي التاريخ ويعني عناية خاصة بها متجاهلا حضارة الإسلام والعرب واهتم بدراسة آثار الحضارة القديمة للقضاء على الاعتزاز الروحي والكيان الفكري وقطع صلة العربي والمسلم بالتراث لأنه متى انفصم عن تراثه أحس بالغربة والحيرة والقلق وعندما يعيش في الفراغ الروحي والقلق الحضاري يسهل على الغرب الاستيلاء على فكره وتوجيهه الوجهة التي يريدها ومتى تاه فكره ضل في روحه فسيكون إنسانا بلا قاعدة روحية وتسيطر عليه اللاأبالية ويندفع نحو اللهو والعبث والاهتمام بالمظاهر البراقة والطقوس الظاهرية والعدمية القاتلة دون أن يسبر غور الفكر الغربي ويعرف شيئا عن حضارته المزدهرة وتراثة الأصيل .

اللغة الأجنبية :

كانت أول محاولات التغريب نشر اللغة الأجنبية في أوطاننا لأن اللغة الغربية تحمل ثقافته وحضارته ومتى أحب العربي لغة الأجنبي فسوف يرتبط به ويزداد الإعجاب بالأدب وبالتالي بالثقافة وأخيرا بالحضارة .. فكان أبناء العراق وفلسطين والسودان يتعلمون الإنكليزية وأبناء الشام وشمالي إفريقيا العربية يتعلمون الفرنسية وطرابلس وبرقة وفزان يدرسون الإيطالية وقد تمكن الفرنسيون من خلق جيل لا يعرف لغته في المغرب وتونس والجزائر .

الغريب أن اليهود أحيوا لغتهم الميتة بل إن برودسكي كتب باليديش اللغة الميتة وأخذ جائزة نوبل وأصر اليهود

على العبرية وإحيائها مع أنها لغة محدودة الثقافة ضيقة الحضارة كما اعتزت اليابان وروسية وألمانية بلغتهم الخاصة .. إن نشر اللغة الأجنبية يهدف إلى هدفين :

الأول : فصل الأمة العربية عن أصولها وكنت أقابل في أوربا قسمًا من العرب لا يعرفون اللغة العربية ويتحدثون الفرنسية أو الإنكليزية بطلاقة دون أن يعرفوا شيئا من لغتهم فكانت اللغة سببا في ضياع الشخصية والانضواء تحت لواء أمة أخرى .

الثاني : إبعادهم عن القرآن الكريم وظهر ذلك بوضوح عندما رفضت ترجمة فارس الشدياق للإنجيل لأنها صيغت بأسلوب عربي متين ثم كتب الإنجيل بعدها بلغة ركيكة لا يحس المسيحي بجمال اللغة العربية وحلاوتها فتؤدي إلى الإحساس بجمال اللغة والعودة إلى جذورها ومن أهمها القرآن الكريم والحديث النبوي .

وقد فرض على الأطفال العرب تعليمها بقوة ونشأ جيل لا يعرف سواها وبواسطتها بث أفكاره باسم التطور والتقدم والعصرية والتنوير أو محاربة الرجعية والتخلف فكان بعض أصحاب الشهادات العليا من أدوات هذا التيار في مهاجمة التراث بعد أن غرس فيهم الإعجاب باللغة الأجنبية والتباهي بتعلمها كما تعلمها جماعة من العرب شعورا بالنقص أولا والاستفادة من وظائف الأجنبي ثانيا ، فوجدناهم يرطنون بفخر ومن كان منهم يستعمل العربية يحشو لغته ببعض الكلمات الغربية وأَكْثَرَ أصحاب الشهادات العالية من استعمال المصطلحات الأجنبية من اللغة التي درسوا فيها مع أن اللغة العربية تستوعب كل المصطلحات الأجنبية وقد وجد ما يماثلها بالعربية .

وعمل مجامع اللغة العربية المتواصل دليل على أن العربية مطواعة فقد أخرجت هذه المجامع عددا كبيرا من المعاجم لكثير من المصطلحات الحديثة .

وزاد الطين بلة الاستعمار اللغوي الذي جاء مع الخدم وأخذت الأم تتباهى بأن أولادها يعرفون اللغة الهندية أو لغة

الأردو أو التايلندية وللأسف أخذ العرب يكسرون بلغتهم عندما يتخاطبون مع الخدم وكان حريا بهم تعليمهم العربية لأن أكثرهم من المسلمين بفتح مدارس مسائية لتعليمهم اللغة العربية .

إن اليابان والصين وروسية تمسكت بلغاتها وبدأ تعلم العلوم بها . أذكر أنني قابلت شون لاي وكان الشخص الأول في الصين بعد ماتسي تونك وأخذنا نتحدث معه فكان يرد علينا بالصينية من خلال المترجم فقلت له ياسيادة الرئيس أنت تعرف الإنكليزية والفرنسية وجميل أن ترد علينا باحدهما .. فضحك وأجابني مرة أخرى باللغة الصينية .

إن المؤلم أن يكون العربي هو الذي يحمل ثقافة الغرب ويدعو لها ويعدها خيرا من ثقافتنا فهل رضي المثقف الصيني والياباني والروسي بهذا ؟ ولعل السبب في أن هذا المتعلم تعلم الثقافة السطحية عندما تعلم في الغرب لأنه لم يسمح لهم التفقه بعلومه وتقنيته وإنما بأخذ النظريات سريعا وجانبا من العلوم التطبيقية مع المتناقضات المتعددة للفكر الغربي . ولم يكتف الغربي بالسيطرة الثقافية وبنشر لغته إنما بذر الشقاق والفرقة إذ ظهرت ثقافات متنوعة في بلد واحد بانحياز كل مثقف للبلد الذي درس فيه واشتدت في بعض الأقطار هذه الفرقة وجرّت إلى صراعات طائفية وإقليمية وبذلك غنم الغرب من تفرقة الأمة وأظهر الأقطار العربية بأنها مختلفة متنازعة تقف ضد التطور والحضارة لأن أبناءها يحارب بعضهم بعضاوولدت في نفوسهم روح السيطرة الفردية والدكتاتورية وبذلك فالعرب ضد العلم والأدب والفن والحرية .

إن وجود لغة أخرى خلق ثنائية في التعليم وتمزقا ثقافيا أدى إلى وجود تعليم ديني وتعليم مدني وعلى هذه الثنائية أسست الجامعات العربية لتقابل التعليم في الأزهر بينما كان السلف الصالح لا يعرف إلى تعليما واحدا يخرج من مدارسه سواء أكانت المساجد أو المدارس وما انقسم المجتمع إلي جديد وقديم أو متطور ومتخلف وقد حدث تنافر كبير بين تعليم الأزهر ثم دار العلوم وبين

الجامعات الحديثة وبذلك خلق طائفتين أو جيلين ينادي كل واحد بأنه على حق وأن صاحبه هو الذي يعيش في الضلال.

الثقافة و التغريب :

اختلف المفكرون والأدباء في معنى كلمة ثقافة ؟

فما الثقافة ؟ :

ظن كثير من الدارسين المعاصرين بأن الثقافة هي كمية العلم والمعرفة التي يحصل عليها المتعلم من الكتب أو المقدار الذي يهضمه من المعلومات التي يتلقاها من المحاضرات العلمية التي يستمع إليها فسمي خريج الجامعة بالمثقف لأنه حصل على شهادة عالية .

لاشك في أن الدراسة الجامعية جزء ضروري من الثقافة بالمعنى الدقيق والمصطلح الواسع ولكن خريج الجامعة لن يكون مثقفا ولو حصل على أعلى الشهادات العلمية أو كان عالمًا في اختصاصه أو فقيها في فرعه لأن الثقافة هي معرفة الحياة ومشكلاتها وما فيها من متناقضات متعددة وبالرغم من أن جذور الكلمة كانت محدودة بأمور الزراعة لأنها كانت علم الإنسان المزارع وحاجته العامة فكلمة Agriculture كانت تشتمل علي علم الزراعة وتمثل حاجات المزارع وكانت ثقافته ومعلوماته المتعددة في الزرع والحصاد والمطر والحرث وتطورت هذه المعلومات لإنتاج أفضل وغدت كلمة الثقافة Culture جانبا من جوانب هذه الحاجة الإنسانية في حياته التي تحضرت وتطورت .

إن الربط بين كلمة (زراعة) و(ثقافة) باللغة الإنكليزية ليست جديدة في الساحة العلمية فقد تنبه لها قبلي (صاحب قصة الحضارة) لارتباط الحضارة والمدنية والثقافة بعضها ببعض برغم اختلاف الأسماء التي وضعت لكل جانب من هذه الجوانب لأن الحياة أو الثقافة بدأت في الريف وإنتاجه الذي يذهب إلى المدينة كالصناعة التي بدأت في المدينة ونمت فيها وخلقت مجتمعا صناعيا جديدا في مُثله وعاداته وأسلوب حياته الذي تكون فيه ساعات الفراغ أكثر مما في الريف والقرى وفي اتساع

الوقت تظهر المناقشات والحوار وتبادل الآراء وبالنقاش تظهر أمور جديدة وأهداف حديثة لا تحدث في حياة القرى والأرياف .

فالثقافة بدأت من زراعة الفلاح وحراثته واتصلت بثقافة المفكر في المدينة ثم تطورت فيها أساليب التعليم واتسعت الكلمة وأصبحت التقويم والتطور والحذق والمهارة في العمل والفكر . قالت العرب ثقف الرمح قوّمه أي قوّم المعوج وظفر باستقامته وتقويمه وبذلك فالظفر بالشيء أصبح ثقافة وثقف الشئ حذقه وثقفه ظفر به .. قال تعالى ﴿ فأما تثقفنهم في الحرب ﴾ الأنفال ٥٧ وقال : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ وعدت كلمة ثقافة هي الحذق والمهارة والتعديل والتسوية والتقويم .

إن الصناعة في المدن توجد ساعات إضافية تتلاقى فيها الأفكار ويظهر الإبداع عندما يجد جماعة من الناس الوقت الكافي يصرفونه في الدراسة العلمية والفنية والأدبية وخلق الجديد وتطوره .. إن توفر جماعة من الناس على الصناعات والظفر بإتقانها أو بالفنون الجميلة معناها الثقافة الواسعة وقد نوقش هذا الرأي وعورض من قبل المعاصرين لتطور المفهوم وتداخله بأمور الحياة المعاصرة لكن ما نزال نرى أثر الزراعة في الكلمة ونجد جذورها في الحضارة .. فالثقافة هي تقويم العقل وتعديل المعوج بالعلوم التي يدرسها والفنون التي يتذوقها والتجارب المتعددة التي يكسبها من الحياة العامة وبالتالي فالثقافة تطلق على (ما يمارسه الناس من أنواع السلوك وأنواع الفنون وإما على مجموع ما لدى الشعب من أنظمة اجتماعية وعادات وفنون).

وعلى هذا المدى الواسع لفهم الثقافة بدأ التخطيط ووضعت الوسائل للسيطرة على الفكر العربي والتراث الإسلامي والعقل الشرقي وكان أول هذه الخطوات إبعاد الثقافة العربية عن جذورها لبناء جديد فيه متناقضات الغرب لجعل الفكر محايدا ومن ثم يكون غريبا وأخيرا حائرا يبحث عن الملجأ الذي يأوي إليه .

فما الأساليب التي يُسيطر فيها على الثقافة ؟

١ - السيطرة على حياة المجتمع العربي بنشر أساليب حياة المجتمع الغربي وطريقة حياته الاجتماعية ومثله وتقاليده .

وقد بدأ ذلك منذ الحملة الفرنسية فقد دخل نابليون مصر ٢٤ تموز ١٧٩٨ وادعى الإسلام وأنه جاء لإنقاذ مصر وبهر الناس بالمثل وطراز الحياة وتدخل في عقولهم عندما أشعرهم بأن لهم الحق في حكم أنفسهم وأسس (الديوان العام) واختار أعيان مصر لهذا الديوان من المحافظات واختير علي الشرقاوي رئيسا بالاقتراع السري وقارن الشعب بين الحرية التي منحها للناس وبين حكم المماليك والعثمانيين الذين كانوا ينظرون إلى المصريين باستهانة وعدم احترام وبدأت تكبر هذه الفكرة وبذرت فكرة الديمقراطية الغربية في الشرق .

ولسنا نخاف التغريب إذا كان سببا في تطور الحياة وتقدمها ونشر الحضارة السليمة والأخذ بها ولكن نخاف من خطط تطمس ثقافتنا وتدمر كياننا الحضاري والقضاء على المثل السامية والحياة الاجتماعية والاقتصادية وتدميرها لصالح الغرب أو ثقافته الجديدة تقضي على الثقافة العربية ومقوماتها بادعاء أنهم يمثلون المجتمع العالمي .

وقد تنبه رفاعة رافع الطهطاوي إلى هذا وهاجم بقوة جانبا من الحضارة الغربية وثقافة الشعب الفرنسي التي لا تتفق مع مثله وتقاليده مع أنه أثني على كثير من أساليب حياة فرنسة وطريقة المجتمع في الحياة مثل حرية الرأي وإصدار المطبوعات والتنقل والكسب لأنه اختار بصورة موفقة الشيء المفيد من الثقافة وصفي العادات والأخلاق التي تقدم الأمة وحافظ على شخصيته القوية .. بينما جاءت بعده طائفة دعت إلى الأخذ من الغرب حياته ومثله وطالبت بإبعاد كل المثل العربية والشرقية والإسلامية .. فقد قال سلامة موسى بصراحة تامة ووضوح عبارة بضرورة الأخذ من الغرب وهاجم الفتح الإسلامي

والدول العربية كلها لأنه أراد التغيير الكامل والاندماج في حياة الغرب في كتابه (اليوم والغد) قال : (هذا مذهبي الذي أعمل له طوال حياتي سرا وجهرا فأنا كافر بالشرق ومؤمن بالغرب).

كانت آراء سلامة في عقول كثير المفكرين في مصر كل حسب قدرته وقابليته وزمنه ودعوته إلى الاندماج بالغرب وحضارته مثل شبلي شميل ولويس عوض (تلميذ سلامة موسى) حسبما قال في (أوراق العمر) .

وقد رأى سعد زغلول أن تعلم اللغة الأجنبية يقوي الطلاب على مواجهة حضارة الغرب والاستفادة منها في حياتهم عندما قرر تعليم اللغة الإنجليزية في تدريس العلوم . الهلال (١٩٠٧ الشهر نيسان) ورد عليه جورجي زيدان بأن اللغة العربية لغة تحدث وعلم ودين وهي أرقى لغات الأرض فضلا عن ارتباطها بالدين الإسلامي .. (الأهرام ٢٠/١/٩١) .

أنا تعلمت في أوربا إضافة إلى دراستي في الوطن العربي وفهمت حياتها وأساليب مجتمعها ومارست حضارتها وتطوير حياتها المادية والعلمية وأحسست بالهوة السحيقة والبعد الزمني الكبير ، مقارنة بحياتنا المعاصرة من التقدم العلمي والمخترعات والتكنولوچيا التي غزت ديارنا وما أحدث الغرب في الحياة المادية من تغيير شامل .

الشرق ذهب إلى الغرب يطلب المعرفة وأرسل البعوث إليه لدراسة علومه والانتفاع بحضارته وتقدمه وإن تقليد الغرب بدأ بوضوح منذ عهد محمد علي باشا الكبير وفي لبنان زمن الأمير فخر الدين المعنى عندما سافر إلى توسكانا في فلورنسة وتأثر بما رآه فيها من تقدم حضاري وتطور اجتماعي وقد حاول المحاكاة بعد عودته من سفرته .

وفي زمن الأمير بشير في لبنان الذي أعجب بالحضارة الغربية وأراد أن يرى حياة الشعب مثل شعوب أوربا .

إن البعثات التي أرسلت إلى أوربا كانت تريد تعلم العلوم الحديثة الصرفة للاستفادة منها ومع ذلك فلم يغفل الرواد عن ترجمة بعض الأعمال الأدبية لأن جذورهم كانت أدبية .

وأكثر طلاب البعثات من الأزهر لهم قواعدهم الإسلامية المتينة ولهم قوى فكرية ناضجة لذلك لم يقبل فكرهم بكل شيء وجده في أوربا وحافظ على أصالته وهضم أساليب الحضارة وسخّرها لفكره العربي المسلم الذي تمرس بحضارة الشرق الزاهية و ما فيها من تفاعل واضح مع الثقافات الأجنبية القديمة كاليونانية والهندية والفارسية واللاتينية ولقد عرف أسلافنا أفلاطون وأرسطو وأرخميدس ودخل الفكر اليوناني مع الحضارات القديمة في تراثنا لذلك لم يكن الفكر الغربي الذي وجده طلاب البعثات غريبا عنهم .

التنافذ الثقافي :

إن الاتصال المباشر بين الحضارتين الشرقية والغربية لم ينقطع منذ الاحتكاك الأول في العصر العباسي وكانت ثقافة العرب مؤثرة في من يتفقه بها لأنها بعيدة الغور ووصلت إلى مرحلة من التطور من جراء المماحكات الكلامية والمنطق اليوناني وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية ووصلت ذروة فكرية كبيرة وبدّلت فكر العالم وطورته وأثرت في الاتجاه الديني والفكرى والاجتماعي لكثير من الأمم وهذه القاعدة الفكرية حالت دون ضياع شخصية العربي السابق بالرغم من أنه عاش في الغرب واستفاد من حضارته وبقيت اللغة العربية في العالم العربي أداة التعبير في مختلف علوم المعرفة ولم يبدل بغيرها إلا في بعض الأقطار العربية التي منعها المستعمر من تعلم العربية فكتبت بالفرنسية مضطرة .

إضافة إلى أن الحربين الأولى والثانية واجهت العرب بالاستعمار فولد فى النفوس الكراهية للغة الأجنبي ولهذا لم نكن نتعلمها إلا بالقوة .

إن كراهية اللغة الأجنبية كانت نتاج العمل السياسي وكان رد الفعل الاهتمام بدراسة التراث العربي الأصيل حتى يرد على الاستعمار العسكري والسيطرة الاقتصادية ونما في النفوس الشك من كل علوم الغرب فابتعد جانب من المفكرين من تيارات الغرب .

صراع بين جيلين :

غير أن الجيل الثاني بدأ يألف العلوم الجديدة بعد أن كثرت المجلات والجرائد في مصر ولبنان ودمشق تتحدث عن شيء جديد وتمكنت بعض العقائد من السيطرة وخلقت لها أنصارا وأنشأت أحزابا وجمعيات تعجب بالغرب وعلمه ثم نسى بعد ذلك أعمال المستعمر الأول ونشأ جيل تعلم اللغة الأجنبية وأصبحت كراهية المستعمر بعيدة عنه لأنه لم يمارسها أو يحس بوطأتها وبدأت المعركة الكبيرة بين التيار الراديكالي والفكر الرأسمالي وكل واحد يدعو إلى مثل عليا وشعارات براقة وقد نفذ الفكر الجديد إلى كثير من عقول الشباب عندما أحس بأنه مسحوق ماديا ومعنويا وتجلى الاحتكاك الكبير بين مثل الشاب وما يقرأ وما يدرس فجرّه إلى حيرة وقلق وضياع روحي .. وبدأت تهتز بعض مثله القديمة وتتناقض الآراء التي درسها .

وأخذ الدارسون يقرأون شكسبير ووردز ورث وكوليرج وبوب وكيتس وبايرون بحذر شديد ، كما دُرس راسين وڤولتير ورسو وبودلير ورامبو ومالرميه واستولى التيار اليسارى على بعض الكُتاب والشعراء وترجم كوكول ودسيتوفيسكى وتوركيف وجيكوف وبوشكين من الأدب الروسي بصورة عامة وأخذ الفكر المحايد يقرأ لهؤلاء جميعا ويستفيد دون أن يندفع فهو حائر بين الرأسمالية وبين الاشتراكية وأي الفكرين يأخذ وممن يستفيد .. وكنا نحن على الحياد نأخذ ونهضم ووقفنا وقفة الفاحص المستفيد لا موقف الخائف الذي يأخذ دون وعي وإدراك .

ولم يكن القلق أو الحيرة وقفًا على جانب ، فقد لفّ المعجبين بالرأسمالية واليسارية عندما قارنوا أوطانهم المختلفة بهذين التيارين وعاشوا في دوامة فكرية دفع بعضهم إلى المبالغة بأن اليسارية هي التي تطورنا ورد عليهم الرأسماليون بأن الحرية في كل شئ هي أهم من رغيف الخبز والآراء والاشتراكية فوجدنا صراعا واضحا أدي في أحيان كثيرة إلى القطيعة والحرب الفكرية والتصفية الجسدية والاضطهاد والتعذيب .

ولا أدرى الآن ما موقف الطائفتين اللتين كانتا تتنازعان بالأمس من أحداث الساعة ونتائج السياسة العالمية ؟

كيف نسترد الشخصية العربية :

إن الصراع الثقافي الذي جاء من الاحتكاك المباشر وغير المباشر بثقافتنا خلق جيلا مضطرب الفكر حائر الرأي وقد ساعد الغرب على هذه السيطرة والحيرة والقلق فما السبيل إلى إعادة الثقة بالنفس ؟؟

١- خلق جيل قوي متين مزود بالثقافة العربية الأصيلة مع دراسة عميقة للتراث الغربي بعد أن خُلق جيل آمن بالمفاهيم اليسارية والرأسمالية وكلا القاعدتين اقتصادية بالدرجة الأولى ومتى فهم هذا الجيل الأسباب والدوافع وقارن ذلك بحضارته فسوف ينشأ جيل له قابلية كبيرة في هضم الفكر الجديد واحتواء كل حديث لا سيما أن التغيرات العالمية الحالية تساعد على ذلك .

ومتى آمن الجيل بجذوره الحضارية وتراثه واستفاد من الغرب فسوف تذهب حيرته وقلقه ويستأنف مسيرته في تطور أمته وتقدم فكرها ومجتمعها .

٢- فهم حضارة الغرب على ضوء المقومات الشرقية وتقليص شدة الانبهار وعمق الإعجاب بإحياء جانب من حضارتنا ومقارنتها بحضارته والجذور التي استقى منها الغرب حضارته وأثر حضارتنا في حياته لأن كثيرا من المتعلمين خضع لكل ما هو أجنبي دون وعي وقلّده دون أن يعرف نتائج هذا التقليد لأن العقيدة أو الإيمان أهم قاعدة للثقافة ولبناء الشخصية القوية وبالقاعدة المتينة يبنى الشخص القادر على فهم الجديد وبخاصة حضارة الغرب .

٣- بذر الغرب التفرقة والبغضاء بين أبناء العرب ليسهل عليه السيطرة عليهم متفرقين خوفا من قوة العرب ووعيهم في الاتحاد والدفاع عن المصير المشترك بعد أن وجد جذورهم الحضارية قوية وتراثهم متين البناء وحدة نظرتهم وقوة أصالتهم وبناء شخصيتهم .

٤- نشر الحرية الكاملة بعد أن بذر الغرب في أقطارنا روح الدكتاتورية لقمع

الحركات الفكرية التي يراد منها قمع الشعوب وقتل حريته كاملة .. وقد منح الإسلام حرية فردية واحترم بني آدم وكرمهم دون النظر في اللون والأصل .. وحاول رفاعة الطهطاوي فهم الفلسفة البرجوازية وضرب الأمثلة بالحرية بأيام العرب وأنهم كانوا أحرارا وأورد قول عمر بن الخطاب (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً) وأراد الاستفادة الصالحة وندد بمساوئ الغرب لثقته بثقافته وإيمانه بالتراث الفكري وليحذر الناس من مساوئ الغرب حتى لا يضعف أمام مظاهره ويفتن بما فيها .

٥- وضع منهج حديث لكل المدارس في التدريس بداية من اللغة العربية وتدريسها والعلوم البحتة والتقنية ووضع منهج يلائم الفكر الأصيل والحضارة الجديدة والاهتمام بجوهر الأمور والابتعاد عن المظاهر البراقة لأن التطور الاجتماعي يجب أن يكون جزءاً من اللاشعور الروحي حتى يعمل به الجيل والابتعاد عن ثنائية التعليم لبناء الشخصية الجديدة والثقافة الحديثة وقد حاول ذلك علي مبارك عندما أسس دار العلوم ليجمع بين الثقافة الغربية والأصالة العربية .

٦- بالانتقاص من المثل العليا لهدم المقومات العربية والإسلامية بأساليب جديدة بعيدة عن الوعيد والخطب والترهيب لخلق إنسان يؤمن بحضارته ولا يكون ذلك إلا بالقضاء على أمّيّة المتعلمين والقضاء على الجهل الحضاري عند الدارسين وبالاستفادة من حضارة الغرب ووسائل إعلامه وأسلوبه في بث الثقافة ونشر علومه وأفكاره عندما انشأ المدارس والجامعات في الوطن العربي ونشر بواسطتها ثقافته وعلومه في لبنان ومصر وبلاد الشام إضافة إلى تبشيره السري المنظم المنسق لإدخال الفكر العربي المسلم في الحيرة والقلق والضياع الروحي . وقد ساعدت الظروف السياسية والاقتصادية في كثير من الأقطار العربية على نشر هذه الأفكار لعدم وجود الإصلاح الذي يريده المثقف فلجأ إلى المذاهب الغربية للتخلص من تناقضات حياته عساه أن يجد الراحة

والأمان الروحي والعقلي في اعتناقها ولكنها لم تملأ فراغه الروحي أو تدخل الإيمان في قلبه لأنها ذات جذور مادية وآراء غربية بحتة تعارضت مع ما في نفسه من إيمان وفي قلبه من اطمئنان وحضارة راسخة قوية .

وأخيرا الغزو الاقتصادي الحديث :

ذكرت بأن الغزو الثقافي والفكري لم يكن إلا غطاء للسيطرة الاقتصادية بعد أن غير الغرب أسلوبه القديم من الاستعمار المباشر إلى المعاهدات والاتفاقات الاقتصادية وقد برهنت الظروف الحديثة على أن جميع محاولات الغرب القديمة والحديثة كانت للسيطرة الاقتصادية التي غطيت بأسماء متعددة ، مثل تطوير الشعوب وتمدينها أو تجديد حياتها المختلفة ، وبرهنت أيضا على أن هذه الشعارات تخفي وراءها الغزو الاقتصادي والمكوس المالي العميق الجذور ، لأن الشرق كثير الخيرات والمواد الأولية الرخيصة ، ثم هو خير سوق للاستهلاك بعد أن كثرت الاختراعات وفاضت البضائع وعمت البطالة .

فلا نعجب إذا انصبت محاولات الغرب على تقسيم الشرق وجعله دولا تتعادى ومجموعات تخاف بعضها من بعض ، وخلق أنظمة تسير في ضوء هذه السياسة حتى لا ينهض الشرق اقتصاديا وينتعش ماليا ، فقد اجتمع في شهر تشرين الأول (١٩٩١) في لوكسمبرغ وزراء الخارجية والتجارة لدول السوق الأوربية المشتركة واتصلوا بمنظمة التجارة الحرة للاتفاق على خلق هذه السوق ودعمها لتشمل أكبر مجموعة اقتصادية موحدة اقتصاديا ، ويبلغ عدد نفوس هذه المجموعة ٣٨٠ مليون ، وحجم تجارتها حوالي ٢٢٠ مليون دولار ، أي حوالي ٤٠ ٪ من تجارة العالم كله حفاظا على هذه المجموعة ، وخوفا وهلعا من رابطة جنوب شرقي آسية ولا سيما اليابان ، إضافة إلى خوفها من اقتصاد الولايات المتحدة وكندا والمكسيك . حتى أصبحت أهم سوق مشتركة واضطربت أوربا خوفا من الوحدة الاقتصادية التي تمت بين اندونيسيا وماليزيا وبروناي وسنغافورة .

السؤال الذي يتردد في ذهن كل واع للأمور الاقتصادية :

ما صنع العرب أمام هذه التكتلات الاقتصادية ؟ مع أن لهم مصالح مشتركة واحدة أقوى من مصالح الغرب وتجمعاته ، ولهم آصرة أعمق من أواصر دول الغرب ، ثم إن للعرب من المال والأيدي العاملة والتطور الثقافي والفكري ما يساعدهم على التطور والوحدة والتمدن ، لكنهم في صراع فكري وتباين ثقافي ولم يتفقوا على أسلوب واحد يجمع شتاتهم الثقافي على كثرة عدد المتعلمين والمثقفين وبخاصة في التجارة والاقتصاد والمال .

هل قدم هؤلاء على كثرتهم ما يقي شعوبهم من الثورات والانقلابات والتفرقة وحاولوا وضع أسس جديدة لحضارة عربية تقف أمام الظروف القلقة والأحوال المضطربة في أوطانهم ؟ ! أو كانوا أداة تبرير للسلطة وأعمالهم الفردية؟!

نحن بحاجة إلى تخطيط واسع في مضامير حياتنا كلها سواء أكانت ثقافية أم اقتصادية أم اجتماعية لإعادة تماسك الأمة العربية والإسلامية بعد سيطرة حكم الفرد واستحواذه السلطة كلها .

العالم كله يركض وراء أمريكا ، وهي تركض وراء اليابان ، فقد سافر الرئيس بوش للاتفاق مع رئيس الوزراء ميازاوا لخفض الميزان التجاري والاقتصادي والحد من النمو التجاري وحل الخلافات الاقتصادية بين البلدين بعد أن بلغ الفائض التجاري ٤١مليار دولار ، ومحاولة إقناع اليابان بشراء سيارات أمريكا المحروم منها أبناء الشعوب العربية والإسلامية لغلائها، والطريف أن يقول رئيس وزراء اليابان إنه والرئيس بوش يعملان بجد من أجل دفع العلاقات الثنائية بما في ذلك الجوانب الاقتصادية – ليس من أجل اليابان وأمريكا إنما من أجل بقية العالم ، وطالب خبراء أمريكا بالضغط على شراء الرز الأمريكي مثل مطالبتهم شراء سياراتهم .

وبذلك فالمشكلة الاقتصادية طغت علي مشكلات السياسة .

فهل وعت الدول العربية والإسلامية والشرقية بصورة عامة أثر حياة

الاقتصاد وتقدمت بدراسة جديدة تلم شملهم ، وفي أوربا وأمريكا عناصر عربية ومسلمة وشرقية هربت من بلدانهم وأسهمت في تطور حياة الغرب ، وأمريكا بعد أن ديست كرامتهم، وأغفلت الكفاءة العلمية لهم .

إن اليابان بدأت نهضتها مع نهضة مصر في زمن محمد علي باشا وضربت بالقنابل الذرية في هورشيما وناكازاكي ولكنها اليوم تتحدى أمريكا برغم ضعف مواردها الطبيعية .. حيث اضطر بوش إلى الذهاب بنفسه إلى اليابان من أجل تحسين اقتصاد بلاده والقضاء على البطالة فيها ، والعالم كله يذهب إلى أمريكا طالبا المساعدة ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

يوسف عز الدين

عضو المجمع المراسل من العراق

ابن المولى
حياتــه وشعــره

للأستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

استهــــلال

وبالناس عاش الناس قدماً ولم يـزل

مــن الناس مرغوب إليـه وراغــب

وما يستوي الصابي ومن ترك الصبا

وإن الصبا لَلْعيش لولا العــواقب

الخلاصة

ابن المولى ، محمد بن عبد الله بن مسلم ، مولي الأنصار من بني عمرو بن عوف ، شاعر مخضرم بين العهدين : الأموي والعباسي ، توفي في أواخر العقد السابع من القرن الهجري الثاني .

شعره جيد ، صرف معظمه إلى المديح ، حتى عُدَّ من المدَّاحين المحسنين، كان من ممدوحيه الخليفة عبد الملك بن مروان ، والخليفة المهدي ، والأمير القائد يزيد بن حاتم ، وفي هذا الأخير استفرغ أجود شعره ، وهو الذي يقول فيه :

وإذا تباع كريمة أو تشــــتري

فسواك بائعها وأنت المشـــتري

وإذا تخيل من سحابك لامــــع

سبقت مخائله يد المستــــمطر

وإذا صنعت صنيعة أتممتهـــا

بيدين ، ليـس نداهما بمكـــدر

وإذا الفوارس عــددت أبطالهـا

عدوك في أبطالهـم بالخنصـــر

وإذا توعرت المسالك لم يكـــن

منها السـبيل إلى نداك بأوعـــر

وإذا هممت لمعتفيـــك بنائـــل

قال الندى - فأطعته - لك : أكثر

يا أوحد العرب الذي ماإن لهـــم

من مذهب عنـــه ، ولا من مقصـر

يعده أهل المدينة من أعيان رجالها . ويشترك في الوفود التي يرسلونها إلى

(*) ألقى البحث فى الجلسة السادسة للمؤتمر المنعقدة بتاريخ ٢٨ من رجب سنة ١٤١٢ هـ الموافق ٣ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢ م .

بغداد لمقابلة الخليفة المهدي ، وعدا بغداد فقد رحل إلى مصر .

عمّر طويلا حتى قارب المئة أو جاوزها، وهو وإن لم يشترك في التيارات السياسية المتصارعة ، فإن بعض مدائحه للمهدي لم تخل من تهوين دعوة العلويين إلى أنفسهم إرضاءً لممدوحه .

له شعر غزلي ، ولكنه يؤكد أن ليلاه إنما كان يعني بها قوسه التي كانت لا تكاد تفارق منكبه .

لم يخلص إلينا ديوان مجموع ، فعمدت إلى جمع أشعاره من شتى المصادر التي ذكرته وأهمها إطلاقا كتاب الأغاني الذي خصص له ترجمة ، وذكر طرفا من أشعاره وأخباره ، وقال عنه إنه كان عفيفا نظيف الملبس ، وقد أورد له صوتا من المئة المختارة ، وذلك غير ما اختير من شعره للغناء ، وإن كان بعضه قد غني بأمر الخليفة المهدي.

جمع ثروة جيدة من الجوائز التي كان يحصل عليها من أماديحه ، وخاصة من يزيد بن حاتم ، الذي وصلت أعطياته المدى .

استشهد بعض النحويين واللغويين والبلدانيين بشيء من أشعاره ، مما يدل على الثقة بلغته ، وعلو مكانته عند أصحاب هذه الشواهد .

كانت نشأته بضاحية (قباء) بالمدينة المنورة ، ويرجح أنه بها ولد ومات ، وكانت هي مسكنه وبها مزارعه أو مزرعته .

كانت تربطه صداقات مع عدد من الأمراء ، وأعيان المدينة ، وبعض الرواة والنقاد ..

كليمة

هذا الحديث ، هو الحديث الثالث ، من سلسلة أحاديثي الحولية ، التي خصصتها لمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ شرفت بالانضمام إليه عضواً مراسلاً .

و هو عن الشاعر (ابن المولى) بحسبانه شاعراً مغمورا ، في محاولة لتقديم صورة عنه ، وتجميع ما تيسر من أشعاره .. فالسلسلة تُعنى بالشعراء المغمورين ، فالحديث الأول كان عن

الشاعر المدني (عبد الله بن أبي صبح المزني) ، مع محاولة جمع أشعاره ، ألقيته في فبراير ١٩٨٩م . والحديث الثاني كان عن الشاعر (خارجة بن فليح المللي) خصصته لدورة فبراير ١٩٩٠م ..

وهذا الآن عن (ابن المولى محمد بن عبد الله بن مسلم) .

وفكرة محاولة إنصاف مثل هؤلاء الشعراء المجيدين كانت قديمة لديّ ، فقد كتبت عن العرجي ، وضرار بن الأزور ، وأرطاة بن سهية ، وزيد الخير .. وغيرهم، مما نشر ، ومما لم ينشر بعد .

ومحاولة تتبع أخبار شاعر قديم ، غير مشهور ، لم يعن به الدارسون كثيراً ، والربط بين هذه الأخبار وتنسيقها ، وجمع أشعاره المنتشرة بين شتى المصادر، عملية غير يسيرة ، ومع هذه الصعاب التي تتكرر كلما حاولت أن ألقي أضواء على شاعر مغمور ، فإني أجدني مدفوعا لاستمرار هذه المحاولات ، عسى أن أسهم بنحو ما في إضاءة شمعة مهما كانت خافتة على ذلك الظلام الذي يحيط بهؤلاء الشعراء الذين أعتقد أن في حيواتهم وأشعارهم ما هو جدير أن يكون في دائرة الضوء .

وجدير بالذكر ، أنه عند عنايتي بأمر هذا الشاعر ، وجدت أن أبا الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني ، اهتم بأمره ومنحه صفحات ذات بال من كتابه، وظل من بعده من المؤلفين عالة عليه فيه ، فهو صاحب الفضل الأول أيضا في إمدادي بأكبر قدر من المعلومات والأشعار وعنه .

وقد رأيت في شعره من الجودة ، ما شجعني على أن أتتبع أخباره وأشعاره في المصادر الأخرى التي استطعت الوصول إليها ،

ولا أزعم أنني استطعت أن أقوم بحصر تام لتلك الأخبار والأشعار ، ولكني بذلت من الجهد طاقتي .

وإنه ليسرني أجد من يرشدني إلى أخطائي ، أو يزودني بمعلومات جديدة . لم أهتد إليها ، أو لم تصل إليها وسائلي.

والله ولي التوفيق

بطاقـــة

محـمـد بن عـبـد الله بن مـسلم بن المدني. مولى الانصار [1] ، كنيـتـه أبو عبد الله[2] توفي نحـو سنة ١٧٠ هـ = ٧٨٦م . جده (الكبير) مولى بن عمرو بن عوف ، من الأنصار .

شاعر متقدم مجيد من مخضرمي الدولتين : الأموية و العباسية ، مسكنه (قباء) بالمدينة المنورة.

حياتـــه

لا يعـرف مـتى ولد ولا أين .. ولكن يرجح أن مولده كان في (قباء) وهي الآن ضاحية من ضواحي المدينة المنورة ، بل لقد امتد إليها العمران فأصبحت جزءا أو محلة من محلاتها .. ومن المعروف تاريخيا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، نزل بها أول أمره عندما وصل إلى المدينة في هجرته .. وأكرمه أهلها من الأنصار ، وهم بنو عمرو بن عوف ، الذين ينتمي إليهم الشاعر بولائه ، وبها بني رسول الله صلى الله عليه وسلم أول مسجد بُنيَ في الإسلام ، وذلك ما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أوّل يوم أحق أن تقوم فيه) ١٠٨ التوبة .

وأهل قباء هم الذين أثنى عليهم أيضا كتاب الله الحكيم في قوله تعالى من الآية نفسها : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين).

و(قباء) ضاحية عامرة بمزارع النخيل، الذي يعطي أجود التمر ، وبالمياه التي ترفد المدينة المنورة بالماء .. وسكانها على عهد الشاعر ، قوم كرام من الأنصار ، أحسنوا استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأسس في قريتهم المسجد الأول في الإسلام ، ولا شك أنه كان لهذه البيئة الطيبة ، والتربة المعطاء ، أثرها الطيب في شاعرنا الذي وصفه أبو الفرج في الأغاني بالعفيف .. وسيأتي من أخباره مصداق هذه العفة ..

(١) الأغاني : ترجمته .

(٢) المرزباني في معجم الشعراء ٤١١ .

وإذا كانت المصادر التي وقفت عليها لم تنص على تاريخ مولده ، فان أخباره تدل على أنه عمّر طويلا .. حتى ليبدو أنه جاوز مئة عام .. فإن من أخباره .. أنه مدح بشعره عبد الملك بن مروان وهو خليفة . بل أكثر من مدحه [1] .. والتقى به ، فإن صحّ هذا وافترضنا أن ذلك كان في أواخر حكم عبد الملك الذي توفي سنة ٨٦هـ ، فإن معناه أن ابن المولى كان شابًا في هذه الفترة ، قادرًا على قول الشعر ، وإذا رجحنا أن عمره حوالي العشرين ، فإنه يكون من مواليد العقد السابع من القرن الأول للهجرة .. فإذا توفي نحو سنة ١٧٠هـ [2] فيكون قد عمّر مئة سنة .. ونجد مصداق ذلك فيما قاله المرزباني من أنه (قد أسنّ) ، وفيما عبر عنه الأصفهاني حينما قال إنه من مخضرمي الدولتين ، يعني الأموية ، والعباسية ، ومداحي أهلهما .

ونجد في أخباره أنه مدح المهدي ، وهو خليفة ، وهذا توفي سنة (١٦٩هـ) = ٧٨٥هـ .

كما يصفه أبو الفرج في الأغاني ، بأنه متقدم .. وهو يعني تقدمه الزمني ، ثم يصف خلقه وهيئته فيقول : «كان ظريفا عفيفا ، نظيف الثياب ، حسن الهيئة» .

ولعل أبا الفرج اعتمد في وصفه بنظافة الثياب ، وحسن الهيئة ، على ما رواه إسحق بن مرار الشيباني ولاء ، أبو عمرو ، المتوفي سنة ٢٠٦هـ ، الذي عاصر ابن المولي ، والتقاه في جسر بغداد ، وكان معنيًا بتدوين الأشعار والأخبار واللغات والنوادر ، ووضع كتبا عديدة ، فقد روى[3] ما نصه :

«كنت أسير على الجسر ببغداد ، فإذا أنا بشيخ على حمار مصري ، بسرج

(١) الأغاني : ترجمته .

(٢) هكذا اختار الزركلي في (الاعلام) في ترجمته . وذكر سيزكين في تاريخ التراث في ترجمته أنه توفي بالمدينة سنة ١٦٥هـ = ٧٨١م= .. المجلد الثاني ، الشعر إلى حوالي سنة ٤٣٠ هـ ، الجزء الثالث ص ٢٢١ . ولم يذكر لنا أي منهما مصدره في هذا الاختيار أو التحديد.

(٣) جاء الخبر في ٦/٣٣٠ من (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ و ٢٢٢/١ من أنباه الرواة للقفطي ت٦٤٦ هـ ، وقد جاء في (تاريخ بغداد) أن أبا عمرو الشيباني كان «خيرا فاضلا صدوقا» .

مديني، فعلمت أنه من أهلها[1] ، فكلمته فإذا فصاحة وظرف ، فقلت : ممن أنت؟ قال : أنا من الأنصار .. أنا ابن المولى الشاعر إن كنت سمعت به ؟ فقلت : أي - والإله - لقد سمعت به . أنت الذي تقول :

ذهب الرجال فما أحسّ رجالا

وأرى الإقامة بالعراق ضلالا ؟

قال : نعم .

قلت : كيف قلتَ :

ياليت ناقتي التي أكريْتُها[2]

نحرت وأعقبها النُّحاز سُعالا

قال : لم أقل كذا .. وإنما قلت : أعقبها القلاب سعالا ، فدعوت عليها بثلاثة أدواء. [3] أ.هـ .

والواضح من هذا النص ، أن ابن المولى كاني يعني بهيئته ومظهره ، وسندرك من سيرته أنه كان يتصل بطبقة مميزة ، ويحسن علاقاته بالخلفاء والأمراء ، وأنهم كانوا يتمسكون به ويطيلون إقامته عندهم ، كلما ارتحل إليهم مادحا ومسترفدا .. ونلحظ من طبقة خلطائه ، أنه كان يحسن اختيارهم ، كما لا نجد له في اللهو والقصف أخبارا ، بينما كانت أجواء الغناء واللهو قد أخذت تنتشر في المدينة ، كما هي في المدن الكبيرة الأخرى على عهده ، حيث أخذ الترف يبسط رداءه .. خاصة في العصر العباسي ، وخاصة في مدن الحجاز ، حيث نبغ عدد من محترفي الغناء ومن شعراء اللهو ، إلى جوار ما كان في هذه المدن من فقه وعلم وحديث .

وكان ابن المولى في عفته ، وانصرافه عن اللهو مؤشراً حسنًا على أن المجتمع

(١) أي من أهل المدينة .

(٢) النص في المصدرين السابقين بالياء المثناه ، من الكراء . وأظن الصحة : أكربتها بالباء الموحدة (كما في أساس البلاغة) من كرب بمعنى أجهدها . ذلك أن ابن المولى كان ميسور الحال ، ولا يحتاج إلى ناقة بالكراء .

(٣) أي بالنحاز بضم النون ، وهو داء يصيب الإبل في رئاتها تسعل منه سعالا شديداً ، والقلاب بضم القاف ، داء يصيبها في القلب فهذان داءان ، والثالث السعال .

ورواية البيت في أساس البلاغة :

ياليت ناقتي التي أكربتها   قلبت وأورثها النحاز سعالا

وهي أصح لأن النحاز هو الذي يورث السعال لا القلاب .

الحجازي لم يكن كله مندفعا إلى اللهو والقيان والغناء ، فلقد كان لكل بضاعة سوقها ، ومروجوها .

ولا نستغرب أن يحتفظ ابن المولى بتقاه وعفته ، مع أنه ينتمي بشعره إلى طبقة (الفنانين) ، غير منغمس في أجوائهم .. فهو من قرية المتطهرين (قباء) ، مولي لفرع أصيل من الأنصار ، تغلغل في قلوبهم الإيمان ، وأشربوا حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لا نعجب كثيراً حينما يؤكد لكل من فاتحه في تفسير غزلياته ، وتشبيبه بليلي ، بأن ليلى هذه ، لم تكن إلا قوسه التي يتنكبها، وأنه إنما يتخذها رمزاً ، يصل به إلى تلطيف أشعاره برقائق غزلية ، يستهوي بها الأسماع .. لأن الشعر (في نظره) لا يعذب إلا بالغزل .. وإلا فليس في حياته (ليلى) حقيقية وأنه يربأ بنفسه أن يشبب بأية امرأة لها حرمتها .. وهو يحلف على صحة مذهبه الرمزى هذا فى أكثر من خبر ، وأكثر من مناسبة .. ونجد أن شواهد حاله وأخباره تعضد هذا الحلف كما سنرى ذلك فيما بعد .

ومع حرص أبى الفرج على تتبع أخبار العشق والهوى عند الشعراء الذين يترجم لهم فى كتابه الكبير ، وابن المولى أحدهم ، فقد أفرد له ترجمة لم تخلُ من طول فإنه لم يورد أية قصة غرامية تتصل بشاعرنا .. إلا ماأكده من نفى شبهة ليلى التي لم تكن إلى قوس صاحبنا .. وهي كما يبدو قوس أثيرة ، لها عند الشاعر شأن ومكان .

وليس في أخبار الشاعر بين يديّ ، سواء في الأغاني الذي أعده المصدر الأول المهم ، أو في غيره من النتف التي تأتي هنا وهناك ، أية تفاصيل مُشبعة عن حياة شاعرنا ونشأته وأسرته .. كل ما نعرفه أنه كان يكنى بأبي عبد الله ، فهل كان له ابن يسمى عبدالله حقا .. أو أنه كان يكنى باسم أبيه ، على أمل أن يكون له ابن يسميه كاسم أبيه .. وإن كنا نجد بعض المصادر تكنيه بأبي عبيد الله (بالتصغير) ، ولا أظن ذلك إلا من أخطاء النسخ .

ولكن من السهل أن ندرك أن الشاعر كان يعيش على ارتياد كرام الرجال من

خلفاء وأمراء وسراة ، ليضفي عليهم أماديحه ، وليضفوا عليه عطاياهم وهباتهم ، وفي سبيل هذه الأعطيات كانت رحلاته إلى العراق ومصر وربما غيرهما . وكانت بعض رحلاته يطول أمدها ، حتى تصل درجة الملل والحنين إلى الوطن والأهل ، وكانت ثمار هذه الأسفار والمدائح ، سواء في بلده أو خارج بلده ، ما جمع من ثروة ، وما اقتنى من عقار وبساتين .. وكان المجتمع آنذاك لا يرى في هذا التصرف من الشعراء غضاضة اجتماعية ، فهذه المدائح لا تتنافى مع عفته .. فهي عفة عن غشيان المحارم ، أو الانغماس في اللذات .

واحتراف المديح عند ابن المولى ، جعله يقع في بعض المتناقضات التي تدل على أنه لم يكن ملتزما بخط سياسي معين ، مع أن الأجواء السياسية على عهده ، كانت تشيع فيها تيارات مختلفة، أبرزها التحزب للعلويين .. وكانت ألسنة الشعراء تصطبغ بألوان تلك التيارات .. وهي تمثل آنذاك أبرز وسائل الإعلام .. فهناك شعراء انضموا إلى المعسكر العلوي ، وهناك من انضم منهم إلى المعسكر الأموي .. وإن كان منهم من ظل مستقلا ، أو منشغلا بنفسه أو بلهوه .. غير مشتغل بالسياسة ولا منغمر في تياراتها .. ولكن كان هناك بعض الشعراء المداحين الذين كان وَكْدهم أن يبذلوا المديح لمن يعطي ويقولون للممدوح ما يشتهي .. ويثنون على اتجاهه السياسي ضمن أماديحهم .. ولم يكن هذا المديح ، ليعبر عن رأي سياسي معين يعتقده الشاعر فعلا .. كان ابن المولى أحد هؤلاء الشعراء .. كما سيرد إن شاء الله حينما نستعرض أماديحه وممدوحيه .. ولا عجب أن يوقعه ذلك في بعض المآزق ، كما حدث فعلا مما سنتحدث عنه في موضعه .. إلا أن ابن المولى كان على أي حال يحسن التخلص والاعتذار ..

وبالرغم من أن ابن المولي كان حقا شاعرا مداحا .. إلا أنه كان يحسن أماديحه ويجوّدها .. ويصدر فيها عن إعجاب حقيقي بممدوحيه .. بل كان

يمدح بعضهم قبل أن يلتقي بهم .. كان يمدحهم عن بعد .. وقد روى ذلك عن مدحه لعبد الملك بن مروان ، وليزيد بن حاتم المهلبي .. في قصتين متشابهتين .. حتى لمن حق الباحث أن يظنهما قصة واحدة .. فُصِّلت لرجلين .. على أنه قد يستخدم المدح لاستخراج بعض حقوقه .. فقد امتدح الحسن بن زيد ليحصل منه على وظيفته أو مخصصه السنوي الذي يبدو أنه حجبه عنه هذا الوالي .. وسنقف إن شاء الله في باب رأي النقاد في شعره ، على أنه كان مداحا محسنا ، وأن إحسانه قد يقوده إلى معاني محلقة أو مبتكرة ، وندرك من النبذ اليسيرة التي أوردها أبو الفرج عنه ، أنه كان رجلا اجتماعيا يعده أهل المدينة من كبار القوم .. فحينما يتشكل وفد للسفر إلى بغداد من مدينة الرسول ، لزيارة الخليفة المهدي فيه جماعة من قريش ومن الأنصار ، يشترك ابن المولى معه ، بل يكون محل اهتمام الخليفة . بحيث يقبل عليه ويسأله عن شعره ، كما سأذكر ذلك في موضعه إن شاء الله ، وللمهدي موقف مماثل حينما ذهب للحج ، بعد أن تولى الخلافة ، وجاء المدينة المنورة فبذل أهلها أموالا كثيرة ، وصلات سنية ، وحينما تفقد الشعراء ، اشرأب يبحث بعينيه عن ابن المولى ، فأمر بتقريبه ، واستنشده من شعره .. وسواء أكانت هذه الواقعة قبل الأولى ، كما أرجح أو بعدها فإن الحادثتين تحملان دلالة و احدة ، هي ما كان يتمتع به ابن المولي من مكانة ، لجودة شعره ، ولأنه أيضا شخصية اجتماعية مرموقة .. فإن الخليفة المهدي لم يكتف بأن تكون له جائزة مقابل شعره ، كما هو الشأن في غيره من الشعراء ، بل يختصه بمخصص سنوي ، يجري عليه وعلى عياله . وهذا المخصص فيما يبدو لي هو الذي حاول تأخيره عنه (الحسن ابن زيد) .

ونستطيع أن نستنتج من كلمة (وعياله) أنه كان رب أسرة .. ولابد لي هنا من أن أسبق الأحداث مادامت قد وردت الإشارة إلى الموقف الذي وقفه منه (الحسن بن زيد) حينما أخّر عنه وظيفته

السنوية .. لتعزيز ما يروى عن عفته .. إذ تقول الرواية أنه دخل عليه فأنشده يمدحه :

هاج شوقي تفرق الجيران

واعترتني طوارق الأحزان

إلى آخر القصيدة[1] .. فلما فرغ ، دعا به خاليا ، فأنّبه . لأنه إذا جاء الحجاز ، قال ما قال في مديحه ، أما في العراق فيعرِّض في شعره بالعلويين ، والحسن بن زيد منهم .. فاعتذر بأنه شاعر ، يقول ما يتقرب به إلى ممدوحه .. وخرج منكسرا .. ولكن الحسن على ما يبدو ندم على تصرفه ، فأرسل إليه بوظيفته وزاده عليها .. ولكن ابن المولى لم يقبلها مادام الأمير ساخطًا عليه .. فعاد الرسول ليخبره عن رضا الأمير .. فقبل الوظيفة والهبة[2].. لقد كان في تصرفه تعبير عن أنفته وعفته ..

***

وإذا تجاوزنا أخباره القليلة ، التي وصلت إلينا ، وحاولنا أن نتعرف على شيء من أحواله الشخصية ، من حصيلة أشعاره ، التي بقيت في بعض المصادر .. على ضآلتها هي الأخرى . لم نكد نجد شيئا ذا بال .. فما حفظت المصادر إلا قصائد مديحه أو بعضها أو نتفًا منها أو من بعضها .. وهي في مجملها تدور حول الثناء على ممدوحيه .. وقد يدلف إلى المديح . بشئ من الغزل على طريقة الشعراء قبله ، وفي عصره .. وقد يضمن قصائده شيئا من الحِكَم التي تتسم بالتعميم وليس فيها خصوصية التجربة . ولكننا لا نعدم شيئا من الحديث الذاتي ، في ساعة ضيق أو ملل ، أوضعف بشري ، أو في أبيات شوارد هنا وهناك .. ولكن حتى في هذه النفثات ، لا نجد شيئا صريحا نستطيع أن نعرف عن طريقه ملامح بارزة عن بيته وأسرته .

لقد مرّ بنا أنه كانت له وظيفة عند الوالي تصرف لأجله ولأجل عياله ، مما نستنتج منه أنه رب عيال ، فهو إذن رب أسرة .. زوجة وأولاد . ونجده في بعض

---

(١) تنظر في مجموعة شعره .

(٢) هذه الأخبار كلها مصدرها الأغاني ترجمة الشاعر ج٣ ص ٢٨٦ و مابعدها طبعة دار الكتب .

أخباره يحلف بالطلاق[1]. مما يؤكد هذا الاستنتاج ، ونجد قطعة شعرية حزينة ، يشير فيها صراحة إلى (أم البنين) القرينة ، وتبدو وكأنها قطعة رثاء لها ، يشير فيها إلى الفراق ، والموت ، وتقلب الأيام ، والمصير الحتمي للإنسان .. وفيها يقول :

حيِّ المنازل قد بلينا
أقوين من مرّ السنينا
وسل الديار لعلها
تخبرك عن أم البنينا
بانت وكل قرينة
يوما ، مفارقة قرينا

إلى آخر الأبيات الموجودة في ملحق شعره .

وقد أورد أبو الفرج هذه الأبيات دون أن يذكر مناسبتها وخبرها ..

مهما يكن الأمر ، فإنا نعد تلك النفثات خروجا عما لمسناه فيما وصل إلينا من شعره الذي تجنب فيه الحديث عن الذات .

من نفثاته ، حنينه إلى بلده المدينة ، حينما سافر إلى العراق لبعض شأنه فطال به مقامه، فقال يحن إلى المدينة :

وطربت إذ ذكر المدينة ذاكر
يوم الخميس فهاج لي بلبالا
فظللت أنظر في السماء كأنني
أبغي بناحية السماء هلالا
طربا إلى أهل الحجاز وتارة
أبكي بدمع مسبل أسبالا

إلى آخر ما قال في هذه القصيدة ، التي يجدها القارئ في محلها من أشعاره ، وسيجد أنه يعبر في وضوح عن حنينه الجامح إلى بلده ، ويرمه بالمكث في العراق .

ولعل القارئ لم يفته أن الشاعر كان رقيق العاطفة ، يأخذه البكاء ، كلما حَزَبَه أمر يضيق به ، فهو هنا يعبِّر عن هذا الشعور بقوله «أبكي بدمع مسبل أسبالا» وسنجد ظاهرة البكاء جلية في شعره ، فهو الذي يقول :

وأبكي فلا ليلي بكت من صبابة
إليَّ ، ولاليلي لذي الود تبذل

(١) الأغاني ٣/٢٩١ ، ترجمته .

بغض النظر عن المقصود بليلي هنا ، وهل هي ليلي حقيقية . أو هي قوسه كما أكده ، أو هي مجرد رمز لحالة نفسية ما .. وهو الذي يقول أيضا :

فقال خليلي والبكا لي غالب

أفاض عليك ذا الأسى والتشوّق

وفي هذه القصيدة يسترسل في وصف حالته البكائية ومدامعة .. مما يحملنا علي القول بأنه كان في حالة وَجْدٍ حقيقي لا افتعال فيه ، وليس مجرد تصوير شعري ، أو محاكاة لمن وقف على الدمن والأطلال من أسلافه الشعراء .. ويحسن مراجعة القطعة في موضعها من شعره لتبين الصورة المفصلة التي قدمها والتي يختمها بقوله:

وعاب رجال أن علقت وقد بدا

لهم بعض ما أهوى وذو الحلم يعلق

ويكشف لنا هذا البيت الأخير، وأضرابه ، وإشارات بعض أخباره ، أن الشاعر كان من التعقل بحيث تستغرب منه بعض المواقف الوجدانية ، التي كان يضعف فيهاعما يعلم عنه من جلد أو (حلم) كما عبر . أو كما وصف في بيته التالي :

فداويت وجدي باجتناب ، فلم يكن

دواء لما ألقاه منهـا التجنـبُ

هذه النفثات الوجدانية ، التي تخللت أماديحه ، رشحت شعره الوجداني للغناء ، فوجدنا له أكثر من قطعة مغنّاة ، بل وجدنا له قطعة من المئة المختارة ، التي قام عليها كتاب الأغاني كله .

ومهما قيل عن وجدانياته ، فإن ابن المولى كان صارما في كتمان تفاصيل ذلك الوجد، وآثاره .. وكأنما يحتسب ذلك من تمام مروءته ، ومظهرا من مظاهر شخصيته التي أهلته أن يعدّ من علِيَّة القوم في أهل بلده .

وكان ابن المولى ، على ما يبدو من أخباره وأشعاره ، شديد الارتباط ببلده ، لا يكاد يغادرها حتى يعود إليها مهما طال به المدى هنا أو هناك ، بين العراق ومصر ، أو ربما غيرهما .. فهو في العراق يضجر ، ولا يكتم ضجره ، وهو في مصر يتعرض لحالة مرضية شديدة ، تحمل مضيفه (يزيد بن حاتم المهلبي) على الإشفاق عليه ، لئلا يتحمل مشاق السفر بعد ذلك ، مكتفيا بما يذل له من عطاء ، طبقا لقوله مخاطبا ممدوحه :

إني لأرجو إن لقيتك سالما

ألا أعالج بعدك الأسفارا

وقال له حينما جاء لعيادته بعد أن نقه: لوددت والله يا أبا عبد الله ألا تعالج بعدي الأسفار حقا !

بيئته وأصدقاؤه

١ - بيئته :

عاش ابن المولى ما بين حوالي منتصف القرن الهجري الأول ، وحوالي منتصف القرن الهجري الثاني ، وشهد طرفا من عهد الأمويين ، وأوائل الخلفاء العباسيين .. فهو من مخضرمي الدولتين .

وهذه الفترة شهدت تغيرا في السياسة ، والفكر ، والأدب ، وفي الأخلاق الاجتماعية ، وطريقة الحياة ذاتها .

وأبرز الأحداث السياسية في هذا العهد انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين ، بعد تضافر جهود العلويين وأتباعهم إلى اقتلاعه من أيدي الأمويين ، وإن لم يصل إلى أيديهم ، حيث استطاع العباسيون أن يستولوا عليه لأنفسهم ، وأن يؤول الأمر إليهم وأن يخلف ذلك سلسلة من الثورات والقلاقل والاضطرابات ، كان الخلفاء العباسيون المؤسسون يقضون عليها بحزم وشدة .

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها ظهر في المدينة (النفس الزكية) ، الذي حاول الاستيلاء على السلطة ، ليردها إلى أبناء فاطمة .. وقد التف حوله رجال من أهل المدينة ، ولكن حركته لم تنجح ، وقضي المهديُّ عليها .. ولكنها دلت على وجود تيارات سياسية داخل المجتمع الإسلامى ، تعطف على العلويين وتتضامن معهم ، وتحمل السلاح في سبيل دعوتهم .. حتى بعد أن استقر الأمر من ناحية أمنية لبني العباس ، كانت تلك التيارات تطفو على السطح ، علي شكل قصائد ، تعبر بها الأطراف المتحمسة عن عقائدها السياسية .

والسياق هنا لا يتسع للتفصيل .. ولكني وجدت ضرورة الإلماح إلى هذه التيارات التي بسطتها كتب التاريخ الأدبي ، وخاصة منها ما رصد الحركة الأدبية في القرنين الأولين من الهجرة .

المهم في الأمر هنا ، أن نعرف موقف ابن المولي من الأحداث التي كانت تمور في عصره ..

لم تنقل إلينا أخباره القليلة التي وصلت إلينا ، على الأقل في حدود اطلاعي ، ما يدل على اتخاذه موقفا محددا مع العلويين أو ضدهم ، مع أن أهل المدينة ، قد انضموا أو جلّهم إلى حركة النفس الزكية .

ولكننا نجد في شعره قصيدة يمتدح فيها الخليفة المهدي ، ويعرِّض خلالها بالعلويين ، ويذكر أن لا حقّ لهم في الخلافة ، وهي القصيدة البائية ، التي يقول فيها[1] :

إذا ذكرت يوما مناقب هاشم
فإنكمُ منها بخيرالمناصب
ومن عيب في أخلاقه ونصابه
فما في بني العباس عيب لعائب
وإن أمير المؤمنين ورهطه
لأهلُ المعالي من لؤيٍّ بن غالب
أولئك أوتاد البلاد ووارثو النبـ
ـيِّ بأمر الحق ، غير التكاذب
وما نقموا إلا المودة بينهم
وإن غادروا فيهم جزيل المواهب
وأنهم نالوا لهم بدمائهم
شفاء نفوس من قتيل وهارب
وقاموا لهم دون العدا وكفوهمُ
بسمر القنا ، والمرهفات القواضب
وحاموا على أحسابهم وكرائم
حسان الوجوه ، واضحات الترائب

ولكن هل قال ابن المولى هذه المقالة التي أرضى بها الخليفة وأسخط العلويين عن عقيدة ، أو عن مذهبية سياسية ، أو أن الأمر لديه لا يعدو أنه قال ما قال، ليمدح الخليفة بما يشتهي ، وينال أعطياته ؟

يبدو أن الافتراض الأخير هو السليم، فلم يؤثر عن الشاعر أنه كان ملتزما باتجاه سياسي معين ، وليس في شعره الذي وصل إلينا انحياز إلى معسكر ما إلا هذه القصيدة التي عاتبه فيما بعد على ما جاء فيها (الحسن بن زيد) ، أحد أعلام العلويين وأمير المدينة من قبل الخليفة المهدي ذاته ، وحينما تأخرت

(١) تنظر في شعره قافية الباء .

عليه وظيفته السنوية (قاعدته السنوية) من قبل هذا العامل ، ويبدو أنه أخرها عامدا ليغيظه .. دخل الشاعر عليه مسترضيا ، ممتدحا له بقصيدته التي يقول فيها:

هاج شوقي تفرّق الجيران
واعترتني طوارقُ الأحــــزان[1]

وفيها يقول له :

فضله واضح برهط أبي القاسم
رهط اليقـــــين والإيمــــان
هم ذوو النور والهدى ومدى الأ
مر وأهــل البرهـان والعـرفان
معدن الحق ، والنبـوة والعــد
ل إذا ما تنـازع الخصمـــان

وهو في هذا يناقض ما قاله هناك ، ويجعل العلويين هم معدن الحق ، وإن فضلهم واضح إذا ما تنازع الخصمان.. أي أنهم يرجحون على الفريق الآخر .

تقول القصة التي يرويها صاحب الأغاني ، في ترجمة الشاعر إن الحسن ابن زيد قال له وهو يؤنبه : .. أما إذا جئت إلى الحجاز فتقول لي هذا ، وأما إذا مضيت إلى العراق فتقول :

وإن أمير المؤمنين ورهطــــه
لرهط المعالي من لؤي بن غالب
أولئك أوتاد البلاد ووارثو النبي
بأمر الحق ، غير التكــــاذب

فقال له : أتنصفني يا ابن الرسول أم لا ؟ فقال : نعم ، فقال : ألم أقل : وإن أمير المؤمنين ورهطه . ألستم رهطه ؟ فقال : دع هذا .. ألم تقدر أن ينفق شعرك ومديحك إلاّ بتهجين أهلي ، والطعن عليهم ، والإغراء بهم حيث تقول:

وما نقموا إلا المــودة منهـــمُ
وإن غادروا فيهم جزيل المواهب
وأنهمُ نالوا لهــــم بدمائهـــم
شفاء نفوس من قتيل وهـــارب

فوجم ابن المولي وأطرق ، ثم قال : ياابن الرسول ، إن الشاعر يقول ويتقرب بجهده ، ثم قام فخرج من عنده منكسرا ، فأمر الحسن وكيله أن يحمل إليه وظيفته ويزيده فيها ففعل ، فقال ابن المولي : والله لا أقبلها وهو عليّ ساخط. فأما إن قرنها بالرضا فأقبلها ، فأما إن أقام وهو ساخط عليّ البتة فلا ! فعاد الرسول إلى الحسن فأخبره فقال له : فقل له : قد رضيت فاقبلها .

(١) تنظر القصيدة في موضعها من قافية النون .

وجدير بالذكر أن الحسن إنما جرى حواره أو تأنيبه مع الشاعر في خلوة احترازاً أن يبلغ خبرها إلى الخليفة ، وأن توبيخه لم يخل من بعض الشتائم[1] .

وندرك من هذه القصة ، أنه قال للخليفة المهدي العباسي : أنتم أصحاب الحق .. ثم عاد فقال ذلك نفسه للحسن ابن زيد العلوي .. فهل فعل ذلك لأنه تذبذب بين التيارين .. أو أنه فعله لأنه شاعر مداح أراد أن يرضي ممدوحه ؟ إني أذهب للرأي الأخير ، الذي صرح به الشاعر نفسه حينما قال : إن الشاعر يقول ويتقرب بجهده .. ويعني أن الشاعر المداح ليس له موقف محدد صريح ..

وقد صنَّف الأصمعي (ابن المولي) ضمن الشعراء المحسنين المداحين من المولّدين ، في رواية عن يموت بن المزرع[2] عن الجاحظ[3] عن الأصمعي، جاءت في تاريخ دمشق لابن عساكر، في ترجمة يزيد بن حاتم ، حينما قال له الأصمعي : يا أبا عثمان ، ابن المولي من المحسنين المداحين ، ولقد أسهرني في ليلتي هذه حسن مديحه يزيد بن حاتم حيث يقول :

وإذا تباع كريمة أو تشتري
فسواك بائعها وأنت المشتري

وإذا تُخيّلُ من سحابك لامع
سبقت مخيلتُه يدَ المستمطر

وإذا صنعت صنيعة أتممتها
بيدين ليس نداهما بمكدر

وإذا الفوارس عُددت أبطالها
عَدُّوك في أبطالهم بالخنصر

ولا نستطيع القول إن ابن المولى كان ذا خط سياسي معين ، انغمس فيه، ثم عدل عنه ، مالم نجد على ذلك دليلا ، كما لا نجد اسمه ضمن رجال من أهل المدينة ، من أعلامها وأبطالها وشجعانها، وشعرائها الذين عضدوا

---

(١) الأغاني ٣/٢٩٤ ، طبعة دار الكتب .

(٢) يموت بن المزرع : ابن أخت الجاحظ ، شاعر أديب عالم ت ٣٠٤ هـ = ٩١٦ م .

(٣) وقد جاءت هذه الرواية أيضا (من طريق ابن عساكر) في وفيات الأعيان ٦/٣٢٥ ، لكن سقط منها اسم الجاحظ فأخلّ ذلك بسندها. وقد تنبه إلى هذا الخلل محقق وفيات الأعيان (الدكتور إحسان عباس) فقال في الهامش إنه يستبعد لقاء يموت بالأصمعي لأن هذا توفي حوالي ٢١٠ هـ ، ويموت مات سنة ٣٠٤ هـ .

حركة النفس الزكية ، التي انبعثت من المدينة ذاتها سنة ١٤٥ هـ وقد قتل في السنة نفسها ، مما يدل على أن ابن المولي قد اعتزل الفتنة .

٢ - أصدقاؤه :

ونستطيع أن نتعرف من بعض أخباره ، على عدد من أصدقائه الذين يخصهم بمودته ، ويغدون ويروحون معه.

فهذا خبر في الأغاني ، في ترجمته ، يرويه عبد الملك بن عبد العزيز ، أنه خرج (أي من المدينة) إلى قباء في رفقة من الأصدقاء هم أبو السائب المخزومي ، وعبيد الله بن مسلم بن جندب ، وابن المولى ، وأصْبَغ بن عبدالعزيز بن مروان ، وكان ابن المولى متنكبا قوسا عربية ، فأنشد ابن المولى لنفسه :

وأبكي ، فلا ليلى بكت من صبابة
إليّ ، ولا ليلي لذي الود تبذل
وأخنع بالعتبى إذا كنت مذنبا
وإن أذنبتْ ، كنت الذي أتنصل

وقد حملهم شعره هذا على أن يسألوه عن ليلاه هذه التي دعته إلى البكاء ، وجعلته يخنع بالعتبى إذا صدر منه ذنب، أما إن صدر الذنب عنها هي ، فهو الذي يبادر بالتنصل والتماس العذر - لعلهم يستطيعون أن يحملوها إليه .. ولكن الشاعر يقول : ما هي إلا قوسي هذه سميتها ليلى !

ولكي نستطيع أن ندرك مكانة ابن المولي في مجتمع المدينة ، لابد أن نتعرف على هؤلاء الأصدقاء فمن هم ؟

أما عبد الملك فهو ابن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون .. فهو ابن الماجشون ، أبو مروان التيمي بالولاء (ت٢١٢ هـ = ٨٢٧م) ، وهو فقيه مالكي فصيح ، كانت له الفتيا في عهده ، كما كانت لأبيه من قبله ، قيل كان أعمى ، وقيل عمي في آخر عمره ، تفقه علي الإمام مالك ، وعلى أبيه عبد العزيز وغيرهما ، كان مولعا بسماع الغناء ، وحدّث ، وكان من الفصحاء ، تأدب في خؤولته من كلب بالبادية ، مات سنة ٢١٢هـ = ٨٢٧ م ، وقيل في وفاته إنها

كانت سنة ثلاث عشرة ، وأربع عشرة[1] .

وكما عني أبناء الماجشون بالعلم والفقه والحديث ، فقد عنوا أيضا بالأدب والفن ، فكان عبد الملك فقيها ، وأديبا ، وناقدا .. يتذوق الشعر ، ويقدِّر الجيد منه .. فلا غرو أن انعقدت صلاته وصداقاته مع عدد من الشعراء ، الذين يغشون مجلسه ، أو يسعى هو إلى مجالسهم كما في قصته هذه مع ابن المولى .

***

أما أبو السائب المخزومي ، فهو شخصية ظريفة ، يتردد اسمه في كتب الأدب ، وفي كتب الحديث ، فهو أيضا من رواته .. ولكنني لم أستطع أن أعثر له على ترجمة[2].

وأما عبيد الله[3] بن مسلم بن جندب، فإنا نجد اسمه يتردد في مجالس الأدب والوفادة على الخلفاء ، في صحبة عبد الله بن مصعب ، وخاصة في مجلس الخليفة الهادي ، حيث يروي عبد الله بن مصعب ، الأمير الشاعر ، أنه كان أجرأهم على الخليفة .. في قصة طويلة[4] ..

وقد ذكره الصفدي في (الوافي بالوفيات) ٦٠٩/١٧ تحت عنوان (ابن جندب القارئ) ، في الترجمة ٥١٧ فقال:

«عبد الله بن مسلم بن جندب بن حذيفة بن عمرو بن زهير بن خِداش الهذلي القارئ .. أحد القراء الرواة ، قرأ عليه نافع بن أبي نعيم ، وحدَّث عنه ابن أبي ذئب وغيره . ودخل على المهدي مع القراء فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دخل

(١) الأعلام ، وفيه مصادره ، وينظر وفيات الأعيان الترجمة ٣٧٧ ، وأشار محققه الدكتور إحسان عباس في الهامش إلى مصادر ترجمته .
كما ترجم صاحب الوفيات للماجشون الذي تنسب إليه الأسرة ، تنظر فيه الترجمة ٨٢٣ وهي مذيلة بترجمة عبد العزيز بن عبد الله ، والد عبد الملك ، كما دل المحقق على مصادر ترجمتهما .

(٢) ورد ذكره في (المقتنى في سرد الكنى) للذهبي ٢٥٨/١ . وفي ميزان الاعتدال ٥٢٧/٤ . وفي لسان الميزان لابن حجر ٥٠/٧ .

(٣) هذا تصحيف في (الأغاني) – والله أعلم – والصواب عبد الله كما يأتي في ترجمته .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ١٦٢/١٦ في قصة رواها عبد الله بن مصعب قال : كنا جماعة نجالس الخليفة الهادي ، أنا ، وسعيد بن سلم الباهلي ، وابن دأب الليثي ، وعبد الله بن مسلم العزيزي ، وكان أجرانا عليه .. فخرج الهادي علينا يوما مغضبا متغيرا ، فسأله عبد الله بن مسلم عن سبب الغضب والتغير.. الخ .

عليه في الرواة ، فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دعي في المغنين فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دعي في القصاص . فقال المهدي : لم أر كاليوم أجمع لما لم يجمع الله في أحد منك ! وكان ظريفا غزلا ، وهو أحد الكملة»[1] .

أما أصبغ بن عبد العزيز ، فهو غالبا، الأصبغ بن عبد العزيز المدني ، مولي خزاعة ، شاعر ، ذكره الصفدي في (الوافي بالوفيات ٢٨٠/٩ في الترجمة ٤٢٠٣) ، وقال «هو القائل يمدح جعفر ابن سليمان الهاشمي :

حلفت بما حجت قريش لبيته
وما وضعت بالأخشبين رحالها
لقد أهلّت أرض بها حلّ جعفر
وما عدمت معروفها وجمالها

وقال يمدح عبد العزيز بن المطلب المخزومي :

إذا قيل من للعدل والحق والنهي
أشارت إلى عبد العزيز الأصابع
أشارت إلى حر المحامد لم يكن
ليدفعه في غاية المجد دافع»[2]

***

ومن أصدقائه أيضا عبد الله بن مصعب الزبيري ، وهو أمير ، شاعر، وجيه من ذوي الصدارة ، وسيأتي الحديث عنه في ممدوحيه .

---

(١) لم يترجمه في الإعلام ، ولم يذكر الصفدي شيئا عن وفاته ، ولكن من الواضح أنه عاش مخضرما بين العهدين الأموي والعباسي ، ويذكر الصفدي في بقية خبره ، خبرا يذكرنا بموقف الحسن بن زيد في ولايته للمدينة ، حينما لام ابن المولى لتشبيبه في قوله :
وابكي فلا ليلي بكت من صبابة ،، حتى حلف له أنها قوسه ، يقول خبر ابن جندب إن الحسن حينما ولي المدينة منع ابن جندب أن يؤم الناس ، فلما سأله عن السبب قال : منعك منه يوم الأربعاء ، يريد قوله من أبيات:

يا للرجال ليوم الأربعاء أما — ينفك يحدث لي بعد النهي طربا
إذ لا يزال غزال فيه يفتنني — يهوى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
يخبر الناس أن الأجر همته — وما أتى طالبا للأجر محتسبا
لو كان يطلب أجرا ما أتى ظهرا — مضمخا بفتيت المسك مختضبا

أما قول الصفدي : وهو أحد « الكملة » ، فقد قال ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ص٦٢٢ (الكامل : الذي يكتب ويحسن العوم والرمي) .

(٢) لم يترجم له الزركلي في الأعلام . ولكنه ترجم للأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، أمير ، من بني أمية توفي سنة ٨٦ هـ = ٧٠٥ م ولا أظنه المقصود ، فالأليق أن يكون الخزاعي الذي ذكرت فهو مدني ، أما الأمير فقد كان بمصر ، وهو ليس من طبقة صاحبنا .

ونجد في أخبار ابن المولي ما حدّث به عبد الله بن مصعب الزبيري ، قال :[1]

وفدنا إلى المهدي ، ونحن جماعة من قريش والأنصار ، فلما دخلنا عليه سلمنا ودعونا وأثنينا ، فلما فرغنا من كلامنا أقبل عليَّ ابن المولى فقال : هات يا محمد ما قلت فأنشده :

نادى الأحبة باحتمال

إن المقيم إلى زوال

إلى آخر القصيدة التي يجدها القارئ في مكانها من شعره .

وندرك من هذا الخبر أنه كان معدودا من وجهاء القوم ، وأنه كان يشترك مع الوفود ، ضمن وفد الأنصار، وأنه كان معروف المكانة الاجتماعية والأدبية .

ممدوحوه

أما الذين قصدهم بأماديحه ، فكانوا نخبة من الرجال ، كان يتخيرهم تخيرا . وكان كأنما يمدحهم عن عقيدة جازمة ، بأنهم أهل للمدح والثناء .. لكي تكون كلماته فيهم صادرة عن صدق ويقين .. بل لقد كان يبدو أحيانا أنه يمدحهم وكأنه لا يرجو جوائزهم ، وإنما يراهم أهلا للمدح ، لأنهم رشحوا أنفسهم له .. ولا غرو بعد ذلك أن جاءت مدائحه في هؤلاء بارعة تنم عن صدق يجاور البراعة والجودة .

تنقل إلينا الرواية أنه فعل ذلك مع رجلين عظيمين ، امتدحهما قبل أن يلتقي بهما ، وقبل أن ينال من جوائزهما شيئا ، وهما عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموي[2] ، ويزيد بن حاتم المهلبي[3] القائد المشهور بفتوحاته وأعطياته .

أما عبد الملك ، فكان من أعظم خلفاء بني أمية ، (٢٦-٨٦هـ) وكان فقيها ، واسع العلم ، قال عنه الشعبي : «ما ذاكرت أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه ، إلا عبد الملك فما ذاكرته حديثا ولا شعرا إلا زادني فيه » .

(١) الأغاني ، ترجمة ابن المولى ٣/٢٩٩ من طبعة الدار .
(٢) الأغاني ، ترجمته ينظر ٣/٢٩٠ من طبعة الدار .
(٣) الأغاني ، ترجمته ينظر ٣/٢٩٠ من طبعة الدار .

يقول الأصفهاني في روايته : « قَدِم عبد الملك بن مروان المدينة ، وكان ابن المولي يكثر مدحه ، وكان يسأل عنه من غير أن يكون التقيا ، فلما قدم عبد الملك المدينة قدم ابن المولى ، لما بلغه من مسألة عبد الملك عنه ، فوردها وقد رحل عبد الملك عنها ، فأتبعه فأدركه بإضَم[1] بذي خُشُب[2]، بين عين مروان[3] ، وعين الحديد[4] ، وهما جميعا لمروان ، فالتفت عبد الملك إليه ، وابن المولى على نجيب متنكبًا قوسًا عربيةً فقال له عبدالملك : ابن المولي؟ قال : لبيك ياأمير المؤمنين ، قال : مرحبا بمن نالنا شكرُه ، ولم ينله منا فعل ، ثم قال : أخبرني عن ليلى التي تقول فيها :

وأبكي فلا ليلي بكت من صبابة

إليّ ، ولا ليلي لذي الود تبذل

والله لئن كانت ليلى حرة لأزوجنكها ، ولإن كانت أمة لأبتاعنّها لك بما بلغت !

فقال : كلا ياأمير المؤمنين ، والله ما كنت لأذكر حرمة حر أبدا ولا أمته والله ما ليلي إلا قوسي هذه ، سميتها ليلي لأشبب بها ، وإن الشاعر لا يُستطاب إذا لم يتشبب . فقال له بعد الملك : ذلك والله أظرف لك . فأقام عنده يومه وليلته ينشده ويسامره . ثم أمر له بمال وكسوة، وانصرف إلى المدينة » .

***

أما الشخص الآخر .. وهو يزيد بن حاتم المهلبي .. فهو أمير قائد شجاع توفي سنة ١٧٠ هـ (٧٨٧م) ، ولِيَ مصر سنة ١٤٤ هـ للمنصور . ومكث سبع سنين وأربعة أشهر ، وصرفه المنصور سنة ١٥٢ هـ ، ثم ولاه إفريقية (تونس) سنة ١٥٤ هـ ، واستقر واليا عليها خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر .

كان جوادا ممدوحا شديد الشبه بجده المهلب في الدهاء والشجاعة[5].

---

(١) إضيم : اسم الوادي الذي تجتمع فيه أودية المدينة .
(٢) ذو خُشُب – بضمتين – " واد على ليلة من المدينة ، وهو أسفل مجتمع أودية المدينة .
(٣) عين مروان : بإضَم .
(٤) عين الحديد : بإضَم .
(٥) الأعلام للزركلي .

يروي الأصفهاني عن لقاء ابن المولي به ، رواية تشبه روايته عن عبد الملك ولكن الراوي هذه المرة هو ابن المولى نفسه :

« كنت أمدح يزيد بن حاتم من غير أن أعرفه ولا ألقاه ، فلما ولاه المنصور مصر ، أخذ على طريق المدينة فلقيته ، فأنشدته وقد خرج من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن صار إلى مسجد الشجرة ، فأعطاني رِزمتَي[1] ثياب وعشرة آلاف دينار فاشتريتُ بها ضِياعًا تُغِلُّ ألفَ دينار ، أقومُ في أدناها وأصيح بقَهْمي ولا يَسمعني وهو في أقصاها .

وتقول إحدى روايات الأغاني إنه استفرغ مدحه في يزيد ، وإنه قال فيه قصيدته التي يقول فيها :

يا واحد العرب الذي دانت لـه
قحطان قاطبة ، وساد نزارا[2]
إني لأرجو إن لقيتك سالما
ألا أعالج بعدك الأسفار

ولا عجب أن يقول الراوي ، وهو عبد الملك الماجشون ، أحد أصدقاء ابن المولى أن الشاعر استفرغ مدحه ، أو أعطى أجوده وأعلاه وأصدقه في هذا الأمير ، فقد كانت أعطياته السخية تحضّه على هذا الإحسان والتجويد وكأنّ الشاعر كان يحس بالاكتفاء ، مما أغدق عليه ممدوحه هذا ، ويعبر عن ذلك في قوله : (إني لأرجو إن لقيتك سالما ، ألا أعالج بعدك الأسفار) .

وهذا السخاء العجيب كان يحث الشاعر أيضا على أن يلهج بذكر الأمير يزيد ، ويكرر زياراته له ، أنّي ذهب الأمير ، مما وثّق عري الألفة بين الرجلين .. وهذا ما يدل عليه خبر هذه الأبيات ، فقد قصده بها في مقر إمارته بمصر (أي ما بين سنة ١٤٤و١٥٢هـ) ، فأنشده إياها فأعطاه حتى رضي ، وهنا تقول الرواية[3] إن الشاعر مرض عنده بمصر مرضا طويلا ، وثقل حتى أشفي (أشرف على الموت) ، فلما أفاق من علته

---

(١) الرزمة من الثياب : ماشُدّ في ثوب واحد .

(٢) الأغاني ، ترجمة ابن المولى ٣/٢٩٠ من طبعة الدار .

(٣) ترجمة ابن المولى في الأغاني ، ٣ / ٢٩٠ من طبعة الدار .

ونهض ، دخل عليه يزيد يتفقده ، ويتعرف خبره .. حيث قال له : لوددتُ والله - يا أبا عبد الله - ألا تعالج بعد الأسفار حقا ! ثم أضعف صلته .

وواضح أن الأمير يشير إلى بيت الشاعر الذي سلف .. وأغلب الظن أنه أشفق عليه من تقدم السن .

ومما يؤسف له أن هذه القصيدة الرائعة ، لم أجد منها في آثاره الباقية إلا أبياتا ثلاثة ، يجدها القارئ في القسم الخاص بالأشعار ، من هذا الحديث .

وفي يزيد بن حاتم ، قال ابن المولي قصيدته الرائعة التي يقول في مطلعها :

ألا يا لقومي هل لما فات مطلب

وهل يُعذرن ذو صبوة وهو أشيب

وهي قصيدة جميلة ، من حسن الحظ أنها نقلت إلينا كاملة ، أو معظمها[1] (تراجع في شعره)

وفي يزيد بن حاتم قال ابن المولي قصيدته التي نال بعض أبياتها شهرة مستفيضة ، وقد تكون أجود ما قال ومنها :

وإذا تباع كريمة أو تشترى

فسواك بائعها وأنت المشتري

(تنظر في موضعها من شعره) .

وكان الخليفة المهدي (١٦٩هـ=٧٨٥م) من ممدوحي الشاعر ابن المولى ، يقدم عليه في بغداد فينشده من أشعاره .. ومن ذلك قصيدته القافية التي مطلعها :

سلا دار ليلي هل تبين فتنطق

وأنّي ترد القول بيداء سملقُ

وقد استحسنها الخليفة ، وأجزل صلته ، وأمر أن يغني في نسيب القصيدة (تنظر في مجموعة شعره) .

وقدم عليه أيضا فمدحه بقصيدة يقول فيها :

وما قارع الأعداء مثلُ محمد

إذا الحرب أبدت عن حجول الكواعبِ

وهي التي عّرض فيها بآل أبي طالب، فوصله المهدي بصلة سنية ، أنفق منها وبنى داره ، وحسن مظهره .

ويبدو أن أول صلته بالمهدي ، حينما ولى الخلافة فحج[2] وأتي المدينة ، وبسط يده بالعطاء فى قريش والأنصار ، وفرّق

(١) الأغاني ، ترجمة ابن المولى ٣/ ٢٩٠ من طبعة الدار .

(٢) تولى الخلافة آخر سنة ١٥٨ هـ ، وحجج بالناس سنة ١٦٠ هـ .

أموالا عظيمة ، بعدما أصاب الناس من جهد أيام أبيه ، لاشتراكهم في حركة النفس الزكية (محمد بن عبد الله بن حسن) ، وقد التف الناس حول المهدي ، وأحبوه وقصده الشعراء بالثناء ، وحينما التقوا به بحث عن أبن المولي ، وأمر بتقريبه ، فقرب منه .. وقال له : هاتِ يامولي الأنصار ما عندك ؟ فأنشده قصيدته :

ياليلَ لا تبخلي ياليلَ بالزاد

واشفي بذلك داء الحائم الصادي

(تنظر القصيدة في موضعها من أشعاره) .

حتى أتى على آخرها ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وكسوة ، وأمر صاحب المخصصات الجارية أن يجري له ولعياله[1] في كل سنة ما يكفيهم ، وألحقهم في شرف العطاء (أي الأعطيات الفضلى) .

وروي عبد الله بن مصعب الزبيري[2]:

«وفدنا إلى المهدي ، ونحن جماعة من قريش والأنصار ، فلما دخلنا عليه ، سلمنا ودعونا وأثنينا ، فلما فرغنا من كلامنا أقبل علي ابن المولى فقال: هات يامحمد ما قلت . فأنشده :

نادي الأحبة باحتمال

إن المقيم إلى زوال

(الخ القصيدة وهي في مجموعة شعره).

فأمر له خاصة بعشرة آلاف درهم معجلة ، ثم ساواه بسائر الوفد بعد ذلك في الجائزة ، وأعطاه مثل ما أعطاهم ، وقال : ذلك بحق المديح . وهذا بحق الوفادة[3] .

وهذا الخبر وغيره مما سلف ، يدل على اهتمام المهدي اهتماما خاصا بالشاعر والالتفات إليه كلما رآه ، واستنشاده من شعره ، مما يدل على مكانته عنده .

***

ومن ممدوحيه جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ، وهو أمير عباسي ، ولي إمارة البصرة والمدينة واليمن ، ت ١٧٧ هـ[4] .

---

(١) تراجع الأغاني ، ترجمة الشاعر ٢٩٨/٣ من طبعة الدار .

(٢) أمير شاعر من ذرية عبد الله بن الزبير . ستأتي ترجمته .

(٣) تراجع الأغاني ، ترجمة ابن المولى ، طبعة الدار ٣٠٢/٣ .

(٤) لم يترجمه الزركلي في الأعلام ، وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ والأدب . ينظر فهرست تاريخ الكامل .

وقد قدم ابن المولي البصرة ، فأتي جعفر بن سليمان ، فوقف في طريقه وقد ركب ، فأنشده :

كم صارخ يدعو وذي فاقة

يا جعفَر الخيرات يا جعفرُ

والأبيات الأربعة مذكورة في محلها من قافية الراء من مجموعة شعره ، الملحق بهذا الحديث[1].

ويقول صديقه عبد الملك بن الماجشون : إنه كان مدّاحا لجعفر بن سليمان وقُثَم بن العباس الهاشميين ، ويزيد بن حاتم ، وإنه استفرغ مدحه في هذا الأخير[2].

***

ومدح (الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب) ، (٨٣-١٦٨هـ = ٧٠٢-٧٨٤م) وهو أبو محمد ، وقد ولي إمارة المدينة ، وهو والد السيدة نفيسة ، وشيخ بني هاشم في زمانه[3].

وقد كانت للشاعر وظيفة لديه (أي مخصص أو مقرر سنوي) ولعله هو المقرر الذي فرضه له الخليفة المهدي فيما سلف من أخبار أماديحه له .

فدخل الشاعر على الحسن فامتدحه بقصيدة مطلعها :

هاج شوقي تفرّق الجيران

واعترتني طوارق الأحزان

(القصيدة في مجموعة شعره الملحق بهذا الحديث)

وفي القصيدة ثناء عليه وعلي ذويه من آل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أسلفت خبر القصة ، وأن الحسن لامه ، لأنه ذهب إلى العراق فامتدح المهديَّ وقال له :

وإن أمير المؤمنين ورهطه

لرهط المعالي من لؤيٍّ بن غالب

أولئك أوتاد البلاد ووارثو النب

ـبيِّ بأمر الحق غير التكاذب

وإذا عاد إلى الحجاز ، امتدحه بما يخالف ذلك . ويبدو أن كلمة (غير التكاذب) كانت شديدة الوطأة على

(١) الأغاني : ترجمة ابن المولى طبعة الدار ٣/٣٠٢ .

(٢) الأغاني : ترجمة ابن المولى طبعة الدار ٣/٢٩٠ .

(٣) تنظر ترجمته في الأعلام للزركلي ، وقد ولي إمارة المدينة من قبل المنصور سنة ١٥٠هـ بعد عزل جعفر بن سليمان ، ومكث بها إلى أن عزله سنة ١٥٥ هـ .

العلويين من أمـــثـــال الحـــسن بن زيد بالإضافة إلى قوله :

ومانقموا إلاّ المودة منهم

وإن غادروا فيهم جزيل المواهب

وأنهمُ نالوا لهم بدمائهم

شفاء نفوس من قتيل وهارب

ولكنه عـاد فـقـدر مـوقـفـه ، مـوقف الشـاعـر المداح ، يرضي ممدوحـــه بما يسره من القول ، فأعطاه وظيفته التي كان منعه إياها .. بل زاده عليها ، فقبل بعد امتناع ثم استرضاء ، فامتدحه كرّة أخرى بأبياته :

سألتُ فأعطاني وأعطى ولم أسل

وجاد كما جادت غوادٍ رواعد

(الأبيات في مجموعة أشعاره)[1].

وجـدير بالذكـر ، مـا دمنا في حـديث علاقته بالحسن بن زيد ، أن هناك قصة أوردها صاحب الأغاني[2] ، تقـول ، إنه دعـا بابن المولي فـأغلظ له ، وقـال : أتشبب بحرم المسلمين ، وتنشد ذلك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الأسواق والمحافل ظاهراً ! فحلف له بالطلاق أنه مـا تعـرض لحـرم قط ، ولا شـبب بامـرأة مـسلم ، ولا مـعـاهد قط . قـال: فـمـن ليلي هذه التي تذكـر فـي شعرك؟ فقال له : امرأتي طالق إن كانت إلاّ قوسي هذه سميتها ليلي لأذكرها في شـعـري ، فـإن الشـعـر لا يحـسن إلا بالتشبيب . فـضـحك الحسن ، ثم قال : إذا كانت القصة هذه فقل ما شئت .

***

ورأينا من رواية عـــبـــد الملك بن الماجشـون السـالفـة ، أن من ممدوحـيـه (قُـثَـم بن العـبـــاس) .. فـمـن هو هـذا الممدوح؟ وأين أشعاره فيه ؟ .

---

(١) القصـة في ترجمـة ابن المولي بالأغـاني ، ينظر طبـعـة الدار ٢٩٣/٣ ومـابعدها ، ومما يستحق التأمل ، أن الحسن بن زيد عزل عن إمارة المدينة سنة ١٥٥ هـ من قبل المنصور ، كما في تاريخ الكامل لابن الأثير ، أي قبل خلافة المهدي ، والقصة في الأغاني تدل على أن أحداثها كانت على عهد المهدي بل راويها هو مولى الحسن بن زيد نفسه . أي أن الحسن لم يكن أميرًا على المدينة في عهد المهدي . إلا أن يكون مسئولا عن توزيع المخصصات والأموال .

(٢) الأغاني ترجمة ابن المولى . ينظر من طبعة الدار ٢٩١/٣ .

قثم بن العباس المقصود هنا[1] هو قثم ابن العباس بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، المتوفي سنة ١٥٩هـ=٧٧٦م : أمير ولاّه المنصور العباسي إمرة اليمامة سنة ١٤٣ هـ ، فأقام فيها إلى أن توفي المنصور ، وولي المهدي ، فكتب هذا بعزله ، ولكن الكتاب وصل إلى اليمامة بعد وفاته[2] .

وما عثرت إلاّ على بيت واحد فريد في مدح (قثم بن العباس) ، أوردته في مجموعة شعره ، هو قوله :

عتقت من حِلِيٍّ ومن رحلتي

ياناق إن أدنيتني من قثم

وقد ورد في (نسب قريش) للمصعب الزبيري ، ولكن صاحب الأغاني أورده منسوبا إلى داود بن سلم (ت١٣٢هـ) ضمن قصيدة يمدح بها قثم بن العباس[3].

فإن انتفى عن شاعرنا هذا البيت الفرد ، فيكون قد انتفى وصول أي شعر له في مدح قثم .

ونجد من بين ممدوحيه (عبد الله بن مصعب الزبيري) المتوفي سنة ١٨٤هـ=٨٠٠م ، وكان أيضا ممن ولي إمارة المدينة ، وقد أوردت له أبياتا في مديحه ، في مجموعة شعره أولها[4] :

ولما رأيت الناس بين مبلد

حرون ، وصعب ظهره شر مركب

أخذت بحبل من حبال ابن مصعب

قريع قريش ، والهجان المهذب

ونجد من سيرته أن عبدالله بن مصعب ، كان من رواة بعض أخباره فهو الذي روى قصيدته التي يمدح فيها المهدي :

نادي الأحبة باحتمال

إن المقيم إلى زوال

وكان ابن المولى ضمن وفد قدم على المهدي ، فيهم عبد الله بن مصعب .

---

(١) هناك قُثَم بن العباس بن عبد المطلب ، توفي سنة ٥٧هـ ، وليس مقصودا هنا .
(٢) الأعلام للزركلي .
(٣) الأغاني ٢٠/٦ و١٦٩/٩ من طبعة دار الكتب .
(٤) الأبيات في (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار ص ١٣٣ ، وربما كانت من قصيدة طويلة لم تصل إلينا .

شعره المغني

من شعر ابن المولى ، ما تغنى به المغنون في عهده ، وبعد عهده ، إما بأمر من الخلفاء الذين كانوا يستحسنون أبياتا منه ، وإما أن يكون المغنون قد فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم .

ولابن المولي صوت من المئة المختارة من الأغنيات التي اختارها أبو الفرج الأصفهاني ، وبني عليها كتابه الضخم (الأغاني) ، وكان هذا الصوت سببا في إيراد ترجمة ابن المولي وكسب الأدب أوسع أخبار هذا الشاعر[1].

وهذا الصوت من بيتين هما :

سلا دار ليلي هل تبين فتنطقُ
وأنّي ترد القول بيــداء سملق

وأني ترد القـول دار كأنهـــا
لطول بِلاها والتقادم مُهـرَق

وهما من قصيدته القافية الطويلة المثبتة في مجموعة شعره ، وقد حقق الأصفهاني ، بعد إيرادهما ، أن الشعر ليس للأعشي ، كما غلط في ذلك إسحق (الموصلي) ، وأنه (أي الأصفهاني) ، التمسه في ديوان الأعشي – كل أعشي– فلم يجده ، ووجده في شعر ابن المولى[2]، من قصيدة له طويلة جيدة .. وعد بإيرادهما تدليلا على جودتها ، ولكنه لم يوردها جميعها .. وإنما اكتفى بإيراد بعضها ثم اعتذر عن إتمامها قائلا : والقصيدة طويلة ، وفي بعض ما ذكرته منها دلالة على صحة ما قلته (يعني جودتها).

وقال الأصفهاني : إن هذا الغناء من اللحن المختار من المئة لعطّرد[3]، وإن فيه لأيوب زهرة غناء مع زيادة بيتين هما :

---

(١) الأغاني . ترجمة ابن المولى = ينظر من طبعة الدار ٣/٢٨٥ .

(٢) يراجع تحقيقه في أخبار ابن المولي ، الصفحة السابقة للأخبار ، والعبارة تدل على اطلاع الأصفهاني على ديوان ابن المولي .

(٣) يضبط في الأغاني (في ترجمته) ٣/٣٠٢ من طبعة دار الكتب – بفتح أوله وثانيه وتشديد الثالث مع الفتح – قال عنه : مولى الأنصار ، ثم مولي بني عمرو بني عوف وكان ينزل قباء ، وقال : زعم إسحق (أي الموصلي) أنه كان جميل الوجه ، حسن الغناء ، طيب الصوت ، جيد الصنعة ، حسن الرأي والمروءة ، فقيها ، قارئا للقرآن، كان يغني مرتجلا، وأدرك دولة بني أمية وبقى إلى أيام الرشيد، وقيل إنه كا ن معدل الشهادة بالمدينة.

وقال خليلي ، والبكا لـــي غالــب :

أقاض عليك ذا الأسى والتشوق؟

وقد طال توقافي أكفكف عـــبرة

تكاد إذا ردت لها النفس تزهق !

وجدير بالذكر ، أن بعض ما غُنى من أبيات هذه القصيدة ، كان بأمر المهدي نفســه ، فـقـد قـال الأصـفـهـاني ، إن الخليفة استحسنها وأجزل صلته ، وأمر فَغُنى في نسبيها .

ومما غنى فيه عطرد أيضا قوله :

ألا يا لقومي هل لما فات مطلب

وهل يعذرن ذو صبوة وهو أشيب

يحن إلى ليلى وقد شطّت النوى

بليلي ، كما حّن اليراع المثقب[1]

والبيتان من قصيدة بائية طويلة ، أوردتها في مجموعة شعره ، قالها في مدح يزيد بن حاتم المهلبي ، لما انصرف من حرب الأزاقة[2] وقد ظفر ، وعقد له لواء علي كــور الأهواز ، وســائر مــا افتتحه .

---

(1) المثقب : المزمار .

(2) ، من الخوارج ، أصحاب نافع بن الأزرق ،

ومن القصيدة اللامية ، التي يقول في مطلعها :

ذهب الرجال فلا أُحسُّ رجالا

وأرى الإقامة بالعراق ضلالا

غنى ابن عـائشـة ، وهـو مـحـمـد بن يحيى أربعة أبيا ت منها ، فيـهـا هذا البيت وبعده :

وطربـت إذْ ذكر المدينة ذاكر

يوم الخميس فهاج لي بلبـالا

فظللت أنظر في السماء كأنني

أبغي بناحية السماء هـــلالا

طربا إلى أهل الحجاز ، وتارة

أبكي بدمع مسبل إســـبالا

ومما أنشده المغنون ، الأبيات الأربعة التالية ، غناها مغن اسمه (نبيه) وهي :

حَيِّ المنازل قد بلينــا

أقوين عن مرّ السنينـا

وسل الديار لعلهـــا

تخبرك عن أم البنيـنـا

بانت وكل قرينة
يوما مفارقة قرينا
وأخو الحياة من الحيا
ة معالج غلظا ولينا

والقصيدة بتمامها مذكورة في مجموعة شعره .

كما يذكر صاحب الأغاني أن قصيدته التي يقول في مطلعها :

نادي الأحبةُ باحتمال
إن المقيم إلى زوال

وهي المذكورة بتمامها في مجموعة شعره ، كانت من بين الأصوات المغناة، وإن لم يذكر اسم صاحب الصوت لحنا أو أداء .

وذكر الأصفهاني أن بيتيه المشهورين:

وأبكي فلا ليلي بكت من صبابة
إليّ ، ولا ليلي لذي الود تبذل
وأخنع بالعتبى إذا كنت مذنبا
وإن أذنبت كنت الذي أتنصل

فيها صنعة غنائية لخزرج ، ويقال : هاشم بن سليمان [1].

وفي الأغاني (١٥/٣٤-٣٥) ، في ترجمة بصبص جارية ابن النفيس وكانت جارية حسناء تتقن الغناء ، أن محمد بن عيسى الجعفري ، كان يهواها ثم هجرها لأمر بلغه ، ثم زارها فقال لها أتغنين :

وكنت أحبكم فسلَوْتُ عنكم
عليكم في دياركمُ السلام

فقالت : نعم وأغنى :

تحمل أهلها عنها فبانوا
على آثار من ذهب العفاءُ

فازداد بها شغفا وكلفا ، وظل يديم النظر إليها ثم قال : أتغنين ؟

وأَخْنَعُ بالعتبى إذا كنت ظالما
وإن ظلمت كنت الذي أتنصل

قالت : نعم . وأغني :

فإن تقبلوا نقبل عليكم بودنا
وننزلكم منا برحب المنازل

فتقاطعا في بيتين ، وتواصلا في بيتين ، ولم يفطن لذلك من القوم إلا راوي الخبر وهو عبد الله بن مصعب [2].

---

(١) الأغاني ، ترجمة ابن المولى .
(٢) تنظر القصة أيضا في أخبار الموفقيات ، ط بغداد ٣٤ ، ونهاية الأرب للنويري ، ٧١/٥ وعيون الأخبار ٨٧/٤ .

رأي النقاد

أثني عليه الأصفهاني ، حينما ترجم له ، فقال : شاعر مجيد . ويقول عن بعض قصائده ، إنها نالت استحسانا .. كما يصف بعض قصائده بالجودة ، وتعددت الأبيات التي سرت على حناجر المغنين .. ومنها صوت من المئة المختارة .. وهذا يجعل اسمه أكثر شهرة وأبعد صيتا .

ونجد الأصمعي يقول للجاحظ : يا أبا عثمان ، ابن المولى من المحسنين المداحين ، ولقد أسهرني في ليلتي هذه حين مديحه يزيد بن حاتم حيث يقول :

وإذا تباع كريمة ...

فهو يصفه بالإحسان[1].

ليلاه .. قوسه

بالرغم من أن المديح هو اللون الغالب على شعر ابن المولى الذي وصل إلينا .. نجد في هذا الشعر شيئا من الغزل .. وترددا لاسم (ليلى) الذي كثيرا ما يرمز به الشعراء إلى الحبيبة .. ولكن الشاعر نفسه ينفي نفيا قاطعا يؤكده بالحلف .. حتي بالطلاق ، أنه لا يعني بليلي إلاّ قوسه التي كان يتنكبها .. وأنه ما كان له أن يشبب بحرمات المسلمين . ونجد عند صاحب الأغاني أكثر من قصة لهذه القوس التي اتخذ منها الشاعر محورا لغزله ..

وقد مر ، ويمر ، من أخباره وأشعاره أكثر من قصة تؤكد قصة هذا الرمز .. وان كان في اختلاف الروايات ما يدعو إلى الشك في حقيقة الملابسة ، إلا أن هذا الاختلاف نفسه ، لا ينفي اتخاذ الشاعر لهذا الرمز مطية للتغزل الذي يرى أن الشعر لا يستملح إلاّ به ، ليقدمه بين يدي مديحه ، على طريقة شعراء الجاهلية الذين جعلوا من أحاديث الغزل والأطلال جسرا يصلون عن طريقه إلى مختلف مقاصدهم الأخرى ، إلا أن أولئك قد نجد في غزلياتهم صدق التجارب الوجدانية ..

فقد رأينا أصدقاءه ، حينما يسمعونه يقول :

وأبكي فلا ليلى بكت من صبابة

إليَّ ولا ليلي لذي الود تبذل

(١) ابن عساكر (٢٥٨/١٨) من مخطوطة تاريخ دمشق .

وأخنع بالعتبى إذا كنت مذنبـــا

وإن أذنبت كنتُ الذي أتنصــــل

يغلب على ظنهم أن وراء هذه الشكوى هوى مبرحا .. يدعو الشاعر إلى الاعتراف بالذنب .. إن وقع منه تقصير في حق الحبيبة . أما إذا كان هذا التقصير من الحبيبة ذاتها ، فإنه يبادر بالاعتذار والتنصل .. كأنما هو المذنب لا هي .

ولكن ابن المولى (يتنصل) أيضا من تهمة الهوى ، ويؤكد حالفا أنها قوسه لئلا يجشم أصدقاءه مشقة السعي في الصلح . بل نجد في أخباره أن شخصية كبيرة جدا تعرض وساطتها هي شخصية الخليفة نفسه ، عبد الملك بن مروان ، في سياق آخر للرواية ، لعله السياق الأول .. وكان الشاعر فتى في مطلع شبابه .. فان عبد الملك إنما توفي سنة ٨٦هـ بينما امتد العمر بابن المولى إلى خلافة المهدي العباسي فقد سأله عن ليلي التي بكى من أجلها . كما في البيتين السالفين ، وحرّى بالخليفة أن يقول ويفعل .. فإن كانت حرة زوجناكها .. وإن كانت أمة ابتعناها لك بما بلغت !.. فيؤكد الشاعر له قائلا : كلا يا أمير المؤمنين .. والله ماكنت لأذكر حرمة حر أبدا ولا أمته ! والله ما ليلي إلا قوسي هذه سميتها ليلي لأشبب بها ، وإن الشاعر لا يستطاب إذا لم يتشبب .

ويبدو أنه لم يخلص ابن المولى من جرائر قوسه .. فهذا أمير المدينة الحسن ابن زيد ، وربما لأمر في نفسه ، من موقف ابن المولى من التعريض بالطالبيين ، يستدعيه ويعنفه .. لماذا؟ لأنه يشبب بحرمات المسلمين ، وينشد ذلك في الحرم النبوي ، وفي الأسواق والمحافل ، علانية .. مما اضطر الشاعر إلى أن يحلف بالطلاق .. إن هي إلا قوسه .

ومن العجيب أن يفعل ذلك الحسن بن زيد ، في زمن تكثر فيه ليلي ولبنى ، وعزة ، وبثينة ، وميّ .. إلى آخر سلسلة عرائس الشعر .. كما كثر المجانين الذين ملأ أسماع الناس على عهدهم وعلى غيرهم أخبار تغزلهم وتشبيبهم .. !

وقد سلف أن أشرت إلى جانب من ترداد اسم ليلي في أشعاره .

على أن دفاع الشاعر عن نفسه ، مهما تعددت صور هذا الدفاع أو رواياته .. لا يجعلنا نتهمه بالجفاف العاطفي ونحن نلمس ومضات وجدانية تحمل نبض الصدق ، حتى لو جاء ذلك في موقف رثائي حزين ، مثل قوله : وأراه فيه يرثي زوجته ، وإن لم يرد في ذلك خبر صريح :

وسل الديار لعلها
تخبرك عن أُم البنينا
بانت وكل قرينة
يوما مفارقة قرينا

والشاهد في الأمر قوله :

وترى الموكل بالغوا
ني راكبا أبدا فتونا
ومن البلية أن تدان
بما كرهت وأن تَدينا

فإن في قوله : إن الموكل بالغواني راكبا أبدا فتونا ، ما لعله ينم عن تجربة حقيقية .

وربما كان فيما فقدنا من أشعاره ما يعين على تكوين صورة أوضح لعواطفه .. ويكفي هذا البيت الشارد الذي أورده (ياقوت الحموي) في معجم البلدان ، مادة (روضة) ، دليلا على ما ذهبت إليه :

هل تذكرين بجنب الروض من مرخ
ياأملح الناس - وعدا شفني كمدا؟[1]

وهو أيضا القائل :

وما يستوي الصابي ومن ترك الصبا
وإن الصبا لَلعيش لولا العواقبُ

أتكون هذه الومضات من شعر الشباب ، وأنه بعد ذلك (ترك الصبا) ؟ ربما .

صاحب شواهد

مما يدل على علو كعب ابن المولى في اللغة ، أن المشتغلين باللغة والنحو كانوا يستشهدون بشعره ، ويثقون بسلامة نطقه واختياره .

فالزمخشري (ت٥٣٨هـ) يستشهد في مادة (قلب) من قاموسه المعروف (أساس البلاغة) ، بقوله :

ياليت ناقتي التي أكريتها
قُلبت وأورثها النُّحاز سعالا

---

(١) روضة مرخ كما قال ياقوت بالمدينة .

والقلاب : مرض القلب .

وورد في (خزانة الأدب) للبغدادي (ت١٠٩٣هـ) ، في سياق الاستشهاد باستنطاق الديار بعد نزوح أهلها ، ثم الرجوع إلى الحقيقة بعد المجاز ، اعترافا بأن الديار لن تجيب على تساؤلات الشعراء .. قوله :

«ومثله ما أنشده أبو الفرج الأصفهاني (في الأغاني) لمحمد بن عبد الله بن مسلم بن المولي ، مولي الأنصار، من مخضرمي الدولتين ، يمدح المهدي :

سلا دار ليلي هل تبين فتنطق

وأني ترد القول بيداء سملق

وأني ترد القول دار كأنها

لطول بلاها والتقادم مُهرق» [1].

وابن عقيل (ت٧٦٩هـ) شارح ألفية ابن مالك المشهورة يستشهد بابن المولى في استعمال (سوى) مرفوعة في قوله :

وإذا تباع كريمة أو تشترى

فسواك بائعها وأنت المشترى

وهذا البيت من أبياته الرائية الجميلة في مجموعة أشعاره الملحقة بهذا الحديث .

وقد دعا ذلك بعض المعلقين والشراح إلى ذكر شيء عن الشاعر ، ومناسبة الأبيات ، وأورد بعضهم شيئا من الأبيات كما فعل العيني (ت٨٥٥هـ) في شرح الشواهد الكبرى .

ويستشهد به (ياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ) في مادة (روضة مرخ) ، فينتهي إلينا بيت جميل من شعر ابن المولى ، ينم عن رقيق غزله ، وهو قوله :

هل تذكرين بجنب الروض من مَرخ

-ياأملح الناس- وعدا شفّني كمدا؟[2]

اين ديوانه .. ؟

لقد كان ابن المولى- في عصره ، وفي عصور تالية - شاعرا مشهورا ، وتدل قصته مع أبي عمرو الشيباني ، على جسر بغداد ، على أنه كان ذائع الصيت ، أما والأمر كذلك ، فلابد أن يكون له ديوان مجموع ، يتداوله المعنيون بالأدب والشعر بصفة عامة . والمعجبون بشعره بصفة خاصة . ومن المؤكد أن ديوانه كان بين يدي أبي الفرج الأصفهاني ، عندما أورد أخباره في

(١) خزانة الأدب ٥٢٨/٨ طبعة الخانجي ١٤٠٠ هـ .

(٢) مرخ المقصود هنا ، هو واد خضر نضر بين المدينة وفدَك .

موسوعته (الأغاني) وسرد جانبا من شعره ، وقارن بينه وبين شعر الأعشي ، ليحقق ويدقق كما مر بنا في أخباره[1].

كما نجد صاحب (الفهرست) ينقل عن ابن الجَرّاح في (الوَرقة) أن له شعرا مجموعا في نحو ثلاثين ورقة[2]، وإن كنا لا نجد ذكرا لابن المولى فيما بين أيدينا من كتاب (الورقة) ، كما نشره محققاه عبد الوهاب عزام ، وعبد الستار أحمد فراج . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه النشرة منه بها نقص ، لم يفت المحققين الإشارة إليه في مقدمة التحقيق[3].

ولكن هذا الديوان على ما يبدو ، قد ضاع فيما ضاع من تراثنا الضخم ، أو هو على الأقل مجهول المصير حتى الآن.

فنحن نجد باحثا مستقصيا هو البروفيسور فؤاد سيزكين ، عندما تكلم عن ابن المولى في كتابه (تاريخ التراث العربي) ، لم يشر إلى وجود ديوانه فيما يتوفر لديه من فهارس المخطوطات .

واكتفي بأن أحصي ما وجد من شعره في كتاب (الأغاني) فكان إحصاؤه (١٤٠) بيتا ، وقد تأكدت من صحة ذلك.

وفيما أعلم .. فإنه لم يتصدّ لجمع شعر هذا الشاعر أحد ، مما حدا بي إلى أن أضطلع بهذه المهمة إلى الحد الذي استطعته ، وقد توفر لي من ذلك ما قدمته في نهاية هذا الحديث ، مما يلغ مجموع أبياته (١٧٤) بيتا .

وإذا قارنته بما ذكره صاحب الفهرست ، من أن مجموع شعره يقع في نحو ثلاثين ورقة ، وإذا افترضت أن ذلك من قطع الفولسكاب من الورق مثلا، فمن المؤكد أن ما توصلت إليه دون ذلك المقدار ، وبهذا يظل الجانب الأكبر من ديوانه مفقودا أو هو حتى الآن في حكم المفقود .

الهمزة

ألا بأبينا جعفر، وبأمنا
نقول إذا الهيجاء سار لواؤُها

---

(١) تراجع ص ١٠٨ من هذا الحديث .
(٢) ١٨٤ من تحقيق رضا تجدد .
(٣) ص ١٠ من كتاب الورقة .

ولا عيب فيه غير ما خوف قومه
على نفسه ألا يطول بقاؤها(١)

الباء

١ - قال من قصيدة يمدح فيها الخليفة المهدي العباسي:

١ - وما قارع الأعداء مثل محمد
إذا الحرب أبدت عن حجول الكواعب

٢ - فتى ماجد الأعراق من آل هاشم
تبحبح منها في الذري والذوائب

٣ - أشم من الرهط الذين كأنهم
لدى حندس الظلماء زهر الكواكب

٤ - إذا ذكرت يوما مناقب هاشم
فإنكمُ منها بخير المناصب

٥ - ومن عِيب في أخلاقه ونصابه
فما في بني العايس عيب لعائب

٦ - وإن أمير المؤمنين ورهطه
لأهل المعالي من لؤي بن غالب

٧ - أولئك أوتاد البلاد ووارثو
النبي بأمر الحق ، غير التكاذب

ثم ذكر فيها آل طالب فقال :

٨ - وما نقموا إلا المودة منهمُ
وإن غادروا فيهم جزيل المواهب

٩ - وأنّهم نالوا لهم بدمائهم
شفاء نفوس من قتيل وهارب

١٠ - وقاموا لهم دون العدا وكفوهمُ
بسمر القنا والمرهفات القواضب

١١ - وحاموا على أحسابهم وكرائم
حسان الوجوه ، واضحات الترائب

١٢ - وإن أمير المؤمنين لعائد
بأنعامه فيهم على كل تائب

١٣ - إذا ما دَنَوْا أدناهُم وإذاهَفَوْا
تجاوز عنهم ناظرا في العواقب

١٤- شفيق على الأقصَيْن أن يركبوا الردى
فكيف به فى واشجات الأقارب ؟

---

(١) المصدر : حماسة أبي تمام : الحماسية رقم ٥٩٥ . وفيه : قال ابن المولى ، وتروي لرجل من بني الحارث .
تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح .
وربما كان المقصود جعفر بن سليمان .
() البيتان لابن المولي في الأشباه والنظائر للخالديين : ٢/٣٠٧ .
١ - حجول : خلا خيل .
٢ - تبحبح : تمكن .
٣ - حندس : شدة الظلام .
٥ - مصاب : أصل .
٨ - تركوا لديهم جزيل الهبات .
١٠ - القواضب : القواطع .
(١٤) واشجات : روابط .
المصدر : () الأغاني ٣/٢٩٢ - ٢٩٣ .
() الوافي بالوفيات ١٧/٦١٢.

٢ - وقال يمدح يزيد بن حاتم المهلبي

١ - ألا يا لقومي هل لما فات مطلبُ
وهل يُعْذرنْ ذو صبوة وهو أشيب

٢ - يحنّ إلى ليلي ، وقد شطت النوى
بليلي ، كما حن اليراع المثقب

٣ - تقربت ليلي ، كي تثيب فزادني
بعادا على بعد إليها التقرب

٤ - فداويت وجدي باجتناب فلم يكن
دواء لما ألقاه منها التجنب

٥ - فلا أنا عند النأى سال لحبها
ولا أنا منها مشتفٍ حيث تصقّب

٦ - وما كنت بالراضي بما غيره الرضا
ولكنني أنوي العزاء فأُغلبُ

٧ - وليل خداري الرواق جشمتُه
إذا هابه السارون لا أتهيب

٨ - لأظفر يوما من يزيد بن حاتم
بحبل جوار ، ذاك ما كنت أطلب

٩ - بلوت ، وقلبت الرجال كمابلا
بكفيه أوساطَ القداح مقلب

١٠ - وصعّدني همي ، وصوّب مرة
وذو السهم يوما مصعد ومصوّب

١١ - لأعرف ما آتي ، فلم أر مثله
من الناس ، فيما حاز شرق ومغرب

١٢ - أكرَّ على جيش ، وأعظم هيبةً
وأوهبَ في جود ، لما ليس يوهب

١٣ - تصدى رجال في المعالي ليلحقوا
مداك وما أدركتَه .. فتذبذبوا

١٤ - ورمت الذي راموا فأذللتَ صعبَه
وراموا الذي أذللتَ منه فأصعبوا

١٥ - ومهما تناول من منال سنية
يساعدك فيها المنتمي والمركب

١٦ - ومنصب آباء كرام فما هُمُ
إلى المجد آباء كرام ومنصِب

١٧ - كواكب دجن كلما انقض كوكب
بدا منهمُ بدر منير وكوكب

١٨ - أنار به آل المهلب بعدما
هوى مَنكب منهم بليل ومنكب

١٩ - ومازال إلحاح الزمان عليهمُ
بنائبةٍ كادت لها الأرض تخرب

٢٠ - فلو أبقت الأيام حيا نفاسة
لأبقاهمُ للجود ناب ومخلب

٢١ - وكنت ليومي نعمة ونكاية
كما فيها للناس كان المهلّب

٢٢ - ألا حبذا الأحياء منكم وحبذا
قبور بها موتاكم حين غُيبوا

المصدر : الأغاني ٣/٢٩٥ - ٢٩٧ .
(٢) شطت : بعدت . اليراع المثقب : المزمار .
(٥) تصقب : تقرب : تجاور .
(٧) الخداري : المظلم .
(٩) القدح : السهم قبل أن يراش وينصل .
(١٠) صعدني همي : أي صعب علي أمري ، وصوب : أصاب ، زي كانت أموري تسهل مرة وتصعب مرة . وهكذا حال الزمان .
(١٣) قصد تصدى رجال للمعالي فاتي بـ (في) محل اللام .
(١٧) دجن : ليل .

٣ – قال يمدح عبد الله بن مصعب :

١ – ولما رأيتُ الناس بين مبلّد
حرون ، وصعب ظهره شر مركب

٢ – أخذت بحبل من حبال ابن مصعب
قريع قريش ، والهجان المهذب

٣ – وإن امرأ بين الزبير إذا انتمى
وبين أبي بكر لمحض المركب

٤ – فللتُ به ناب الزمان وقد عدا
عليَّ بناب ذي َشباة ومخلب

٥ – إليه تخطيت المشاربَ كلها
إلى مشرب من ورده خير مشرب

٦ – فأترع دلوي من هناك وها هنا
ببسطة بسام متى يُعْطِ يُرغبِ

٧ – وقد علمت عُليا لؤي بن غالب
إذا ما لُقُوا بالصدق لا بالتكذب

٨ – بأن أبا بكر فتاها وأنه
أخوها الذي ما يركب الليث يركب

٩ – تحملها بالحلم عطفا عليهمُ
وَأَلْفَوْهُ ذا شغب على كلِّ مِشغَب

١٠ – وأن اقتباس العلم منه ، وإنه
إذا كان منه الرأي لم يتُعَقّب

١١ – فإن يجهلوا يحلم ببرٍّ ورأفة
وإن يك صَدْع في العشيرة يَشْعَب

٤ – وله :

وبالناس عاش الناس قدما ولم يزل
من الناس مرغوب إليه وراغب

ومايستوي الصابي ومن ترك الصبا
وإن الصبا لَلْعيشُ لولا العواقب(×)

٥ –

يذكرني مقامي في ذراكم
مقامي أمس في ظل الشباب(××)

٦ –

سررت بجعفر والقرب منه
كما سُرَّ المسافر بالإياب

وكنت بقربه إذ حلّ أرضي
أميرا بالسكينة والصواب

كممطور ببلدته فاضحى
غنيا عن مطالبة السحاب(×××)

المصدر : جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار ، ت محمود شاكر ، ص ١٣٣ .

(٤) ذي شباة : ذي حد .

(٩) الشغب : تهيج الشر والفتنة والخصام . والمشغب : هو ذو الشغب ، الجائر في خصومته ، العائد عن الحق.

(×) المصدر : () معجم الأدباء للمرزباني ٤١١ ، طبعة القدسي .

(××) المصدر : (مجموعة المعاني) لمؤلف مجهول . تحقيق عبد المعين الملوحي ، ط ١٩٨٨ م ص ٢٤٤ . وذكر المحقق في الهامش أن البيت متنازع فهو في التمثيل والمحاضرة ٢٣٩ لأبي عُيينه ، وفي زهر الآداب ١٩٢/٣ لابن المولى .

قلت : والبيت ليس فيهما ، أما التمثيل والمحاضرة ففيه أبيات أخرى لأبي عُيينه . وأما زهر الآداب ففيه البيتان الآتي ذكرهما في البائية التالية .

(×××) المصدر : عيون الأخبار ١٤١/١ بدون نسبة .
بهجة المجالس ٣٢٨/١ بدون نسبة .
زهر الآداب ١٩٢/٣ لابن المولى .

الدال

١ – قال يمدح الحسن بن زيد :

١ – سألت فأعطاني ، وأعطى ولم أسَلْ
وجاد كما جادت غواد رواعدُ

٢ – فأقسم لا أنفك أُنشد مدحه
إذا جمعتني في الحَجيج المشاهد

٣ – إذا قلت يوماً في ثنائي قصيدة
ثنيتُ بأخرى حيث تُجزى القصائد

٢ – قال يمدح الخليفة المهدي العباسي :

١ – يا ليلَ لا تبخلي ياليل بالزاد
واشفي بذلك داء الحائم الصادي

٢ – وأنجزي عدة كانت لنا أملا
قد جاء ميعادها من بعد ميعاد

٣ – ما ضرَّه غير أن أبدي مودته
إن المحب هواه ظاهر بادي

ثم قال فيها

٤ – تطوي البلاد إلى جم منافعهُ
فعَّال خير لفعل خير عوَّاد

٥ – للمهتدين إليه من منافعه
خير يروح وخير باكر غادي

٦ – أغني قريشا ، وأنصار النبي ومَنْ
بالمسجدين ، بإسعاد وإحفاد

٧ – كانت منافعه في الأرض شائعة
تترى ، وسيرته كالماء للصادي

٨ – خليفة الله ، عبد الله ، والده
وأمه حرة ، تنمي لأمجاد

٩ – من خير ذي يمن في خير رابية
من القبول إليها مَعْقِل النادي

٣ –

هل تذكرين بجنب الروض من مَرَخ
– يا أملح الناس – وعدا شفَّني كمدا[١٠] ؟

---

(١) الغوادي : السحب .
المصدر : () الأغاني ٣/٢٩٥ .
() الوافي بالوفيات ١٧/٦١٤ .
(٦) الإحفاد : الاسراع .
(٩) مَعْقِل : ملجأ .
المصدر : الأغاني ٣/٢٩٩ .
(١٠) شفَّهُ الحزن والحب : لذع قلبه ، وقيل : أنحله ، وقيل أذهب عقله . وشف كبده : أحرقها . وشفه الحزن : أظهر ما عنده من الجزع . وشفه الهم : أي هزله وأضمره حتى رقّ .
المصدر : () ياقوت الحموي في معجم البلدان : مادة روضة مرخ . وقال : مرخ بالتحريك وآخره خاء معجمة ، بالمدينة .
() والمغانم المطابة : ١٦٥ .
المصدر : () الأغاني ٣/٢٨٩ .
() ومعجم الأدباء للمرزباني ٤١١ طبعة القدسي . وفيه : (مادار) بدلا من (ماكان) في الشطر الثاني من البيت الثاني .
() والوافي بالوفيات ٣/٢٩٧.
() ووفيات الأعيان ٦/٣٢٦ مثل رواية الأغاني .
() الحماسة البصرية ١/١٨٣ .
() المستجاد من فعلات الأجواد ، للتنوخي ، ت . محمد كرد علي ، طبعة ١٩٧٠ م ، ص ٢٢٢ .
() خزانة الأدب : ٦/٢٩٤ .

الســـراء

١ – قال يمدح يزيد بن حاتم من قصيدة :

– يا واحد العرب الذي

أضحى وليس له نظيرُ

لو كان مثلك آخر

ماكان في الدنيا فقيرُ

٢ – وقال من قصيدة يمدح فيها يزيد بن حاتم[×] :

١ – يا واحد العرب الذي دانت له

قحطانُ قاطبة وساد نزارا

٢ – أني لأرجو إن لقيتك سالما

ألاّ أعالجَ بعدك الأسفارا

٣ – رشتَ الندى ، ولقد تكسر ريشهُ

فعلا الندى فوق البلاد وطارا

٣ – قال يمدح جعفر بن سليمان[××] :

١ – كم صارخ يدعو وذي فاقة

يا جعفرَ الخيرات يا جعفرُ

٢ – أنت الذي أحييت بذل الندى

وكان قد مات .. فلا يذكر

٣ – سليلُ عباس ، وليّ الهدى

ومن به فى المحل يستمطر

٤ – هذا امتداحيك عقيدَ الندى

أشهدَ بالمجد لك الأشقر

٤ – قال في يزيد بن حاتم[×××] :

١ – وإذا تباع كريمة أو تشترى

فسواك بائعها ، وأنت المشتري

٢ – وإذا تخيل من سحابك لامع

سبقت مخائلهُ يد المستمطرُ

٣ – وإذا صنعت صنيعة أتممتها

بيدين ، ليس نداهما بمكدر

٤ – و إذا الفوارس عُدِّدَتْ أبطالها

عَدُّوك في أبطالهم بالخنصر

٥ – وإذا توعرت المسالك لم يكن

منها السبيل إلى نداك بأوعر

٦ – وإذا هممت لمعتفيك بنائل

قال الندى فأطعته لك : أَكْثِرِ

(×) رشت : أي جعلت له ريشا .
المصدر : () الأغاني ٣/٢٩٠ .
() الوافي بالوفيات ١٧/٦١١ .
(××) عقيد : حليف .
المصدر : الأغاني ٣/٣٠٢ .
(×××) كريمة : أراد بها فعلة كريمة ، أي حسنة .
(٢) تخيل : يقال : تخيلت السماء : تهيأت للمطر فرعدت وبرقت .
والمخائل : جمع مخيلة – بفتح الميم – وهي السحابة .
(٦) لمعتفيك :أي لسائليك ، من الاعتفاء بالعين المهملة والفاء .

٧ - يا أوحد العرب الذي ما إن لهم
من مذهب عنه ، ولا من مَقصر

٥ -

١ - يلقي السيوف بوجهه وبنحره
ويقيم هامته مقام المِغفر

٢- ما إن يريد إذا الرماح شجرنه
ودعا سوى سربال طيب العنصر

٣- ويقول للطِّرف اصطبر لشَبا القنا
فَعَقَرْتُ ركن المجدإن لم تُعقر

٤ - وإذا تأمل شخص ضيف مقبل
متسربل أثواب مَحْلٍ أغبر

٥ - أومى إلى الكوماء هذا طارق
نَحرتْني الأعداء إن لم تنحر

---

(٧) يقال ما رضيت من فلان بمقصر ، ومقصِر ، أي بأمر من دون ، أي بأمر يسير ، و«من» زائدة ..

المصدر : () معجم الشعراء للمرزباني ٤١١ ، طبعة القدسي ، الأبيات الثلاثة الأولى ..

() وفيات الأعيان ٣٢٥/٦ وفيه زيادة البيت الرابع .

() حماسة أبي تمام ، الحماسية رقم ٨٠٢ ، أورد خمسة أبيات وترتيبها لديه ١ ، ٥ ، ٣ ، ٦ ، ٧ / تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح .

() التذكرة السعدية للعبيدي ، ت د. عبد الله الجبوري ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨١ ، ص ١٤١ ، القطعة رقم ١٩١ ورد بها بالترتيب ٢ ، ٣ ، ٤ .

() الحماسة البصرية ١٨٤/١ فيها ١ ، ٢ ، ٣ .

() الحيوان للجاحظ . ت عبد السلام هارون ،طبعة مصطفى محمد ، ١٣٦٣هـ ، ٥٠٩/٦ أورد ٣ و ١ غير معزوين ، ولكن المحقق عزاهما لابن المولى .

() البرصان والعرجان للجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون ص ٥٨٠ ، أورد ٣ ، ١ بدون عزو ، وعزاهما المحقق أيضاً لابن المولى .

() الأغاني : ١٠ / ١٣٨ ، أورد البيتين ١ و ٣ بدون عزو .

() شرح المضنون به على غير أهله : ١٤٧ ، البيتان ١ و٥ .

() العيني : ١٢٥/٣ ، أورد خمسة أبيات ، وترتيبها عنده ١ ، ٥ ، ٣ ، ٦، ٧ .

() زهر الآداب : ١٠٧٨/٢ تحقيق البجاوي وفيه أيضا الأبيات ١ ، ٥، ٣، ٦ ، ٧ . وفيه : قال ابن المبارك يمدح يزيد بن حاتم قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة . وذكر محققه أن في نسخة أخرى : قال المولي .

(٢) شجرنه : شجر : طعن بالرمح ، وشجره بالرمح طعنه . وفي حديث الشراه فشجرناهم بالرماح : أي طعناهم بها حتى اشتبكت فيهم .

(٣) الطرف - بكسر الطاء المهملة - كريم الخيل .
شبا : شباة كل شيء حد طرفه ، وقيل حده ، وحدّ كل شيء شباته ، والجمع شبوات ، وشباً .

المصدر :

الحماسة البصرية : لعلي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ، ت ٦٥٩ تحقيق مختار الدين أحمد (جامعة عليكرة) مصورة عالم الكتب ، بيروت ج٢٠/١ ، الحماسية رقم ٤٩ وهي معزوة إلى عبد الملك بن معاوية الحارثي (أموي) ، وقال : رواها البعض لحجين بن حجر الغساني ، وقد ذكر المحقق في الهامش أن الأربعة في القالي ٤٥/١ لابن المولى ، وسرد مراجع أخرى لم تُعيِّن الشاعر .

أقول : وهي من روح قصيدته في مدح يزيد بن حاتم : وإذا تباع ومن وزنها وقافيتها . والأربعة التي في القالي ١ و٣ و٤ و٥ في ص٤٣ بدون نسبة .

٦ -
ولا تطلبنْ عزا بذل عشيرة
فإن الذليل من تذل عشائره(*)

القــاف

قال يمدح الخليفة المهدي :

١ - سلا دار ليلي هل تبين فتنطق
وأنّي ترد القول بيداء سَمْلَق(**)

وقال البكري في (سمط اللآلي) ١٨٢/١ : «هذا الشعر ينسب إلى ابن المولى (محمد بن عبد الله بن مسلم مولى) بنى عمرو بن عوف ، من شعراء الدولتين ، ويوصل به بيت خامس وهو :

وإذا الفوارس عددت أبطالهـــا   عدوه في أبطالهم بالخنصـــر

وهذا البيت مثبت في القطعة التي أولها : وإذا تباع ...

وقد علق محقق (سمط اللآلي ٢٧٨/١) الأستاذ الميمني يرحمه الله ، بتعداد مصادر أوردت بعض هذا الشعر ، إما بغير عزو ، وإما معزوا لغير ابن المولى حتى قال : قال النويري ٢٠٣/٣ إن الشعر يروي لحسان . أقول (أي الميمني) وهو وهمٌ ، ومطلعه :

أنسيم ريحك أم خيار العنبـــــر   يا هذه أم ريح مسك أذفـــــر
قولي لطيفك أن يصدّ عن الحشــا   سطوات نيران الأسى ثم اهجري
وانهي رماتك أن يصبن (؟) مقاتلـي   فتنال قومَك سطوةٌ من معشـــري
إنا من النفــر الذيــن جيادهـــم   طلعت على كسرى بريح صرصــر
وسلبن تاجيْ ملك قيصـر بالقنـــا   واجتزن باب الدرب لابن الأصفـر
كم قد ولدنـا مـــن كريم ماجـــد   دامي الأظافـر أو ربيـــع ممطـــر
خلقـت أناملـــه لقائـــم مرهـــف   ولبــذل مكرمـــة ، وذروة منـــبر

ثم أربعة القالي .

«وأنا أجزم (القائل هو الميمني) بأنها ليست لابن المولى ولا للاعرابي ولا لحسان ولا للعلوي» . أ هـ .

أقول : ولم يذكر الميمنى أسباب الجزم ، أو النفي ، كما لم يذكر (صراحة) مصدره في إيراد هذه الأبيات (وهو نهاية الأرب للنويري :٢٠٣/٣) .. ويبدو أن نفيه منصب على غير أربعة القالي . وإذا كان نفيه عن ابن المولى منصبا على ما أورده هو فحسب ، فلا تبدو الأبيات حقا من شعره ، وإن اختلطت بأبياته .

() وفي مجموعة المعاني (لمؤلف مجهول) تحقيق عبد المعين الملوحي طبعة ١٩٨٨م ، ص ٩٢ ورد البيتان ٤و٥ معزوين للعلوي صاحب الزنج . فينظر هامش المحقق . وفيه ص ١٠٢ ورد ١و٣ للعلوي أيضا . وينظر الهامش أيضًا .

المصدر :

البيت منسوب لابن المولي في مجموعة المعاني (لمؤلف مجهول) تحقيق (عبد المعين الملوحي) ، ط ١٩٨٨ م ، ص ٩٢ ورد البيتان ٤ ، ٥ معزوين للعلوى صاحب الزنج . فينظر هامش المحقق ، وفيه ص ١٠٢ ورد ١ و ٢ للعلوى أيضًا ، وينظر الهامش أيضًا .

(*) المصدر: البيت منسوب لابن المولى فى مجموعة المعانى (لمؤلف مجهول) تحقيق عبدالمعين الملوحى ط ١٩٨٨ ص ١٦٣ ، ودل في الهامش على حماسة البحتري ١١٧ ، وهى فيه منسوبة لابن المولى القرشى ، وابن المولى صاحبنا ليس قرشيًا بل هو مدني ، مولي لبني عمرو بن عوف من الأنصار .
سملق : أي قفر لا نبات بها .

(**) عجز هذا البيت يشبه عجز بيت (مطلع قصيدة) لجميل ، انظر ديوانه ص ١٤٥.

٢ – وأني ترد القول دار كأنها
لطول بلاها ، والتقادم ، مُهرَق(*)

٣ – عفتها الرياح الرامسات مع البلي
بأذيالها ، والرائح المتبعّق(*)

٤ – بكل شآبيب من الماء خلفها
شآبيب ماء مزنها متألق

٥ – إذا ريّق منها هريقت سجاله
أعيد لها كرفئ ماء وريّق

٦ – فأصبح يرميّ بالرباب كأنما
بأرجله منه نعام معلّــق

٧ – فلا تبك أطلال الديار فإنها
خيال لمن لا يدفع الشوقَ عولق

٨ – وإن سفاها أن تُرى متفجعا
بأطلال دار ، أو يقودك مَعلق

٩ – فلا تجزعن للبين ، كل جماعة
– وجدِّك– مكتوب عليها التفوق

١٠ – وخذْ بالتعرّي ، كل ما أنت لابس
جديدا على الأيام بال ومُخلِق

١١ – فصبر الفتى عما تولى وفاته(*)
من الأمر أولى بالسداد وأرفق

١٢– فإنك بالإشفاق لا تدفع الردى
ولا الحَين مجلوب ، فمالك تشفق ؟

١٣ – كأن لم يرعك الدهر أو أنت آمن
لأحداثه فيما يغادي ويطرق

١٤ – فقال خليلي ، والبكا لي غالب :
أفاض عليك ذا الأسى والتشوق

١٥ – وقد طال توقافي أكفكف عبرة
على دمنة ، كادت لها النفس تزهق

---

(٢) مهرق : صحراء ملساء ، وإنما قيل للصحراء مهرق تشبيها بالصحيفة .
(*) البيت بعينه في ديوان جميل ص ١٤٦ .
(٣) الرامسات : الرياح الزافيات ، التي تنقل التراب من بلد إلى آخر ، وربما غشّت وجه الأرض كله بتراب أرض أخرى . والروامس : الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار .
بأذيالها : ذيل الرياح ما جرّته على وجه الأرض من التراب والقتام .. **الرائح** : مطر العشيّ . **المتبعّق** : المطر المندفع . قال رؤبة : جود كجود الغيث إذ تبعقا .
(*) انظر ديوان جميل ص ١٤٦ .
(٤) الشآبيب (من المطر) : الدّفعات .
(٥) ريّق كل شيء أفضله وأوله . وقيل : ريق المطر ناحيته وطرفه . ويقال : ريق المطر أو شؤبوبه (أي دفعته) . الكرفئ: سحاب متراكم. وفي الصحاح : الكرفيء السحاب المرتفع الذي بعضه فوق بعض .
(٦) **الرباب** : هو السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب .
(٧) **خيال عولق : العولق** : (الغول) وقيل : الكلبة الحريصة ... وقولهم هذا حديث طويل العولق أي طويل الذنب . وقال كراع : انه لطويل العولق أي الذنب ، فلم يخص به حديثا ولا غيره .
(٨) المعلق : الهوى .
(*) في المطبوعة «فإنه» وهو تصحيف .
(١١) يروي : أدنى للذي هو أوفق .
(١٢) الاشفاق : الخوف . الحين : الهلاك .
(١٣) يغادي : يباكر . يطرق : يأتي ليلا .
(١٥) دمنة الدار : أثرها ، والدمنة : آثار الناس وما سوّدوا .

١٦ – وإنسان عيني في دوائر لجة

من الماء ، يبدو تارة ثم يغرق

١٧ – وللدمع من عيني شريجا صبابة

مرش الرجا ، والجائل المترقرق

١٨ – وكنت أخا عشق ولم يك صاحبي

فيعذرني مما يصب ويعشق

١٩ – وقد يعذر الصب السقيم ذوي الهوى

ويلحي المحبين الصديق فيخرق

٢٠ – وعاب رجال أن علقت وقد بدا

لهم بعض ما أهوى وذو الحلم يعلق

ويقول فيها :

٢١ – إلى القائم المهديِّ أعملتُ ناقتي

بكل فلاة آلُها يترقـــــــــرق

٢٢ – إذا غال منها الركبَ صحراءُ برَّحت

بهم بعدها في السير صحراء دردق

٢٣ – رميت قراها بين يوم وليلة

بفتلاء لم ينكب لها الزور مرفق

٢٤ – مزمرة سقبا كأن زمامها

بجرداء من عُمٍّ الصنوبر معلق

٢٥ – موكلة بالفادحات كأنها

– وقد جعلت منها الثميلة تخلق –

٢٦– بِقِي الملاهيق أمام رئاله

أصم هجف أقرع الرأس نقنق

٢٧ – تراها إذا استعجلتها وكأنها

على الأين يعروها من الروع أولق

---

(١٧) الشريجان : لونان مختلفان من كل شيء . والمرش : يقال : شواء مرش ورشراش خَضِل نَدٍ يقطر ماؤه ، وقيل يقطر دسمه . والرجا: ناحية كل شيء . وخص بعضهم به ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافتيها ، وكل شيء وكل ناحية رجا . والجائل : الزائل عن مكانه .

(١٨) لعله ممن يصب .

(١٩) يلحي : يلوم ويعذل .

(٢٠) علقت : أحببت .

(٢١) **أعملت ناقتي** : حثثتها لتسرع . **الآل** : السراب .

(٢٢) **غال** : يقال : هذه أرض تغتال المشي أي لا يستبين فيها المشي من بعدها وسعتها . برح به : إذا شق عليه . **الدردق** : الصغير من كل شيء .

(٢٣) **قراها** : ظهرها . ناقة فتلاء :ثقيلة . وناقة فتلاء إذا كان في ذراعها فَتَل وبيُوُن عن الجنب . **النكب** : داء يأخذ الإبل في مناكبها فتظلع منه وتمشي منحرفة . يقال : نكب البعير ، ينكب نكبا ، وهو أنكب . ونكب الحجر رجله وظفره ، فهو منكوب ونكيب : أصابه . **الزور**: الصدر . وقيل : وسط الصدر . وقيل : أعلى الصدر . وقيل : ملتقى أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت . وقيل: هو جماعة الصدر من الخُف . **والزور** : عوج الزور .

(٢٤) عُمٍّ : جمع عميمة ، وهي الطويلة . السقب: ولد الناقة ، ولعلها تزمره : تصوت عليه .

(٢٥)**الفادحات** : جمع فادحة ، وهي النازلة . **الثميلة** : لعلها تصغير ثَمَلة وهي الصوفة أو الخرقة التي تغمس في القطران ثم يهنأ بها الجرب ويدهن بها السقاء ..

((٢٦) **القي** : القفر . **الهيق** : الظليم . هو ذكر النعام ، **والرئال**:أفراخه. **الهجف** : الظليم المسن . **النقنق**: الظليم .

(٢٧) **الأين** : الإعياء والتعب. **الأولق** : الجنون .

٢٨ – موركة أرض العُذَيْبِ وقد بدا
– فَسُرَّ به – للأيبين الخورنق

وقد قال أبو الفرج بعد ما أورده من أبياتها إن القصيدة طويلة ، ونسب إسحق (يقصد الموصلي) الشعر المغنّي في المئة المختارة ، وهو البيتان الأولان ، إلى الأعشي ، ولكن أبا الفرج نفى ذلك ، ووجدهما في شعر ابن المولى .

اللام

١ – قال وهو يرمز بليلي لقوسه :

١ – وأبكي فلا ليلى بكت من صبابة
إليَّ ولا ليلي لذي الود تبذلُ

٢ – وأخنعُ بالعُتْبَى إذا كنتُ مذنبا
وإن أذنبتْ كنتُ الذي أتنصل

٢ – قال يمدح المهدي الخليفة العباسي :

١ – نادي الأحبةُ باحتمالِ
إن المقيم إلى زوالِ

٢ – رد القيان عليهمُ
ذللَ المطيِّ من الجمال

٣ – فتحملوا بعقيلة
زهراءَ آنسة الدلال

٤ – كالشمس راق جمالها
بين النساء ، على الجمال

٥ – لما رأيت جمالهم
في الآل ، تغرف باللآلي

٦ – ياليت ذلك بعد أن
أظهرت أنك لا تبالي

٧ – ولمثل ما جربتَ من
إخلافهن لذي الوصال

٨ – أسلاك عن طلب الصبا
واخو الصبا لابد سال

٩ – يا ابن الأطايب للأطا
يب ذا المكارم والمعالي

١٠ – وابن الهداة ، بني الهدا
ة وكاشفي ظلم الضلال

١١ – أصبحت أكرم غالب
عند التفاخر والنضال

١٢ – وإذا تُحصلَ هاشم
يعلو بمجدك كل عالي

١٣– ويكون بيتك منهمُ
في الشاهقات من القلال

---

(٢٨) موركة : مجاوزة . أرض العذيب: موضع بالعراق . والخورنق : قصر بالحيرة .
المصدر: () الأغاني ٣/٢٨٦ – ٢٨٩ . () الأول والثاني في خزانة الأدب ٨/٥٢٨ .
(٢) خنع : خضع . أتنصل : أتبرأ .
المصدر : () الأغاني ٣, ٢٨٩ و ٥/٩٦ و ١٥/٣٥ . () الوافي بالوفيات ٣/٢٩٦ .
() معجم الشعراء ٤١١ طبعة مكتبة القدسي .
() والثاني في (مجموعة المعاني) لمؤلف مجهول ، تحقيق عبد المعين الملوحي ط ١٩٨٨م ، ص ٢٧٤ . ودل المحقق في الهامش على عيون الأخبار ٢/٨٨ . قلت : وهو فيه بدون عزو ، وصوابه : ٤/٨٨ .
() والثاني أيضا في نهاية الأرب : ٥/٧١ بدون عزو . () وكذا في الأخبار الموفقيات ص ٣٥ .
(١٣) قله الشيء : أعلاه .

١٤ – هذا وأنت ثمالهـــا
وابن الثمال ، أخو الثمال
١٥ – ومآلها بأمورهـــــا
إن الأمور إلى مـــــآل

٣ – قال ، وقد قدم العراق ، لبعض أمره فطال مقامه بها ، فضجر وتشوق إلى المدينة:

١ – يدعو النبي بعمه فيجيبُه
يا خير من يدعو النبي جلالا
٢ – ذهب الرجال فلا أحسّ رجالا
وأرى الإقامة بالعراق ضلالا
٣ – وأرى المرجي للعراق وأهله
ظمآن هاجرة يؤمل آلا
٤ – وطربت إذ ذكر المدينة ذاكر
يوم الخميس فهاج لي بلبالا
٥ – فظللت أنظر في السماء كأنني
أبغي بناحية السماء هلالا
٦ – طربا إلى أهل الحجاز وتارة
أبكي بدمع مسبل إسبالا
٧– فيقال : قد أضحى يحدث نفسه
والعين تذرف في الرداء سجالا
٨ – إن الغريب إذا تذكر أوشكت
منه المدامع أن تفيض علالا
٩ – ولقد أقول لصاحبي وكأنه
مما يعالج ضُمِّن الأغلالا:
١٠ – خفض عليك فما يُردْ بك تلقه
لا تكثرن ، وإن جزعت ، مقالا
١١ – قد كنت إذ تدع المدينة كالذي
ترك البحار ، ويمم الأوشالا
١٢ – فأجابني : خاطر بنفسك لا تكن
أبدا تعدّ مع العيال ، عيالا
١٣ – واعلم بأنك لن تنال جسيمة
حتى تجشم نفسك الأهوالا
١٤ – إني ، وجدِّك يوم أترك زاخرا
بحرا ينفل سيبُه الأنفالا

---

(١٤) الثمال : الغياث .
المصدر : () الأغاني ٣ / ٣٠٠ – ٣٠١
(١) هذا البيت جاء استهلالاً للأبيات الواردة في ج٢/٢١٨ من الأغاني ، ، ولكنه قلق في موضعه ، ويبدو أن المطلع هو البيت الثاني ، ولعل مكان البيت الأول هو بعد قوله : وطربت إذ ذكر المدينة ذاكر .
(٤) البلبال : شدة الهم .
(٨) العلال : مرة بعد أخرى .
(١٠) خفض عليك : هوِّن عليك .
(١١) يمم : قصد ، والأوشال : المياه الضحلة القليلة .
(١٤) البحر الزاخر : العميق المتلاطم ، وسيبه : عطاؤه . والأنفال : العطايا .

١٥ – لأضلَّ من جلب القوافي صعبة

حتى أذل متونها إذلالا

٤ –

ياليت ناقتي التي أكريتها(*)

قلبت وأورثها النُّحاز سُعالا(١)

الميم

قال يمدح قثم بن عباس بن عبيد الله بن عباس حينما كان عاملا على اليمامة(**):

عُنقتَ من حلّي ومن رحلتي

يا ناقُ أدنيتني من قُثَمْ

النون

١ – قال يمدح الحسن بن يزيد:

١ – هاج شوقي تفرّق الجيرانِ

واعترتني طوارق الأحزانِ

٢ – وتذكرت ما مضى من زماني

حين صار الزمان شر زمان

يقول فيها

٣ – ولو أنَّ امرءًا ينال خلودا

بمحل ، ومنصب ، ومكان

٤ – أو ببيت ذراه تلق بالنجـ

ـم قرانا في غير برج قران

٥ – أو بمجد الحياة أو بسماح

أو بحلم أوفى على ثهلان

٦ – أو بفضل لناله حسن الخير

بفضل الرسول ذي البرهان

٧ – فضله واضح برهط أبي القا

سم رهط اليقين والإيمان

---

(١٥) متونها : ظهورها ، كناية عن تمكنه من الشعر .

المصدر : () الأغاني الأبيات الخمسة الأولى جـ ٢ /٢١٨ . والقصيدة كاملة سوى البيتين ١و٣ في الأغاني ٢٩١/٣-٢٩٢ .

() البيت الثاني في تاريخ بغداد ٣٣٠/٦ . وانباه الرواة ٢٢٢/١ .

(١) قلبت : من القُلاب مرض القلب .

والنحاز : – بالحاء المهملة : داء يأخذ الدواب والإبل في رئاتها فتسعل سعالاً شديدًا ، وقد ورد في «الأساس» (النجاز) بالجيم ، تطبيعا .

(*) المصدر : () أساس البلاغة للزمخشري مادة (قلب) .

() تاريخ بغداد ٣٣٠/٦ .

() أنباه الرواة ٢٢٢/١ .

وقد تشير القصة التي أوردها الخطيب البغدادي والقفطي (انظر ص ٩-١٠) إلى أن هذا البيت هو أحد أبيات اللامية السابقة . وانظر في الصفحة ذاتها اختلاف رواية البيت في المصدرين السابقين .

(**) المصدر : نسب قريش للمصعب بن عبد الله الزبيري ص ٣٣ ، والبيت في الأغاني ٢٠/٦ و١٦٩/٩ منسوب إلى داود بن سلم . وفي الكامل للمبرد ٢٢٩/٢ منسوب إلى سليمان بن قتة .

(٥) ثهلان : جبل ضخم بالجزيرة العربية .

(٧) أبو القاسم : هو النبي صلى الله عليه وسلم .

٨ – هم ذوو النور والهدى ومدى الأ
مر وأهل البرهان والعرفان
٩ – معدن الحق والنبوة والعد
ل إذا ما تنازع الخصمان
١٠ – وابن زيد إذا الرجال تَجاروْا
يوم حفـــل ، وغاية، ورهـــان
١١ – سابق مُغْلِقٌ مجيـز رهـــان
ورث السبق من أبيه الهجان

٢ – له :

١ – حـــيِّ المنازل قـــد بلينـــا
أقوين عـــن مرِّ الســـنينا
٢ – وســـل الديـــار لعلهـــا
تخبـــرك عن أُم البنينـــا
٤ – بانـــت ، وكـــل قرينـــة
يومـــا ، مفارقـــة قرينـــا
٥ – وأخو الحيـــاة مـــن الحيـــا
ة مـــعـــالج غِلظا ولينا
٦ – وتـــرى الموكَّـــل بالـغـــوا
انى راكـــبـــا أبدا فنونا
٧ – ومـن البليـــة أن تُـــدا
ن بما كـــرهت ولن تدينا
٨ – والمـــرء تحـرم نفسُـــه
مـــالايزال به حـــزينا
٩ – وتـــراه يجمــــع مالــــه
جـــمع الحـــريص لوارثينا
١٠ – يسعى بأفضل سعيه
فـيـصـيـر ذاك لقـاعـدينا
١١ – لم يُعط ذا النسب القريـ
ـب ولم يجـــد للأبعـــدينا
١٢ – قد حل منزله الذمـــ
ـيم وفـــارق المتنصـــحـــينا

عبد العزيز أحمد الرفاعي
عضو المجمع المراسل
من السعودية

---

(١١) الهجان : ذو الحسب .
المصدر : () الأغاني ٣/٢٩٤ .
() الوافي بالوفيات ١٧/٦١٣ ، وفيه الأبيات (٣–٩) .
(١) أقوين : أقفرن .
المصدر : الأغاني ٣/٢٩٧–٢٩٨.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : الكتب

١ - الأخبار الموفقيات/ للزبير بن بكار (ت٢٥٦هـ) ، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني ، مطبعة العاني ، بغداد، ١٩٧٢

٢ - الأعلام / للزركلي (ت١٣٩٦هـ) ، الطبعة الثالثة .

٣ - الأغاني / لأبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) ط - دار الكتب المصرية (١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م).

٤ - الأمالي / لأبي علي القالي (ت٣٥٦هـ)، الطبعة الثانية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م).

٥ - إنباه الرواة على أنباه النحاة / للقفطي (جمال الدين ، علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة : (١٣٦٩ - ١٩٥٠م) .

٦ - البرصان والعرجان والعميان والحولان/ للجاحظ (ت٢٥٥هـ) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، ط- دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٢م .

٧ - بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، وشحذ الذهن والهاجس / لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق : محمد مرسي الخولي ، مراجعة د. عبدالقادر القط، ط . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ودار الكاتب العربي للطباعة والنشر (١٩٦٢م) .

٨ - تاريخ الأدب العربي / لعمر فروخ . ط- دار العلم للملايين ، بيروت : (١٩٧٥م) .

٩ - تاريخ بغداد / للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، ط - الخانجي بالقاهرة ، والمكتبة العربية ببغداد ، ومطبعة السعادة بالقاهرة ، (١٣٤٩هـ ١٩٣١م).

١٠ - تاريخ التراث العربي / لفؤاد سيزكين ، ط - جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ، الرياض : (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) .

١١ - تاريخ دمشق / لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) ، مخطوط مصور ، نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، (١٤٠٧هـ) .

١٢ – التذكرة السعدية / للعبيدي (من رجال القرن الثامن الهجري) ، تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨١م .

١٣ – التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول / للدكتور مجاهد مصطفى بهجت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ.

١٤ – التمثيل والمحاضرة / لأبي منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو ، ط – عيسى البابي الحلبي ، القاهرة : (١٣٨١هـ ١٩٦١م) .

١٥ – جمهرة نسب قريش / للزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة (١٣٨١هـ) ، توزيع مكتبة دار العروبة ، القاهرة .

١٦ – الحماسة / لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ) ، تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح .

١٧ – حماسة البحتري / للبحتري (ت٢٨٤هـ) ، تحقيق لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت : ١٩١٠م .

١٨ – الحماسة البصرية / لعلي بن أبي الفرج بن الحسين البصري (ت٦٥٩هـ) ، تصحيح وتعليق د. مختار الدين أحمد ، مصورة عالم الكتب – بيروت ، عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – الهند (١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م) .

١٩ – الحيوان / للجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة مصطفى محمد ، ١٣٦٣ هـ .

٢٠ – خزانة الأدب / لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، (١٤٠٠هـ — ١٩٨١م) .

٢١ – دائرة معارف البستاني الحديثة .

٢٢ – ديوان جميل (ت ٨٢هـ) ، جمع وتحقيق د. حسين نصار ، القاهرة : دار مصر للطباعة ، ١٩٧٧م.

٢٣ – زهر الآداب وثمر الألباب / للحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ) ، تحقيق د. زكي مبارك ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ، (١٣٧٢هـ – ١٩٥٣م) . المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٢٤ – سمط اللآلي / لأبي عبيد البكري (ت٤٨٧هـ) ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، (١٣٥٤هـ – ١٩٣٦م) .

٢٥ – شرح ديوان الحماسة / للمرزوقي (ت٤٢١هـ) ، نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م) .

٢٦ – شرح الشواهد الكبرى (المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية) / للعيني (ت٨٥٥هـ)، مطبوع بهامش خزانة الأدب ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة (١٢٩٩هـ) .

٢٧ – شرح المضنون به على غير أهله / لعبيد الله بن عبد الكافي بن عبدالمجيد العبيدي (ت بعد ٧٢٤هـ) ، ط– مكتبة دار البيان – بغداد ، دار صعب – بيروت .

٢٨ – عيون الأخبار / لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، (١٣٤٩هـ – ١٩٣٠م) .

٢٩ – الفهرست / لابن النديم (ت ٤٣٨هـ)، تحقيق رضا تجدد ، ط– طهران (١٣٩١هـ – ١٩٧١م) .

٣٠ – الكامل في اللغة والأدب / للمبرد (ت٢٨٥هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، القاهرة : (١٩٥٦م) .

٣١ – لسان العرب / لابن منظور (ت ٧١١هـ) ، ط – دار صادر ، بيروت .

٣٢ – مجموعة المعاني / لمؤلف مجهول ، تحقيق عبد المعين الملوحي ، ط– دار طلاس دمشق ١٩٨٨م .

٣٣ – المستجاد من فعلات الأجواد / للتنوخي (أبو علي ، المحسّن بن علي ، ت٣٨٤هـ) عني بنشره وتحقيقه محمد كرد علي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٠م .

٣٤ – معجم الأدباء / لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) ، تحقيق د. أحمد فريد رفاعي ، ط–دار المأمون ، ومكتبة عيسى البابي الحلبي ، (١٣٥٥هـ–١٩٣٦م) .

٣٥ - معجم البلدان / لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) ، ط. دار بيروت . (١٣٧٤هـ-١٩٥٥م) .

٣٦ - معجم الشعراء / للمرزباني (ت٣٨٤هـ) ، تصحيح وتعليق د. فرنسيس كرنكو مطبعة مكتبة القدسي ، القاهرة : ١٣٥٤ هـ .

٣٧ - نسب قريش / للمصعب بن عبد الله الزبيري (ت ٢٣٦هـ) عنى بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ليفى بروفينسال ، دار المعارف بمصر ١٩٥٣م .

٣٨ - نهاية الأرب في فنون الأدب / للنويري (٧٣٣هـ) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، بالقاهرة ، (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م) .

٣٩ - الوافي بالوفيات / للصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، ط. دار النشر ، فرانز شتاينر بفسبادن .

٤٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / لابن خلّكان (ت ٦٨١هـ) ، تحقيق د. إحسان عباس، ط- دار الثقافة ، بيروت : (١٩٦٨م) .

ثانيا الدوريات

* مجلة مجمع اللغة العربية الأردني — العدد ٣٠ - مقال : عبد الباقي الأشقر، عن (معجم شعراء أساس البلاغة) .

رياضة الصيد عند العرب

للأستاذ عبدالله بن محمد بن خميس

للأمة العربية كنوز وذخائر زاخرة بأنواع الرياضات العقلية والبدنية نشأت وتطورت مع تطور المد الحضاري العربي ، وأخذت عنها الحضارات الأخرى كثيراً من جوانبها المشرقة ولم تزل صنوف متعددة من أنواع الرياضة في الأمم الراقية تنزع إلى أصل عربي .

والعربي رياضي بطبعه ، هيأته بيئته ومناخه وطبيعة أرضه.. لأن يكون كذلك فهو صلب العود، قوي المراس، شديد الأسر، صبور جلد يمتاز بالرشاقة وخفة الحركة وسرعة الاستجابة مما جعل في خلقه سرعة البديهة، وتوقد الذهن ، وصفاء النفس، وحدة الذكاء.

ومن أبرز فنون الرياضة عند العرب الصيد وهو فن نشأ أول ما نشأ مع العربي الأول كضرورة من ضرورات حياته ، وجزء مهم من معيشته حيث وجد نفسه في جزيرته المترامية الأطراف بعيداً عن معرفة سبل المعيشة كالزراعة والصناعة والتجارة وغيرهامن سبل العيش ، ووجد أرضه غنية بحيواناتها البرية المتوحشة لقلة سكانها وكثرة جبالها ووديانها وأشجارها وكثبانها مما ساعد على وفرة حيواناتها البرية وانتشارهافي سائر أجزاء الجزيرة.

لذلك اتخذ الصيد سبيلاً من سبل حياته، وتفنن في الوسائل والطرق وأدوات القنص بمالديه من إمكانات بدائية فاتخذ الشباك والزبى والفخاخ، وأمعن في دراسة طبائع الحيوانات وعاداتها حتى تفتق ذهنه عن حيل شتى للاصطياد، فأدرك أن الأسد نوّام وأن لنومه أوقاتاً معلومة فجعل يباغته في

(*) ألقي البحث في الجلسة العاشرة للمؤتمر المنعقدة يوم الأربعاء غرة شعبان ١٤١٢ هـ الموافق ٥ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢م .

عرينه أوقات نومه فيعمل فيه سيفه أو رمحه أو سكينه . وأدرك أن للظباء أوقاتًا تأوي فيها إلى كناسها، وتخلد فيها للنوم والراحة فيخالف الهواء لئلا تنقل ريحه إليها لما لديها من حاسة شم قوية فيخرج إليها عن كثب ويصطادها بيده أوينال منها بسلاحه البدائي.. وأدرك أن الأرنب إذا شاهدها القانص في مربضها وعمد إليها لم يغض طرفه عنها، ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً.. بقيت حتي يأخذها بيده أو يضربها بعصاه. وتسمى هذه الطريقة لديهم (بالبحر) يقال بحر الأرنب إذا استعمل لها هذه الطريقة..

وأدرك أن اليربوع يجعل لجحره بابين بابًا بارزًا مرئيًا ، وآخر معمى لايهتدى إليه إلا هو ؛ وطريقة اليربوع في ذلك أن يعمد إلى جانب من الجحر فيتخذ فيه مسلكاً يحفره حتى لم يبق بينه وبين سطح الأرض إلا طبقة رقيقة جداً بحيث إذا داهمه العدو من باب جحره عمدإلى هذا المسلك وبضربة يسيرة من رأسه يجد هذه الطبقة الخفيفة قد انزاحت فيهرب.. أدرك هذا العربي فعمد إلي باب جحر اليربوع وجعل يركضه برجله ركضاً قوياً، وهذا الركض بطبيعة الحال يجعل الهواء الذي كان يشغل حيزاً من مسلك الجحر مما يلي الباب يطلب متنفساً فيجد الهواء يسبق اليربوع إلى الباب ويشكل خروجه غباراً قليلاً ليسرع القانص ويضع يده عليه فسرعان ما يكون اليربوع في يده.. وهكذا من الوسائل والحيل التي كان يصطاد بها العربي الأول.

إلى جانب ما أعطته المرونة والتجربة من معرفة بالقيافة تامة بحيث يعرف أثر الصيد أين هو متجه؟ ومتى كان أثره؟- ماهو مبيته ومصبحه؟! وكذا معرفة زبله وبوله .. إلى جانب حدة في البصر نادرة، وملكة عجيبة يدرك بها مكامن الصيد ومراحه ومسرحه.

ثم تطورت أدوات القنص ووسائله فاستعمل القوس والنشاب يتخذها الفارس عندما يثير الصيد من مكامنه ، يتبعه فرسه بمنتهى حضره حتى إذا كان منه قريباً أطلق سهمه عليه فلا يخطئ المكان الذي وضعه به من جسم طريدته. ولهم خبرة ودرايه تامة

باصطفاء الأقواس وتثقيفها حتى ليحكى عن رجل يدعي الكُسَعيّ أنه لما ثقف قوسه وهذبه ورمى به حمار الوحش رأى السهم يصلد في الجبل بعد أن نفذ من جسم حمار الوحش فظنها أخطأته فضرب بها الحجر حتى كسرها حرداً عليها ثم تبين له أن حمار الوحش قد خر مضرجا بدمه فندم ندامة ضرب بها المثل ، يقال «ندامة الكسعي» ومن ذلك قول الفرزدق :

ندمت ندامة الكسعيِّ لما
غدت مني مُطلَّقة نوار

واتخذ العربي مع مرور الزمن من الطيور الجارحة ، والحيوانات الكاسرة ، والكلاب المعلمة وسائل لصيده يبذل جهداً كبيراً في الحصول عليها ثم في ترويضها وتأليفها ثم في تعليمها على الصيد.. فعلم الفهود والكلاب والبزاة والصقور.. وغيرها من أنواع الكواسر والجوارح وجعل من طبائعها الشرسة وأمزجتها الحادة وشرهها وفتكها طبائع أليفة مرنة هادئة .

فطريقته في اتخاذ الكلاب وتعليمها هي أن يصطفي نوعاً من الكلاب خاصاً يسمى السلوقي - نسبة إلى سلوق مدينة في اليمن- فليست كل الكلاب تصلح للصيد أو تقبل التعليم، والكلاب السلوقية لها مميزات خاصة هي أنها مجدولة القوام ، طويلة الرقاب، ممتدة الظهور، ضامرة البطون، مرتخية الآذان طويلة القوائم ، خفيفة الحركة، حادة الشم، سريعة العدو، تستعين بسمعها وشمها القويين على العثور على الصيد.

فحينما يصطحبها القانص تجدها تذرع الأرض يمنة ويسرة وتتبع مسايل الماء ، ومتكاثف الشجر، والمغاور والأحجار التي يألفها الصيد في حين أنها تتابع اتجاه القانص وتكون دائماً على صلة به، فإذا وجد القانص صيداً أشلاها- ناداها بسرعة واستحثاث.. وبسرعة خاطفة يجدها عنده ثم بإشارة خفيفة منه إلى اتجاه الطريدة تجدها قد أمعنت في العدو خلفها، ولم تلبث أن تكون قد ضرست طريدتها.. وأحياناً تلجأ الطريدة إلى جحرها أو وجارها

فيتحسر الكلب ويعوي ويعود إلى صاحبه يظهر حسرته ثم يعود إلى حيث لجأت الطريدة.. والطرائد التي تصطادها الكلاب هي الأرانب وتصطاد أيضاً الظباء وبقر الوحش وحمره.. يصف لنا النابغة الذبياني في شعره مشهداً من هذه المشاهد للكلاب مع ثور الوحش فيقول :

مطرد أفردت عنه حلائله
من وحش وجرة أو من وحش ذي قار
مجرس جأب وحد أطاع له
نبات غيث من الوسمي مبكار
باتت له ليلة شهباء تسفعه
بحاصب ذات إشعان وإمطار
وبات ضيفا لأرطاة وألجأه
مع الظلام إليها وابل سار
حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته
وأسفر الصبح عنه أي إسفار
أهوى له قانص يسعى بأكلبه
عار الأشاجع من قناص أنمار
محالف الصيد هباش له لحم
ما إن عليه ثياب غير أطمار
يسعى بغضف براها فهي طاوية
طول ارتحال با منه وتسيار
حتى إذا الثور بعد النفر أمكنه
أشلى وأرسل غضفا كلها ضار
فكر محمية من أن يفر كما
كر المحامي حفاظاً خشية العار

إلى آخر قطعة النابغة ..

ولتعليمهم لهذه الكلاب يعودونها أن تتبعهم المسافات الطوال في البرية، وأن يكون الكلب غير المتعلم إلى جانب آخر متعلم يقلده فيما يفعل، وأحياناً يكسرون له قائمة أرنب ويطلقونها تعدو على ثلاث، ويشلون الكلب خلفها ليصطادها.. ويعودونه على ألا يذوق طريدته ولايكشط لحمها لأن الكلب إذا أكل من الطريدة حرمت شرعاً..

وقال بعضهم يصف كلبا ويطرق هذا المعنى :

أنعت كلبا للقلوب مجذلا
آلى إذا أمسك ألا يقتلا
مؤملا لأهله ممولا
يزيد ذا الوفر ويغني المزملا

ذا همة في الصيد في أعلى العلا

يستصغر الظبي فيبغي الإيلا

لايجــد الأيل منه موئــلا

تخاله من خوفـه معقلا

يعول من كان عليه عـــولا

وكانوا يستجيدون في الخيل ، ما استجادوه في كلاب الصيد . قال المأمون لبعض رجاله : اذهب إلى بادية كذا فابتغ لي من أجاود خيلها. قال الرجل: إنه لا يحسن معرفة الخيل وإنما معرفته في جيد الكلاب. قال المأمون: أو أنت كذلك. قال: نعم، قال: استجد لي في الفرس ما تستجيده في الكلب وكفى ..

ولاصطياد الصقر وترويضه وتعليمه طرق معروفة لديهم فمنها ما يحصلون عليه في عشه قبل أن يقوى على الطيران ، ومن عادة الصقر أن يودع فراخه رعان الجبال وشواهقها، ويختار لها الأمكنة الممتنع الوصل إليها .. فيغامر طلابها مغامرات متهورة فأحياناً يصلون إليها وأحياناً يعجزون ؛ وما قصة مقيط وصاحبه إلا من هذا القبيل ذلك أن مقيطا هذا كلف باجتناء فراخ الصقور وتربيتها واقتنائها، وذات مرة أدرك أن في هضبة «جبلة» – هضبة في أواسط نجد يراها سالك الطريق المتجه إلى الحجاز بعد أن ينكب الدوادمي بقليل عن يمينه – أدرك أن بها فراخ صقر فاتفق مع صاحب له على أن يضعه في شبكة من الحبال ويحدره في رشاء ليأخذ هذه الفراخ وكل منهما على نصيبه منها، وكذلك يفعلان وكان الصقر عادة يفرخ ثلاثة فراخ ويندر أن يكون رابعاً ويسمى الأكبر منها نادراً والأوسط لزيزا والأخير محقورا، وإذا ندر أن وجدرابع فيسمى تبعاً وعندما وجد مقيط الفراخ صوت لصاحبه أنه وجدها فقال الذي يمسك الرشاء مانصيبي منها أجابه مقيط بأن لانصيب له منها، فالنادر له – لمقيط – واللزيز لأخيه ، والمحقور لصديق أوصاه وليس لك هذه المرة شئ.. تجرى هذه المحاورة ومقيط معلق بين السماء والأرض لايرى من الأرض إلا غبارها فحرد صاحبه لهذه القسمة الضيزى ؛

وقال له : (يامقيط دوك رشاك) ، يعني يامقيط اذهب إلى الأرض أنت ورشاؤك وفـــراخك ليكون إرباً إرباً تحت هذا الجبل . فـذهبت القـصـة مـثـلاً يضـرب للرجل يطلب الإنصـاف ثم لاينصف وفي هذا يقول أحد شعراء النبط :

أما على مثل النعايـم لفينـــا
وإلاهمزنا همزة مقيط وارشاه

ومن الصـقـور مـا يصطادونه بـحيلة من حيل شتى ..

فـتارة إذا وجـدوه صـائداً طريدة له ومـقبـلاً على أكلها نفروه منها بـعيـداً، وعـمـدوا إلى خيط دقـيق ووضـعـوه في رجلها ودفنوا رجلاً حولها لم يبقوا منه إلا عينيه وجزءاً من يده وغطوهما بشجر أوبقش وذهبــوا، فـــإذا رأى الصـــقـــر طريدته وحدها جـاء إليـهـا، وإذا علقت أظفاره بها وجعل يأكل منها أخذ الرجل يجـذب الخيط إليـهـا رويداً رويداً كلمـا وجـد غـفلة من الصـقـر في الأكل حـتى تكون الطريدة والصــقـر فـوق يده وعند ذلك يقبض رجليه ويأخذه..

وتارة يقـيـمـون شـبكة لونـهـا كلون الأرض التي تقام بهـا وتكون خيـوطهـا دقيـقة جداً ويربطـون تحتـهـا يـربوعـاً أو حـمامـة أو سماني حية، وتكون الشبكة ممـا يلي مـــجـيء الصـــقـــر؛ لأنـهـم لا يضـعونهـا إلا بعد أن يروه واقـعاً حـولهم ويذهـبــون ويتــركــون هذا اليــربوع أو الحـمـامـة أو السـمـاني تجـتـال تطلب الفرار- ويسمون ذلك - بالزريق - فإذا رآها الصـقـر انقض عليـهـا في اندفـاع كـبيـر ولدقـة خيـوط الشـبكة ومـجانسـة لونهـا للون الأرض فـإنه لايراها إلا بعـد أن يكون منهـا قـريبـاً جـداً في حين أن يصدف عنها فيقع فيها، وتتلوى خيوطها على أجنحـتـه وأظافـره ورأسـه بـعد أن تنقلع أوتادها الخفيفة من شدة ضـربتـه بهـا عند ذلك يسـارع صـاحـبـهـا الكامن بعيداً عنها إلى أخـذ الصـقر، وعند ذلك يمهده كتمـهـيد الطفل لئلا يعنت نفسـه بكثـــرة الاضـطراب والنزوع للـهـــروب وليهدأ روعه وتسكن نفسه..

فأما صقور الجزيرة وهي ما تسمى بالشـيـاهين والوكـارى، فـهـذه تصـاد في الجـزيرة كل حـين ، وهناك جـبـال تجـود صـقـورهـا جـودة فـائقـة كـجـبل سنجـار وجبل حـوران وجبل شلوى . حـتى أنهم

يصفون الرجال الشجعان بها فيقولون فلان طير حوران وفلان طير شلوى ... إلخ ؛ وأما ما يسمونه - بالحرار - جمع حر على لغة العامة والمراد الأحرار فهذه توجد في جزء في البحر الأحمر وما جاوره ، وفي الخليج العربي وما جاوره وفي فصلي الأسد والسنبلة تهرب هذه الطيور من الحر إلى هضبة الحبشة وإلى قمم جبال السروات وقمم جبال إيران مما يلي الخليج العربي، ويجرى اصطيادها في هذين الفصلين غالباً، وهذا النوع من الصقور - الأحرار - هي المفضلة والأثيرة وتمتاز بكبرها وثقل وزنها ويفضلون منها ما تتوافر فيه الصفات الآتية : كبر الرأس ، وضخامة المناكب ، وطول العنق ، والفراهة، والكبر ، وانتظام الحركة في خفة ولماحة وحذر ،، يأخذون مثل هذه الصفات على أنها من أدلة جودة الصقور، وقد تختلف هذه الصفات بضدها وتوجد الجودة وبالعكس ، فالفعل هو المعيار.

وفي وصف الصقر يقول بعضهم :

يارب صقر يفرس الصقورا
ويكسر العقبان والنسورا
يجتاب بُردا فاخرا مطرورا
مسيرا بكتفه تسييرا
وقد تقبا تحته حريرا
مشمرا عن ساقه تشميرا
يضاعف الوشى به التنميرا
معرجا فيه ومستديرا
كما يضم الكاتب السطورا
كأنه قد ملك التصويرا
مشزرا ألحاظة تشزيراً
كأن في مقلته سعيرا
سباه من شاهقه صغيرا
قد طار أو ناهز أن يطيرا
من كان بالرفق له جديرا
ينذر في بقائه النذورا
ترى الإوز منه مستجيرا
يبادر الضحضاح والغديرا
يثبت في أحشائها الإظفورا
ينتظم الأسحار والنحورا

ولترويض الصقر وتعليمه على الصيد وتأليفه.. تتخذ في رجليه رباط من (السيور) الأدم المدبوغ الناعم، ويوصل إلى ركيزة من الخشب مسطحة الرأس بأسفلها حربة تغرس في الأرض وتسمى هذه الركيزة بالوكر، يوضع

الصقر عليها لأنه لا يألف الوقوع إلا على مرتفع ويتخذ لرأسه غطاء يحجب كامل رأسه ماعدا منقاره ويسمى بالبرقع. ويحمله الصقّار - مروض الصقر - إلى الأسواق العامة ومجامع الناس ويأخذ عنه برقعه ليؤلفه على الناس ويزيل عنه الهيبة والنفور وإذا أراد إطعامه - وهو طبعاً لا يطعم إلا اللحم النيئ - أمسك باللحمة في يده وتركه يأخذ منها بقدر، ثم أخفاها عنه ليظل يبحث عنها في حضن الصقار أو تحته ، وفي أثناء إطعامه يظل الصقار يصيح عليه صياحاً منكرا؛ وكل هذه ضروب من التأليف..

وبعد أن يراه ألف نوعاً ما يضع فيه خيطاً دقيقاً قوياً يبلغ طوله أكثر من ثلاث مئة متر، ويذهب صقار آخر بقدر هذه المسافة فيقف ينادي ويلوح للصقر بشلو في يده - قطعة لحم - فيطير إليه فإذا أقبل عليه رقد وتركه ليظل صاحبه يلوح له بالشلوويدعوه فيعود إليه مرة أخرى ، وإذا اطمأنوا إلى أنه ألف أزالوا الخيط عنه وكرروا معه هذه العملية مراراً ، وأحياناً يكسرون له جناح حبارى ويتركونه يصطادها، ويأكل من لحمها، وفي مواطن الصيد يقفون على نشز من الأرض، ويأخذون برقع الصقر فإذا أبصر الحبارى انقض عليها فمن الصقور ما يضربها بمخلبه وهو طائر فيقتلها، أو على الأقل يكسر حدة فتنتها ، ومن ثم يعود إليها فيقبض رأسها حتى يصله القانص وينيله قطعة منها، ومنها ماينازل الحبارى في الأرض وحينئذ تنفش ريشها وتكون في خيمة منه ويبدو لها منظر عجيب، وتحاول بقدر استطاعتها أن تستدير الصقر حتى إذا جاءها من خلفها سلحت عليه وعطلت ريشه عن الطيران وهربت وهذا أقوى سلاح لديها يمنعها منه، ولا يكون ذلك إلا للصقر الخامل أما الشجاع فإنه لا يأتيها إلا بحذر ويتصيد رأسها حتى يمسكه وهكذا مع كل واحدة حتى إن بعض الصقور ليصطاد في يومه خمس عشرة وأكثر ..

ذلكم هو اصطياد الصقور وترويضها وتعليمها.. ونكتفي من ذكر كواسر الحيوانات بالكلاب المعلمة ، ومن

جوارح الطير بالصقور طلباً للاختصار وإلا فإن هنالك الفهود والبزاة والعقبان والبواشق والكونج والمزمج وغيرها مما يصطاد به العرب.. للحصول عليها وترويضها وتعليمها طرقاً يطول شرحها.

وهنا ظاهرة يجب التنبيه عليها ذلك أن بعض الناس ومنهم خواص أيضاً ينظرون إلى النسور على أنها من الطيورالجوارح وأنها مشهورة بالشجاعة حتى ليصفون الشباب المدرب على سلاح الطيران بالنسور فيقولون «نسورنا الأبطال» وقد وقع في ذلك بعض الشعراء في مدحه للأكابر وهذا غلط فاحش ، فالنسر طائر خبيث من فصيلة الرخم يأكل الجيف ويسقط مساقط الذباب ومانعتته العرب بشجاعة ولا كرامة فنرجو أن نصحح هذا المفهوم .

وجاء الإسلام وأقر الصيد وأباحه إلا أنه هذبه ووضع له حدوداً وقواعد وبين ما يحل وما يحرم من الحيوانات ومتى تكون الطريدة حلالاً ومتى تكون حراماً إلى آخر القواعد التي تعهدها شأنه في تنظيم أمور البشرية وتهذيبها.. فجاء في القرآن الكريم آيتان لهذا الغرض كلاهما في سورة المائدة الأولى قوله تعالى : ﴿ يسئلونك ماذا أحل لهم قل أُحِلَ لكم الطيبات وماعلمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴾ » المائدة (٤) . والثانية قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشئ من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ » المائدة/٩٤ .

فسبب نزول الآية الأولى أن عدي ابن حاتم وزيد بن مهلهل جاءا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة ، وإن الكلاب تأخذ البقر والحمر والظباء فمنه ماندرك ذكاته، ومنه ماتقتله فلا ندرك ذكاته وقد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا فنزلت الآية. من ذلك

انعقد إجماع علماء المسلمين على أنه لابد في صيد الكلب أن تتوفر فيه الشروط التالية: إذا لم يكن الكلب أسود وعلمه مسلم فيشلى إذا شلى، ويجيب إذا دعى، وينزجر بعد ظفره بالصيد إذا زجر، وأن يكون لا يأكل من صيده الذي صاده وأثر بجرح أو تنييب وصاد به مسلم وذكر اسم الله عند إرساله..

والثانية نزلت على الأرجح في شأن صيد المحرم وما يحل وما يحرم في حقه لأن الصيد آنذاك كان هو إحدى معايش العرب ، فحدد الإسلام مايحل ومايحرم منه في الحل والحرم..

وورد في السُّنَّة أحاديث كثيرة تفسر ماورد في القرآن عن الصيد وتبينه وتبسط القول في الذكاة، والتسمية وصيد الكلاب والبزاة والرمي وغير ذلك مما عقد له فقهاء الإسلام ومحدثوه أبواباً وبسطوا القول فيه واستوعبوه..

ونخص بالإشارة من ذلك ما يباح أكله وما لا يباح من الحيوانات والطيور والزواحف ونحوها..

فهنا قوله تعالي :

﴿ قل لا أجد فى ما أُوحِيَ إلىَّ محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقًا أُهِلَّ لغير الله به فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم ﴾ « الأنعام/١٤٥ » .

فالحصر في هذه الآية ظاهر أنه لا محرم غير ماورد فيها غير أنه وردت أحاديث صحيحة تخصص هذه الآية ، منها حديث : « يحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير» فهذا الحديث مخصص للآية الكريمة على رأي بعض العلماء بأن المراد ما سئل عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقتها جاء الجواب عليه في هذه الآية وهذا لا يمنع في رأيهم من أن يكون هناك محرم غير مانص عليه، وقال آخرون إن الآية مكية وخصصت بالنصوص المدنية.. وأيما كان فالذي عليه جمهور العلماء هو إنه تحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير وكل مالم يرد فيه نص وهو مستقذر لدى أواسط الناس ولو طرد مفهوم الآية لأكلت الكلاب والحمير ونحوها.

على أن هناك أشياء مخصصة من عموم الأحاديث مثل الضبع فإنها ذات ناب، وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم أكلها ومثل الضب فإنه مستقذر وقد وضع على مائدة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأكله، ولكنه أقر أكله وعلل عدم أكله له بأنه ليس بأرض قومه ..

على أن كثيراً من العرب يتساهلون في ذلك إما لضرورة وإما لرخص يجدونها من بعض العلماء يقول بعضهم :

أكلنا الربى ياأم عمرو ومن يكن
غريباً لديكم يأكل الحشرات

ويصف لنا البحتري مشهداً له مع الذئب انتهى بقتله واشتوائه وأكله ، فيقول :

وأطلس ملء العين يحمل زوره
وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره
ومتن كمتن القوس اعوج منأد
طواه الطوى حتى استمر مريره
فما فيه إلا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا في أسرتها الردى
كقضقضة المقرور أرعده البرد
سمالي وبي من شدة الجوع مابه
ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه
بصاحبه والجد يتعسه الجد
عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته
فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها
على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازدادإلا جرأة وصرامة
وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها
بحيث يكون اللب والرعب والحقد
فخر وقد أوردته منهل الردى
على ظمأ لو أنه عذب المورد
وقمت فجمعت الحصا فاشتويته
عليه وللرمضاء من تحته وقد
ونلت خسيسا منه ثم تركته
وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

أما ما يقصدونه بالقنص ويحرصون على اصطياده فهو بقر

الوحش وحمره والنعام والأيائل – الوعول – والظباء والأرانب والحبارى والكروان والقطا والحمام والدرج.. إلخ، وللظباء لديهم أثرة وامتياز وهي ثلاثة أنواع الأدمى وهو الذي في لونه ضرب من الكمتة، وريمى وهو الذي يضرب إلى الحمرة، وعفرى وهو الذي يميل إلى البياض وهي غالباً تكون بلون الأرض التي تعيش فيها وكذلك غالب الوحوش والحيوانات وهذا نوع من حماية الله لها، وسبيل من سبل الإبقاء عليها، وإلا لتسلطت عليها الجوارح والقناص وأبادتها وهي ظاهرة اتبعتها الأمم في تلوين أسلحتها وخيامها وعتادها بلون الأرض التي تحارب بها.. وكم لله من لطف خفي علموه أو لم يعلموه.

وفي ألوان الظباء يشبه أحد الشعراء الشعبيين صويحباته بهن وكان قد عهدهن في منازل أقفرت منهن فيقول :

يادار وين الظبا ألِلي فيك خابرها
أدمى وعفرى وريمى وغزلان

ولقد انتقل الصيد إبان الحضارة العربية من كونه ضرباً من ضروب المعيشة وجزءاً من حياة العربي خصوصاً البداة إلى دور النزهة والسلوة والمباهاة، وإعطاء النفس نصيبها من المرح والانطلاق فحفلت العهود الأموية والعباسية والأيوبية والفاطمية والسلجوقية بضروب القنص وأفانين الصيد، وجاءت أشعار شعرائهم حافلة بذلك يقول أبو نواس ينعت كلبا :

أعددت كلبا للطراد فظا
إذا غدا من نهم تلظى
وجاذب المقود واستلظى
كان شيطانا له الظا
يكظ أسراب الظباء كظا
حتى تراها فرقا تشظا
يحوز منها كل يوم حظا
حتى ترى نجيعها مكتظا

ويقول يصف صقراً :

لا صيد إلا بالصقور اللمح
كل قطامى بعيد المطرح
يجلو حجاجى مقلة لم تجرح
لم تغذه باللبن المضيح
أم ولم يولد بسهل الأبطح
إلا بإشراف الجبال الطمح

أحصى أطراف القدامى وحوح

أبرش من بين القرى والمذبح

فاصطاد قبل التعب المبرح

وقبل أوب العازب المروح

خمسين مثل العنز المشرح

مابين مذبوح ومالم يذبح

ويقول ابن المعتز يصف فهده :

ولا صيد إلا بوثابة

تطير على أربع كالعذب

فإن أطلقت من قلاداتها

وطار الغبار وجد الطلب

فزوبعة من بنات الرياح

تريك على الأرض شيئًا عجب

تضم الطريد إلى نحرها

كضم المحبة من لا يحب

وقال بعضهم :

لا تستضيف من الطراد جيادهم

فتراهم أبداً على أوفاز

فبزاتهم تصطاد صيد كلابهم

وكلابهم تصطاد صيد الباز

ألفوا الوغى فتعللوا بمصائد

عن شن غارات وبعد مفاز

ولعل أصدق ما يمثل واقع الصيد في عهوده المتأخرة ، قطعة البارودي التالية :

وفتيان لهو قد دعوت للكرى

خباء بأهداب الجفون مطنب

إلى مربع يجري النسيم خلاله

بنشر الخزامى والندى يتصبب

فلم يمض أن جاءوا ملبين دعوتي

سراعا كما وافى على الماء ربرب

بخيل كآرام الصريم وراءها

ضوارى سلوق عاطل وملبب

من اللاء لا يأكلن زادا سوى الذي

يضرسنه والصيد أشهى وأعذب

ترى كل محمر الحماليق فاغر

إلى الوحش لايألوا ولايتنصب

يكاد يفوت البرق شدا إذا انبرت

له بنت ماء أو تعرض ثعلب

فملنا إلى واد كان تلاعه

من العصب موشى الحبائك مذهب

تراح به الآمال بعد كلالها

ويصبو إليه ذو الحجا وهو أشيب

فبينا نرود الأرض بالعين إذ رأى
ربيئتنا سربا فقال ألا اركبوا
فقمنا إلى خيل كأن متونها
من الضمر خوط الضميران المشذب
فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت
بزاة وجالت في المقاود أكلب
فما كان إلا لفتة الجيد أن غلت
قدور وفار اللحم وانفض مأرب
وقلنا لساقينا أدرها فإنما
قصارى بني الأيام أن يتشعبوا

وتمثل لنا اللوحات الفنية والرسوم الأثرية الموجودة في دور الخلفاء والأمراء النبلاء مقدار احتفائهم بالصيد، وما يصورونه من معاطاته ومعاناته على ظهور الخيل بالبزاة والصقور والكلاب ، وبالقوس والنشاب في رسوم ناطقة وألوان معبرة يزينون بها صدور القاعات، ويتباهون بها ويتفننون فيها.. مما يدل على ما للصيد عندهم من مكانة وحفاوة .

وبانكماش السلطان العربي وانحدار الحضارة العربية اختفت تلك المعالم إلى اليوم إلا ما هنالك في بلادنا أو في إمارات الخليج العربي مما يزاول في الجزيرة العربية من الصيد بالصقور وبالكلاب نادراً، أما ما عدا ذلك من سبل الصيد في هذا الزمن فيعدُّ إبادة للحيوانات والطيور لاقنصاً حيث يتتبعونه بالسيارات وبالبنادق الأوتوماتيكية - الشوازل - ويهلكون ماوجدوه ، وبهذه الطرق تنتفي لذة الصيد وتزول رياضته الحقيقية ولا يجد القنص من اللذة ما يجده من يتعب له ويعانيه ويدركه بعد مشقة ، لذلك فقد أبيدت حيوانات الجزيرة العربية أو كادت .

وقد أحسنت حكومتنا صنعاً حيث منعت أخيراً استعمال الشوازل واستيرادها إبقاء على ما في بلادنا من بقايا لظاهرة كانت منعوتة بها. ولمصدر من مصادر جمالها وأثر من آثار تاريخها الطويل..

وبعد فهل لشبابنا أن يكون له في الصيد رياضة وعلى الرمي والخشونة دربة وفي رياضة آبائهم وأجدادهم مثل

أعلى ومطانب أفضل ؟ إن هذا مانتعشمه منهم فإنه لاخير في أمة يتنكر حاضرها لماضيها، وتذوب عاداتها وتقاليدها في تيار الأمم الأخرى ولننشد مع الشاعر:

لسنا وإن أحسابنا كرمت
يوماً عى الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا
تبني ونفعل فوق ما فعل

وفى ختام حديثى عن « رياضة الصيد عند العرب » أود أن أقول : إن كلمة (صيد) تطلق على المصدر من (صاد) وتطلق على مايصاد وتطلق على المكان المصطاد فيه. القنص بالتحريك ما اقتنص والقنص بالتسكين المصدر من قنص .

(رياضة) لها ثلاثة مدلولات :

١- تطلق ويراد بها رياضة النفس عن متابعة الهوى وتسخيرها إلى ملازمة حدود الشرع . وذلك من أصول التصوف .

٢- وتطلق ويراد بها علم الحركات وعلاقتها بالحواس والعقل والعواطف والطبائع ونمو سائر الخصائص البشرية جسمية كانت أو روحية .

٣- وتطلق ويراد بها دراسة الكميات العددية والعلاقة بينها والكميات الفراغية والعلاقة بينها كالحساب والهندسة والجبر والتحليل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

عبد الله بن خميس

عضو المجمع المراسل من السعودية

هى أهل وإن تنكر دهر

قصيدة للدكتور إبراهيم السامرائى

قرُبتْ أم تباعَدَت عنكَ مصر
هى أهلٌ وإنْ تَنَكّر عصرُ
وَرفتْ سَرْحةٌ وأغدَقَ نيلُ
ولكم زانَها الثّرى وهو تِبْرُ
هي أمٌّ قد قرّبَتْ فَلَذاتٍ
رضِعوا ثديَها فأسلَس دَرُّ
وهي مِنّا ، وإن دَهَتْنا خطوبٌ
ومن الخَطْبِ ما يهُزُّ ويَعزو
وهي مصر، دعا بها كل نَدْبٍ
هَمٌّ للحزم والدجَى مكفهِرٌّ
نحنُ منها، ونحن قومٌ سَمَوْنا
للمعالي يدعو إليهنّ نُكْرُ
قد وطئنا السبيلَ وهو جهادٌ
وخَبَرناه والثّرى مقشعِرٌّ
ولَزِمنَا النضالَ خُطّةَ حَزْمٍ
ولقد عَزَّ دونها اليومَ مَهْرُ

* * *

أتُراني ، وقد سعَيتُ إليها
ورفيقى فيها عزيزٌ وحُرٌّ ؟
ويهون العسيرُ، وهْو جحيمٌ
إنْ تَداعَى إلى الرزيّة حَشْرُ
أو تَرامَى إلى الكريهةِ قومٌ
قد أساغوا شرابهَا وهو مُرٌّ
أو تُراني، وقد دَعَتني إليها
برَّةٌ سَمْحةُ الجناحَين مِصرُ
أتَمَلّى صَحْبي ، وأين حبيبٌ
شِمتُ فيه صبابتي ، وهي بِكرُ
من ثلاثين .. أوتُنيف عليها
شامخاتٌ على المدى هُنَّ عُمْرُ
قلتُ: أين «السعيدُ أحمدُ» مـ
ـن أومَتْ إلى سَعْده فضائلُ كُثْرُ
أتُراه قد استجابَ لِداعٍ
قد سَطَا هَوْلُه، فُروِّعَ بَدْرُ

(*) ألقيت هذه القصيدة فى الجلسة السادسة للمؤتمر المنعقدة بتاريخ ٢٨ من رجب سنة ١٤١٢ هـ الموافق ٢ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢م .

غابَ ، لم أستطعْ بلوغَ عُـلاهُ   مَرَّ عامٌ حُرِمـتُ فيه لقـاءً

ولَكَمْ أدركَ السماكَين نَسْـرُ   هو خيْر ، والخيرُ في العصر نَـزْرُ

غيرَ أنّي ، وقد دهانيَ خَطْـبٌ   أتَقَرّى بـه بقيّـةَ وَفْـرٍ

فاحتَواني ، وقد تطايَرَ شـرٌّ   نبتغيه ، وحاجُنا اليومَ صِفـرُ

أتَسَّى بالأكثرين وحَولـي   أفَأمْضي إلى الحِمَى بعد بَـيْنٍ

أنجمٌ ، في مواطن الجدّ ، زُهْـرُ   قد طواني، فيه على الضيمِ ضُرٌّ؟

وهم من هم إلى الضاد نبـعٌ   أطَأُ العَشوةَ البغيضَةَ أشقَـى

فاض من وافر يُغَذّيه وَفْـرُ   في لظاها، وقد شَجَتْني عَشْـرُ

هي بين اللُّغَى أمارة مجـدٍ   أمُقامي «صنعا» ، وقد عِفتُ عمّانَ،

زَيَّنَت رِفْدَه ذخائـرُ غـرٌّ   وزادي في موحش الدرب صَبْـرُ

وهُمُ الأكرمون ، قد كان منـهمْ   هي عشر سَئِمتُ فيها مقامـي

لِنداها، ما استَحْكَمَ الخطبُ ، برٌّ   ولَكَمْ قد نَبا بعيشي مَقَـرُّ

هو ذا شيخنا الرئيـسُ بدَأْبٍ   أفأنتَ الشقيقُ لي ذاك سـرٌّ

منذ ستين يحتويهـنَّ سفْـرُ   ولأنتَ البعيدُ منّي تـفِـرُّ

* * *   * * *

أين قومي، وقد دَهَتهُـمْ دَواهٍ   أتَصَبّى إلى العراق ، ودونـي

فرّقَت شمْلَهم ، وفي ذاكَ سـرٌّ؟   بعضُ مالا أُطيقه ، وهو أمْـرُ

مالَنا ؟ كُلّنا جَـوٍ يتلـظّى   أفحسبي صباً، وأهلي شتات

أنعاني من عمرنا، وهو خُسْرُ ؟   ولقد هالني تبابٌ وعُسْـرُ

قد دَرَجْنا، وكان فينا مِـراحٌ
بَطِرٌ يُطَّبَى ، وفي الحال يُسـْـرُ
وانثَنَينا ، بطرفة العين ، نبدو
سلعاً يرتمي عليهنّ تَجْـرُ

* * *

أديارَ السلام ياقِبلةَ المجـد
كيف استباحكِ اليوم كُفْـرُ
أصحيحٌ ماكان فيكَ مقيمًا
من ربيع ذَوى فأجدبَ قَفْـرُ !
وثراءٌ مشى بأرضك رِفْـهًا
قد تداعَى عليه ظلمٌ وغَـدْرُ
كيف لي أن أرى دياري نهبًا
يتصدّى لها غُثاءٌ ومَكْرُ
لستُ أقوَى على صَعيدٍ ، يُعاني
فيه سَمْحٌ يشُدُّه اليومَ فَقْرُ
وهو مني ، وللمروءة حقٌّ
كيف أرضَى أن يُبْتلى فيه كِبْرُ
أأشمُّ الأمسَ البعيدَ قريبًا
ومتاعي منه شَمِيمٌ وعِطْرُ؟
أفَلِي كل ذاكَ يسطَعُ نَفْحٌ
وأناجي الربوعَ يبسَم زَهْرُ؟

أعذيرى البعادُ عن أرض قومي
ومتى كان لي على البعد عُذْرُ ؟
ونصيبي في الرَّوع سَمْحُ بيانٍ
أتصَبَّى بفيضه ، وهو شِعْرُ
وأُورّي بَهمْسه ، وهو صِدقٌ
صُغْتُ فيه صبابتي، وهو سِحرُ
حَمِيَ البأسُ فانْتفضْتُ فأمسَى
كلُّ ما أَدَّريه مني يُجَرُّ
أفترضَى الحياةَ في غير عِزٍّ
وهي تحلو ، ورُبَّ حلوٍ يَمَرُّ
غير أني ألقى بمصرَ وفاءً
قد تحامى عليه في السرِّ دهرُ
أنت يامصر موردُ الخير للناس
وأسْدُ الشرى ، ولوذٌ ووَكْرُ
ولقد هالنا معينٌ يُجَافَى
فيعاني أهل له ، وهو ثَرٌّ
ريعَ أهلٌ لنا وضيمتْ ديارٌ
لبني العُرْب والمصاب يَجُرُّ
ما أراني إلا الذي مَن إذا
ضيم إخوانُه تقاضاه جَمْرُ

أرفيقي من أنت ؟ أنت وقـــودٌ ... ومَعِينٌ يزكو ويعْمرُ رِفهـــــا

تتلظّى في « القدس » ذاك الأبـرُّ ... أفنشكو من جَدْبنا ، وهو نَـهْـــرُ

أنت من أهلنا ، ورُبَّ وجيـــعٍ ... أَوَ نَسْـتَـفُّ مِلحَ أرضٍ علاها

يتوخَّى طلقَ الضحى ، وهو أجـرُ ... هاتفٌ في جهادنا هو نَصْـــرُ؟

أنا لي في غدٍ عزاءٌ ويبـــدو ... قد يعودُ البعيد فينا قريبًا

لي فيما أشيمه اليوم ، فجْـــرُ ... ويُنادَى بـنا ، وفينـا يُسَـرُّ

إبراهيم السامرائي

عضو المجمع من العراق

عندما تترجل الفرسان ...!

قصيدة للأستاذ حسن عبدالله القرشي

باسمٌ والأسَى لِرُوحَــــكَ زادُ
وعَليلٌ قَدْ مَــلّه العُـــوّادُ
سَاهِدُ الطَّرفِ من جَهَام الليالى
ضاحِكٌ للبُكاء فيكَ مَعَــــادُ
زَارعٌ والحُقُولُ أَلْوىَ بها الجَـدْ
بُ ، فلا ثَمَّ سُنْبلٌ ولاحــصادُ
حاضِرٌ غائبٌ مـعاً والمآســـي
تتوالى، وللحُبورِ ارتـــــدادُ
وَلّت الأُمْنياتُ بعد آقتـــرابٍ
يَشْحُبُ الحُلْمُ إذ يَضِلُّ المُــرادُ
لسَت تشكو لما يؤودك فَــرْداً
أويَــروع الفؤادَ منك الرَّمَـــادُ
أنتَ تأْسَى لأمةٍّ شَفَّها الضعـ
ـفُ وأودى بريحها الأوْغَـــادُ
لارَشَادٌ يقودها لعُرَى الخيْر
ـر أضلّتْ طريقَها لاسَـــدَادُ
كانتِ الذّروة التي يَزْهَرُ الدَّهْـ
ـر بأكنافها، وتسمو البــلادُ

كان نهرُ الجُنَى على ضِفَّــتَيْها
يتهادَى ، وللشمُوخِ آمتـــدادُ
ولها صَوْلَةُ الجبـــالِ ووِمْضُ الشـ
ـمسِ ، تعنُو لِضَــوئها الآبــادُ
كان عزم (الفاروق) مِلءَ جناحيْـ
ـها، وكانت أيَّــامَها الأعيــادُ
ويدوي زئير (معتصمٍ) فيـــ
ـها فَنَــارُ دماؤهــا وجِهَـــادُ
تتحدَّى جَيْشَ الصَّليب بِبــادر
هـا من الفَتْحِ عُدَّةٌ وجِــلادُ
فإذا بعدَ كُلِّ هـــذا التَّســامى
يَذْبُل الفَجْر ، تَضْمُــر الأمجَادُ
وتطيشُ الرؤَى فيندثر الزهــ
ـو ويَرْعى أطيَارها الصَّيَّــادُ
حيث يعلو صدى (يهوذا) بــلادي
وله في حُدودِهِنَّ احتشــــاد
ياَلَذُلِّ الإسلامِ والعُرْبُ طُـــراً
وذُرَى (القُدْس) قد علاها السَّوادُ

أتُرى ينْجلي القتامُ وتعـــلو
رايةُ الحقّ، تنطوي الأبْــــعَادُ؟

* * *

مَن عذيري ، وللخَـــلافِ جُذورٌ
في ديَارى رغم انتصارِ العوادي
كلّ حين تحدو سراها المآســـي
جائحـاتٍ في كل صُقْــعٍ ووادى
شوَّهَتْ فى النّفوس زُهْرُ المعاني
وانثنى حاضـــرٌ بِهَمٍّ وبَـــادي
أتُرى الخصْبُ جَفَّ فيـها فلا نبـ
ـع دفوق ، ولاصهيل جيـــادِ ؟
لا جِهَادٌ يَردّ كيد المضـِّـــليـ
ـن ويشفى منا القلوب الصوادِي
يالَمُ الناسُ للأخاءِ صَرِيـــعاً
بعْدَ أن كان جمْرَةً في اتِّـــقادِ
ويسود العدو أرض النبييـــ
ـن ويُذْكي الشجون في الأكبـادِ
يتحدى مروءة كان ماضيـ
ـها سَمَاءً لنجـدةٍ ، واعتِـــداد
أتُنَادي بالسلْم والعارفى السلـ
ـم لـدَى حاقدٍ غليظ الفُـــؤادِ

مُوغلٍ في مهانةِ الأهْل مـــوتو
ر عَتِيٍّ الإصْرار وارِى الزِّنـــادِ
يرفُضُ السَّلم موغلاً فيه تــحدٍّ
يه ، ويُورى لَظَى الأسى في عِنادِ
هَمُّه في انتكاسِ ثوْرتنا البِكـ
ـر تَعَالتْ رغم الخُطُـوب الشِّدادِ
فـدَم الأبْريـاء خمـــرٌ يــرو
يـه وزادٌ لجُــوعِـــــهِ أيُّ زادِ
وأنينُ الثّكْلَى بأذنيــه أهْــزُو
جـةُ نصْرٍ ، مُنَغَّمِ الإنشـــادِ
سَرَق الأرض وآستباح بها العر
ض، خبيثاً في جَوْره المتمـادى
وتباريه جَوْقَةٌ من لِئام الغـــر
ب ضلّت سبيلـها للـرَّشـــادِ
تَدَّعِي للحُقُوق رُعْيـا وما عـا
شت لغَيْـرِ الضَّلال والإفسـادِ
سَوْفَ يَعْلُو برغمها مَنْطِق الحـ
ـق على كلّ غــدْرةٍ وكيـــادِ
فديار الأحــرارِ مهما تنــاءَتْ
هي للأهْل رغم أنْف الأعـادي

* * *

أمّتي والشُجونُ مِــــلْءُ كياني
مِنْ ورائي مطيفةٌ ، وأمامـــي

والمآسي تزاحَمَتْ فإذا الأفـــ
ـق جَهَامٌ مستـهدفٌ لِجَـهامِ

أنا مَهْما قسوت في عَذْلِ قومي
وتألّمتُ من ضَـيَاع مرامـي

وغزا خافقي الضَّبابُ وشَجَّتْ
رايةَ النَّصْرِ هَيْنَماتُ انقسَـامِ

فهمــو كلُّهم ملاذ غَـدي الآ
تـي وما قد ذَخرتُ من أيّامِـي

لَسْتُ أرضَى لهم هَوَانًا ويُشجِي
خافِقِي منهمو انثلامُ حُسَامـي

أيـ (صهيون) أن تعكِّر صَفْوِي
دون أن تستثير بأسَ احتدامـي ؟

ألِمن دفـؤُه إذا مَسَّ قُـــرٌّ
من بلادي ، وزادُه من طعامـي ؟

أن يُنادي جَهْرًا بنصـر عدوِّي
ويُمارِي كرامتــي ، وسلامــي ؟

يُترعُ المال في خَزائن خَصْمي
كي يحثّ الخُطـى لوأد عُرامـي

حاضنًا من شـراذم البغي والإر
هـاب من هشَّموا سلَيم عِظامي

كُلـهم رغم صَوْلة الغَدْر والإجـ
ـرام رهْنٌ لِصاعِقٍ من ضِرامي

لن يعيشَ الباغي وفي جُعْبتي الثأ
رُ وجيشٌ من الأسُودِ الكـرامِ

هـل دَرَى أنَّ كلَّ ذرَّة رمْـلٍ
مِنْ ديارى مَذخُورَةَ لانتقامـي ؟

هـوذا جيلنا الجديدُ تحـدَّى
بغْيَه غــير آبهٍ لحِمـامِ !

بالصمود العنيد يفْترعُ الخطـ
ـب ولاينحني لسهم الرَّامِــي

عربيُّ الإبــاءِ لا يرهب المـو
تَ ولا يَسْتنيمُ للأحـلامِ

في سبيل النِّضالِ والوطن الغا
لـى وفي ثورةٍ وفي إقْـدامِ

سوف يَمْضي محرِّرًا أرضَه الطُّهـ
ـرويجلو من غاشيات الظَّلامِ !

حسن عبدالله القرشي
عضو المجمع المراسل من السعودية

علي هامش تفسير بعض من آي الذكر الحكيم

للدكتور حامد جوهر

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته :

السيد الأستاذ الجليل الرئيس :

السادة الضيوف الأجلاء الوافدين إلينا من بلاد شقيقة وصديقة والمقيمين معنا ،

السادة الزملاء الأعزاء أعضاء المجمع الموقرين :

لامرية أنكم تعجبتم لاختيارى مثل هذا الموضوع لأتحدث عنه إليكم . وفيكم أساطين هذه العلوم . وأنا لا أعجب لتعجبكم هذا إذ لا أدعي أننى ممن تخصصوا فيه أو وصلتُ فيه إلى ماتصبو إليه نفسى من علمٍ به ومعرفة . فلم أؤهل له أو أعد له الإعداد الكافى ، ولكننى إنما أخضع لأمره تعالى لعباده أجمعين ، أن يُنعموا النظر ويُعملوا الفكر فى ملكوته وخلقه لعلهم يهتدون . إنما كان قوام إعدادى العلمى كله موجهًا إلى ناحية العلوم الطبيعية ، وبخاصة إلى علوم الحياة ، وعلى الأخص إلى ظواهر الحياة فى البحار . وأحب أن أؤكد لكم أننى أجد أن هذه العلوم إنما هى من أقوى الوسائل التى تهدى إلى الإيمان الراسخ الثابت الذى لايتزعزع . بل ألمس ذلك دائمًا عند مشاهدى البرنامج التلفزيونى « عالم البحار » دون أن أحاول مطلقًا التوجيه إليه . فإن هذه العلوم تقوم على الملاحظة والتفكير فى ملكوت الله تعالى ، وفى قدرته وعظمة خلقه وإبداعه . ولذلك فإننى لا أشك أن هذه الدراسات إنما تشكل دعائم قوية للإيمان بالله سبحانه جلّ وعلا . وليس أدل على هذا من أمره تعالى عباده أجمعين بالتفكير فى مخلوقاته . أليس هو القائل فى سورة آل عمران بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات

(*) ألقيت هذه المحاضرة في جلسة المؤتمر العلنية التى انعقدت مساء الأربعاء غرة شعبان سنة ١٤١٢ هـ الموافق ٥ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٢م .

لأولى الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴿(١٩١) » صدق الله العظيم . وفى الآيتين التاسعة عشرة والعشرين من سورة العنكبوت ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير(١٩) قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة (٢٠)﴾ صدق الله العظيم . كل هذه ومعها الكثير من أمثالها فى كل المجالات إنما هى أوامر صريحة واجب على كل فرد تنفيذها ، كلٌّ بحسب طاقته . واستعداده ووسائله . هذا هو الذى شجعنى على أن اقتحم هذا الخِضَمّ العميق الشاسع المنير .

ولقد كان أول ما اتجه إليه تفكيرى ، بطبيعة الحال ، هو البحر وجلال خلقه وأول آيات خطرت على بالى إنما هى الآيات ١٩-٢٣ من سورة الرحمن : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان (١٩) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٢٠) يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢٢) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٢٣) ﴾ صدق الله العظيم . واتجه التفكير مباشرة إلى التيارات البحرية فى بوغاز باب المندب بين البحر الأحمر وخليج عدن ؛ إذ كنا فى ذلك الوقت (أوائل الثلاثينيات) ندرس تلك الظاهرة على ظهر سفينة البحوث المصرية « مباحث » ومضت فترة ليست بالقصيرة قبل أن نعرف أن القرآن الكريم قد حدّد البحرين بأنهما الملحُ والعذب . وعرفنا أن اجتهادنا فى كل تلك الفترة لم يكن على الطريق الصحيح ، وأنه على من يتصدى لتفسير آى الذكر الحكيم لابد وأن يكون على إلمام كافٍ به أو على الأقل بكل مايتصل بموضوعه من آيات . الأمر الذى لم يكن فى متناولى أدواته فى ذلك الوقت .

هذه الآيات العظيمة القليلة الموجزة أعظم الإيجاز كانت موضع اهتمام الكثيرين الذين وضعوا لها تفسيرات مفصلة قيمة ، ولم يكن يدور بخلدى أن

من المستطاع الإضافة إليها . ولكن بمزيد من البحث والإطلاع على مايُجرى من بحوث فى كثير من بقاع العالم أجد ناحية تستحق الإضافة إلى ماوصل إليه التفسير إلى الآن .

ولقد أورد سبحانه جلَّ وعلا مفتاح المعنى فى القرآن الكريم : ففى سورة فاطر الآية ١٢ : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ومايستوى البحران هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابه وهذا مِلحٌ أُجاج ومن كلٍّ تأكلون لحمًا طريًا وتستخرجون حِليةً تلبسونها وترى الفُلكَ فيه مواخر ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . وفى سورة الفرقان/٥٣ : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا مِلحٌ أُجاج وجعل بينهما برزخًا وحِجراً مَحجُوراً ﴾ . وكذلك فى مواضع آخرى .

إذًا لامجال للمناقشة فى أن البحرين هما البحار الملحة من ناحية والبحار العذبة من أنهار ، ووديان تمتلئ بالماء فى مواسم الأمطار أو من ذوبان الثلج فى قمم الجبال والجليد فى المناطق الباردة من ناحيةٍ أخرى .

وأما مايخرج منهما من لؤلؤٍ ومرجانٍ فقد كان هذا موضوع أول لقاء لى مع التفكير فى تفسيره ، إذ كان المغفور له الإمام الشيخ عبدالرحمن تاج معنيًا بدراسة سورة الرحمن وسألنى عن اللؤلؤ والمرجان ومواطن وجودهما . فأنبأته أن اللؤلؤ أكثر مايوجد فى البحار المِلحَةِ الدافئة ، ولكنه يوجد أيضًا ، وإن كان بقلة ، فى المياه العذبة حيث جيده نفيس . أما المرجان فلا يوجد إلا فى البحار المِلحَةِ الدافئة .

والمرة الثانية كانت فى برامج الإذاعة القرآنية فى أحد شهور رمضان المعظم منذ سنوات . وكان الموضوع الذى اختيرَ لى للتحدث عنه تلك الآيات الكريمة بالذات من سورة الرحمن . وأصررت حينذاك على أن يشترك معى عَلَمٌ من علماء الدين ليتولى الناحية الدينية فتطوع المرحوم الأستاذ الشيخ الحسينى هاشم بتحقيق رغبتى فتولى الناحية الدينية .

وقد كان أهم ماتحدثتُ فيه هو التقاء مصاب الأنهار والوديان بالبحار وكيف

تُمْزَجُ المياه من البحرين بعضها ببعض وضربت مثلا بالبحر الأبيض المتوسط ونهر النيل فى مصبى دمياط ورشيد ، فيما قبل بناء السد العالى . فعند مصاب الأنهار يتسع مجرى النهر . وإذ يرتطم الماء العذب بالماء الملح يرتفع العذب فوق الملح ، وهذا، أى الملح، يزحف على القاع داخلاً إلى مسافة ، ليست بالطويلة ، فى المصب ، بينما يفيض العذب على السطح منساباً إلى البحر . هذا إذا كان الجو هادئًا تمامًا . أما إذا كان الجو مضطربًا والرياح شديدة فتعمل الرياح وشدة الأمواج على خلط المياه خلطًا محدودًا يسمح بانفصالهما بعد فترة من الزمان والمكان . كما أن حركة ارتفاع ماء البحر وانخفاضه ، والتى تعظم عند المصب ، مع حركة المد والجزر فتُنَشِّط الخلط تنشيطًا خفيفًا نسبيًا يؤدى إلى المزيد من كمية الماء العذب الخارج إلى البحر طافيًا فوق ماء البحر . والمحصلة النهائية هى خروج الماء العذب إلى البحر طافيًا على السطح . ومع هذا فقد استمرت هذه الحال ملايين السنين ولم تتحول البحار إلى العذوبة ولاتحولت الأنهار إلى الملوحة .

والذى أضيفه الآن أن مياه الأنهار إذ تجلب إلى البحار أملاحًا ذائبة وطميًا ومواد أخرى ذائبةً وعالقة ، وأحياءً مائيةً عالقةً وغير عالقة . كنا نرى أثر ذلك جليًا فى ماء نهر النيل وقت الفيضان ، إذ كان يُكسِب ماء النهر لونًا بنيًا مُحْمرًا ، وذلك قبل بناء السد العالى ، فنميِّز مياه النيل فوق سطح البحر الأبيض المتوسط حيث تصل إلى سواحل فلسطين ولبنان وسورية قبل أن تتلاشى فى ماء البحر تدريجًا. إذ تفقد عوالقها لترسبَ على قاع البحر مكسبة الماء خصوبة زائدة فتسمَنَ الأحياء القاعية بما يميزها على أفراد أنواعها فى المناطق المجاورة . والأملاح الذائبة فى كل نهر كبير توجد بنسب ثابتة بالنسبة لبعضها ، وتختلف تلك النسب عن نسب الأملاح الذائبة فى ماء البحر بعضها إلى البعض الآخر واستمر ذلك منذ آلاف السنين على الأقل. وذلك كما ثبت من تحليل أملاح البحر المتخلفة فى مناطق تجمعها حيث

جفت وبقيت الأملاح لتنبئنا قصتها . وقد كان يظن أن نسب أملاح البحر تتأثر بما يصب فيها من مياه الأنهار وتتغير تدريجًا على مر الأزمان . ولكن ما أثار الدهشة أنه ثبت جديثًا أن ماء البحر احتفظ بنسب أملاحه الذائبة لاتتغير . والذى نستنتجه من ذلك هو أن قدرة عظيمة قد ثبّتت هذه النسب بتفاعلات فيزيائية وكيميائية تتم فى الناحيتين مثل الترسيب والإذابة ، وفعل الأحياء فى الناحيتين لتظل الحياة فى مياههما ثابتة إذ لا الأنهار تطغى على البحار ولا البحار تطغى على الأنهار .

وأحب أن أذكر هنا ، توضيحًا لما سبق أن من أهم النظريات التى لاقت قبولاً كبيراً فى نشأة ماء البحر وملوحته أن هطول الأمطار الغزيرة والسيول على سطح الكرة الأرضية عندما برد كوكب الأرض فى أول تكونه ، كما أن قدراً كذلك أخرجته وتخرجه الأرض عند تصلبها ، ومن البراكين بعد ذلك - تلك المياه أذابت الأملاح من الأرض وسطحها فتجمعت فى المنخفضات لتنشئ المحيطات والبحار ، وتدريجًا وصلت الملوحة فيها إلى درجتها الحالية وأن نسبة المواد الذائبة فى الماء بعضها إلى بعض قد ثبتت تدريجًا بعد ظهور الحياة فيها رغم زيادة الملوحة العامة ذاتها ببطء شديد لايُشْعَرُ به .

القرية حاضرة البحر

والآن أرجو أن ننتقل إلى آية واحدة رقم ١٦٣ فى سورة الأعراف وهى : بسم الله الرحمن الرحيم(واسألهم عن القريةِ التى كانت حاضرةَ البحرِ إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سَبتِهم شُرّعًا ويوم لا يسبِتونَ لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يَفْسُقون ﴾ صدق الله العظيم .

والواقع أننى عندما قرأت هذه الآية الكريمة لأول مرة فهمت منها أن أهل تلك القرية صيادون ، وكانوا يراعون عطلة يوم السبت ، ولكنهم بدلاً من أن يمضوا العطلة فى التعَبُّدِ والأعمال الصالحة كانوا يأتون فيها السيئات ولايصيدون ، فعاقبهم الله تعالى بأن أرسل إليهم يوم السبت الأسراب الكبيرة من الحيتان

(السمك) سابحة عند سطح البحر كبيرة رافعة زعانفها الظهرية مرتفعة خارج سطح البحر كأنها أشرعةُ السُّفن ، ومنع عنهم الحيتان فى أيام الأسبوع الأخرى فلم يكونوا يصيدونها يوم السبت وانصرفوا عنها غارقين أنفسهم فى الموبقات . وأرى أن هذه الآية إنما هى من السهل الموجز الممتنع .

ولكنى وجدت بعد ذلك أن أغلب المفسرين يرون أن ﴿ إذ يعدون فى السبت ﴾ تعنى « إذ يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت وقد نُهوا عنه » (تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٥) ويرى آخرون أن « الذين اعتدوا منكم » فى سورة البقرة/١٥٠ المراد منها الذين أخذوا الحيتان على جهة الاستحلال » معجم ألفاظ القرآن جـ ٢ ص ٧٤٨ . والحقيقة أننى لم أقتنع بهذا التفسير فرأيت وجوب تحقيقه .

والآية الكريمة تحمل تفسير المعنى بوضوح . وحاولت الاهتداء إلى تحريم كا العمل ، دع عنك الصيد ، فى يوم السبت ، مما ورد فى القرآن الكريم . فلم أهتد إلى مايثبت ذلك . بل جاء ذكر يوم السبت متصلاً بجرائم من الكبائر كانوا يقترفونها ليس من المعقول أن صيد الأسماك يقارن بها من ناحية الفسق ، بل لم يرد أى تحريم للعمل يوم السبت إطلاقًا . فكان من المهم الرجوع إلى مواثيق بنى إسرائيل .

مواثيق بنى إسرائيل

فى سورة البقرة الآيات ٦٣-٦٦ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكُمُ الطور خُذوا ما ماآتيناكُم بقوةٍ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (٦٣) ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه لكنتُم من الخاسرين (٦٤) ولقد علِمتُمُ الذين اعتَدوا منكم فى السبتِ فقُلنا لهم كونوا قِرَدَةً خَاسِئين (٦٥) فجعلناها نَكَالاً لما بين يديها وما خَلْفَها وموعِظَةً للمُتَّقين ﴾(٦٦) صدق الله العظيم ، واعتدوا فى السبت هنا كانت جريمة قتل ، وليست أخذ الحيتان على جهة الاستحلال . وشتان بين القتل وصيد السمك فى يوم عطلة .

وفى ســورة النســاء/٤٧ : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يا أيها الذين أوتُوا الكِتَابَ آمنوا بما نزّلنا مُصدِّقًا لما معكم من قَبلِ أن نَطمِسَ وجوهًا فنردَّها على أدبارها أو نلعَنَهُم كما لَعنَّا أصحاب السبتِ وكان أمرُ اللهِ مفعُولاً ﴾ .

وفى الآيتين ٧٢ ، ٧٣/البقرة : ﴿ وإذ قَتلتُم نفسًا فادَّارأتُم فيها واللهُ مُخْرِجٌ ماكُنتُم تَكْتُمون (٧٢) فقُلنا اضربُوه ببَعضِها كذلِكَ يُحيى اللهُ الموتى ويُريكُم آياتهِ لعلكُم تعقِلُون (٧٣) ﴾ صدق الله العظيم .

كانت هذه بعض الآثام التى كانوا يقترفونها ، ولعل أغلبها كان يوم السبت يوم العطلة ، وكما نقول فى الأمثال (اليد البطّالة نجسةٌ) وطبيعيًا لو كانوا يصيدون كان خيرًا . ونلاحظ هنا أنه لم يأت أى ذكرٍ لتحريم الصيد أيام السبت ولاحتى تحريم العمل أيام السبت واعتداءات بنى إسرائيل كانت أكبر من ذلك بكثير ، نذكر توضيحًا لبعضها فيما يلى : فى سورة البقرة/٦١ : بسم لله الرحمن الرحيم ﴿ وإذ قُلتُم ياموسى لن نصبِرَ على طعامٍ واحِدٍ فادعُ لنا ربَّكَ يُخرِجْ لنا مما تُنبِتُ الأرضُ من بقلِهَا وقِثَّائهَا وفُومِها وعدسها وبصلِهَا قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبِطُوا مِصرًا فإنَّ لكُم ما سألتُم وضُرِبَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ والمسكَنةُ وباءوا بغضبٍ من اللهِ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللهِ ويقتُلون النَّبِيِّين بغيرِ الحق ذلِكَ بما عَصوا وكانوا يعتَدُون (٦١) ﴾ . وفى آل عمران/١١٢ : ﴿ ضُرِبَتْ عليهمُ الذلة أينما ثُقِفوا إلا بحَبلٍ من الله وحبلٍ من الناس وباءوا بغضب من الله وضُرِبَتَ عليهم المسكَنَةُ ذلك بأنهم كانوا يكفرونَ بآياتِ اللهِ ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١١٢) ﴾ . وفى سورة المائدة/٧٨، ٧٩ : ﴿ لُعِنَ الذين كَفَروا من بنى إسرائيل على لسَانِ دَاودَ وعيسى ابنِ مريم ذلك بما عصوا وكانوا يَعتَدون (٧٨) كانوا لايتَناهَونَ عن مُنكَرٍ فَعلُوه لبِئسَ ما كانوا يفعلُون (٧٩) ﴾ صدق الله العظيم .

كل ذلك خلو تمامًا من ذكر عطلة يوم السبت ، وكلها آثام من أكبر الكبائر

لايقارن بها مطلقًا العمل يوم السبت حتى ولو كان عطلة حقيقية .

وحتى المواثيق الأخرى التى أخذها الله عليهم لم تحتو أى إشارة إلى عطلة أيام السبت : ففى سورة البقرة/٨٣، ٨٥ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وإذ أخذنا ميثاقَ بَنى إسرائيلَ لاتعبدونَ إلا الله وبالوالدين إحسانًا وذى القُربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسنًا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ ثم تَوَلَّيتُم إلا قليلاً منكم وأنتم مُعرِضُون (٨٣) وإذ أخذنا ميثاقَكُم لاتسفِكُون دماءكم ولاتُخرِجُونَ أنفُسَكُم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون (٨٤) ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخرِجُون فريقًا منكم من ديارهم تَظَاهرُون عليهم بالإثمِ والعُدوان وإنْ يأتُوكُم أُسارى تُفادُوهُم وهو مُحرَّمٌ عليكُم إخراجُهم أفتُؤمِنون ببعضِ الكِتَابِ وتكفرون ببعض فما جزاءُ من يفعلُ ذلك مِنكُم إلا خِزىٌ فى الحياةِ الدُّنيا ويَومَ القيامةِ يُرَدونَ إلى أشدِ العذاب وما اللهُ بغافلٍ عمّا تعملون (٨٥) ﴾. وفى الآيات/ ١٥٣-١٦١ من سورة النساء : ﴿ يسألُكَ أهل الكِتَابِ أن تُنزِّلَ عليهم كتَابًا من السماءِ فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك فقالوا أرنا اللهَ جهرَةً فأخذتهُم الصاعقةُ بظلمِهِم ثم اتخَذُوا العِجلَ مِن بَعدِ ما جاءتهُم البيِّنات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سُلطانًا مبينًا (١٥٣) ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخُلوا البابَ سُجَّدًا وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا (١٥٤) فبما نقضِهم ميثاقهم وكفرِهم بآياتِ اللهِ وقتلِهمُ الأنبياء بغير حق وقولهم قُلوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكُفرِهم فلايؤمِنون إلا قليلاً (١٥٥) وبكُفرِهم وقولِهِم على مَريمَ بُهتانًا عظيمًا (١٥٦) وقولهِم إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى ابنَ مَريم رسول الله وماقتلوهُ وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علمٍ إلا اتباعَ الظن وماقتلوه يقينًا (١٥٧) بل رفعه اللهُ إليه وكان اللهُ عزيزًا حكيمًا (١٥٨) وإنَّ من أهلِ الكِتابِ إلا ليُؤمِنَنَّ به قبل موتِهِ ويوم القيامةِ يكون عليهم شهيدًا (١٥٩) فبظُلمٍ من الذين هادوا حَرَّمنا عليهم طيباتٍ

أُحِلَّتْ لهم وبصدِّهم عن سبيلِ اللهِ كثيراً (١٦٠) وأخذِهمُ الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموالَ الناسِ بالباطلِ وأعتدنا للكافرينَ منهم عذاباً أليماً (١٦١) ﴾ صدق الله العظيم .

هذا من ناحية مواثيق بنى إسرائيل ونرى أنها أيضًا تعدد بعض ما كانوا يقترفون من ذنوب وآثام كلها أكبر كثيراً من صيدهم الحيتان يوم سبتهم أو عدم مراعاتهم عطلة السبت ، ولا نجد فى ذلك كله أى ذكر لعطلة يوم السبت أو تحريم الصيدِ فيه .

والآن نبحثُ عما جاء فى القرآن الكريم عن صيد الحيتان وما إذا كان قد حُرِّمَ فى أيام أو مواسم معينة .

صيد الحيتان

تناول سبحانه وتعالى فى التنزيل العزيز الصيد فى البر والبحر ومواسمه بالتقنين وبيَّن أوقاته ومواسمه ومكانه وحلاله وحرامه فمثلاً :

فى سورة المائدة/ ٩٤-٩٦ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لَيبلُوَنَّكُمُ الله بشيءٍ من الصيد تنالُه أيديكُم ورماحُكم ليعلمَ اللهُ من يخافُهُ بالغيب فمن اعتدى بعدَ ذلكَ فلهُ عذابٌ أليم (٩٤) يا أيها الذين آمنوا لا تقتلُوا الصيد وأنتُم حُرُمٌ ومن قتلهُ منكُم مُتعمِّدًا فجزاءٌ مثلُ ماقَتَلَ من النَّعَمِ يحكُمُ به ذوا عدلٍ منكُم هديًا بالغ الكَعبَةِ أو كفارةٌ طعام مساكين أو عدلُ ذلك صيامًا ليذوقَ وبالَ أمرِهِ عفا اللهُ عما سلفَ ومن عادَ فينتقمُ اللهُ منهُ واللهُ عزيزٌ ذو انتقام(٩٥) أُحِلَّ لكُمُ صيدُ البحرِ وطعامُهُ متاعًا لكُم وللسيّارة وحُرِّمَ عليكُمُ صيدُ البرِّ مادُمتُم حُرُمًا واتقُوا اللهَ الذى إليهِ تُحشَرون (٩٦) ﴾ صدق الله العظيم .

ونرى فى هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى بينما قيّد صيد البر وحرَّمه فى الأشهر الحرم وفى الإحرام ، وحرَّم قتله فيها وجعل لذلك عقابًا صارمًا ، فإنه أطلق صيد البحر وأحل طعامه للناس وللقوافل المسافرة (السَّيّارة) ولم يضع لذلك أى قيد أو شرط بل اعتبرها متاعًا للآكلين . وجاء تحديد صيد البر وإطلاق صيد البحر كل ذلك فى آية واحدة

(المائدة/٩٦) . ولذلك لا أرى أىَّ سببٍ لتحريمه يوم السبت على قرية الصيادين التى كانت حاضرة البحر ، واعتبار ذلك إثمًا كبيرًا يستحقون عليه حرمانهم من الصيد بقية الأسبوع عقابًا لهم على الصيد يوم السبت، وأن يُسخطوا قردة ، بل لم يحرم عليهم العمل يوم السبت ولامراء أن إلههم هو إلهنا وسبتهم إنما يقابل يوم الجمعة عندنا الذى أمرنا الله بصلاة الجمعة فيه جماعة بما لها من نظام خاص . وهذا كل ما أمرنا سبحانه به . وإن كنا نحن – من عندنا – نراعى العطلة فيه عن العمل . والله سبحانه وتعالى يعلم ، ويأمرنا بالعمل فى يوم الجمعة . وقد أمرنا فى سورة الجمعة بالآيتين الاثنتين بذلك فى سورة الجمعة/ ٩ ، ١٠ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصلاةِ من يوم الجُمعةِ فاسعَوا إلى ذِكرِ اللهِ وذَروا البيعَ ذلِكُم خَيرٌ لكم إن كُنتُم تعلَمون (٩) فإذا قُضِيت الصلاةُ فانتشِروا فى الأرضِ وابتغوا من فضل اللهِ واذكروا اللهَ كثيرًا لعلكم تفلحون ﴾ صدق الله العظيم . ﴿ إذا نُودِىَ للصلاةِ من يوم الجُمعةِ فاسعَوا إلى ذِكرِ اللهِ وذَروا البيعَ ذلِكُم خَيرٌ لكم إن كُنتُم تعلَمون ﴾ ألا يعنى ذلك أنه تعالى يعلم أن المؤمنين يكونون فى عملهم صباح يوم الجمعة إلى أن يحين وقت صلاة الجمعة . وحينئذٍ يتركون عملهم لتأدية الفريضة ؟ ثم يقول عز وجل من قائل :﴿ فإذا قُضِيت الصلاةُ فانتشِروا فى الأرضِ وابتغوا من فضلِ اللهِ واذكروا اللهَ كثيرًا ﴾ . أليس معنى هذا أنه يأمرنا بالعمل والسعى وراء الرزق بعد انقضاء صلاة الجمعة أيضًا ؟ ثم يأمرنا بعد ذلك بأن نذكر الله كثيرًا ، أى ونذكر آلاءه وأنعمه « لعلكم تفلحون » . لست أرى أن ذلك يتسق مع اعتبار أهل القرية التى كانت حاضرة البحر فاسقين أو معتدين، عادين إذا صادوا « إذ تأتيهِم حيتَانُهم يومَ سبتِهِم شُرَّعًا » وهى لاتأتيهم فى أى يوم آخر . والذى أراه أنهم لم يكونوا يصيدون يوم السبت « إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهِم حيتَانُهم يومَ سبتِهم شُرَّعًا » فى حين أنها « يوم لايسبتون لاتأتيهم » والذى أراه أيضًا أنهم لم يكونوا يصيدون إذ يصرفهم عن ذلك فسقهم فى عطلة يوم السبت . فكان الله تعالى يعاقبهم على ذلك بصرف الحيتان عنهم يوم لايسبتون.

أُحِلَّتْ لهم وبصدِّهم عن سبيلِ الله كثيرًا (١٦٠) وأخذِهمُ الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموالَ الناسِ بالباطلِ وأعتدنا للكافرينَ منهم عذابًا أليمًا (١٦١) ﴾ صدق الله العظيم .

هذا من ناحية مواثيق بنى إسرائيل ونرى أنها أيضًا تعدد بعض ما كانوا يقترفون من ذنوب وآثام كلها أكبر كثيرًا من صيدهم الحيتان يوم سبتهم أو عدم مراعاتهم عطلة السبت ، ولا نجد فى ذلك كله أى ذكر لعطلة يوم السبت أو تحريم الصيدِ فيه .

والآن نبحثُ عما جاء فى القرآن الكريم عن صيد الحيتان وما إذا كان قد حُرِّمَ فى أيام أو مواسم معينة .

صيد الحيتان

تناول سبحانه وتعالى فى التنزيل العزيز الصيد فى البر والبحر ومواسمه بالتقنين وبيَّن أوقاته ومواسمه ومكانه وحلاله وحرامه فمثلاً :

فى سورة المائدة/ ٩٤-٩٦ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لَيبلُوَنَّكُمُ الله بشيءٍ من الصيد تنالُه أيديكُم ورماحُكم ليعلمَ اللهُ من يخافُهُ بالغيب فمن اعتدى بعدَ ذلكَ فلهُ عذابٌ أليم (٩٤) يا أيها الذين آمنوا لا تقتُلوا الصيد وأنتُم حُرُم ومن قتلهُ منكُم مُتَعمِّدًا فجزاءٌ مثلُ ماقَتَلَ من النَّعَمِ يحكُمُ به ذوا عدلٍ منكُم هديًا بالغ الكَعبَةِ أو كفارةٌ طعام مساكين أو عدلُ ذلك صيامًا ليذوقَ وبالَ أمرِهِ عفا اللهُ عما سلفَ ومن عادَ فينتقِمُ اللهُ منهُ واللهُ عزيزٌ ذو انتقام(٩٥) أُحِلَّ لكُمُ صيدُ البحرِ وطعامُهُ متاعًا لكُم وللسيّارة وحُرِّمَ عليكُمُ صيدُ البرِّ مادُمتُم حُرُمًا واتقُوا اللهَ الذى إليهِ تُحشَرون (٩٦) ﴾ صدق الله العظيم .

ونرى فى هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى بينما قيّد صيد البر وحرَّمه فى الأشهر الحرم وفى الإحرام ، وحرَّم قتله فيها وجعل لذلك عقابًا صارمًا ، فإنه أطلق صيد البحر وأحل طعامه للناس وللقوافل المسافرة (السَّيّارة) ولم يضع لذلك أى قيد أو شرط بل اعتبرها متاعًا للآكلين . وجاء تحديد صيد البر وإطلاق صيد البحر كل ذلك فى آية واحدة

(المائدة/٩٦) . ولذلك لا أرى أيَّ سببٍ لتحريمه يوم السبت على قرية الصيادين التي كانت حاضرة البحر ، واعتبار ذلك إثمًا كبيرًا يستحقون عليه حرمانهم من الصيد بقية الأسبوع عقابًا لهم على الصيد يوم السبت، وأن يُسخطوا قردة ، بل لم يحرم عليهم العمل يوم السبت ولامراء أن إلههم هو إلهنا وسبتهم إنما يقابل يوم الجمعة عندنا الذى أمرنا الله بصلاة الجمعة فيه جماعة بما لها من نظام خاص . وهذا كل ما أمرنا سبحانه به . وإن كنا نحن – من عندنا – نراعى العطلة فيه عن العمل . والله سبحانه وتعالى يعلم ، ويأمرنا بالعمل فى يوم الجمعة . وقد أمرنا فى سورة الجمعة بالآيتين الاثنتين بذلك فى سورة الجمعة/ ٩ ، ١٠ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصلاةِ من يوم الجُمعةِ فاسعَوا إلى ذِكرِ اللهِ وذَروا البيعَ ذلِكُم خَيرٌ لكم إن كُنتُم تعلَمون (٩) فإذا قُضِيت الصلاةُ فانتشِروا فى الأرضِ وابتغوا من فضل اللهِ واذكروا اللهَ كثيرًا لعلكم تفلحون ﴾ صدق الله العظيم . ﴿ إذا نُودِىَ للصلاةِ من يوم الجُمعةِ فاسعَوا إلى ذِكرِ اللهِ وذَروا البيعَ ذلِكُم خَيرٌ لكم إن كُنتُم تعلَمون ﴾ ألا يعنى ذلك أنه تعالى يعلم أن المؤمنين يكونون فى عملهم صباح يوم الجمعة إلى أن يحين وقت صلاة الجمعة . وحينئذٍ يتركون عملهم لتأدية الفريضة ؟ ثم يقول عز وجل من قائل :﴿ فإذا قُضِيت الصلاةُ فانتشِروا فى الأرضِ وابتغوا من فضل اللهِ واذكروا اللهَ كثيرًا ﴾ . أليس معنى هذا أنه يأمرنا بالعمل والسعى وراء الرزق بعد انقضاء صلاة الجمعة أيضًا ؟ ثم يأمرنا بعد ذلك بأن نذكر الله كثيرًا ، أى ونذكر آلاءه وأنعمه « لعلكم تفلحون » . لست أرى أن ذلك يتسق مع اعتبار أهل القرية التى كانت حاضرة البحر فاسقين أو معتدين، عادين إذا صادوا « إذ تأتيهم حيتَانُهم يومَ سبتِهم شُرَّعًا » وهى لاتأتيهم فى أى يوم آخر . والذى أراه أنهم لم يكونوا يصيدون يوم السبت « إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتَانُهم يومَ سبتِهم شُرَّعًا » فى حين أنها « يوم لايسبتون لاتأتيهم » والذى أراه أيضًا أنهم لم يكونوا يصيدون إذ يصرفهم عن ذلك فسقهم فى عطلة يوم السبت . فكان الله تعالى يعاقبهم على ذلك بصرف الحيتان عنهم يوم لايسبتون.

وإذ تأتيهم الحيتان يوم السبت وهم يفسقون فيه عذابٌ نفسيٌّ أعظم .

أمـا لماذا كـانوا يراعـون عطلة يوم السـبت فـهـذا مـا لم أجـد عندى من المراجع التى تنبئنى بصراحة عنه . وقد تكون هذه سُّنةً سنَّهـا إسـرائيل عليـه السلام ليتفرغوا فيه للعبادة ، والتى بدلاً منها انصرفوا إلى الفسوق فحق عليهم عقابُ اللهِ تعالى « كذلك نبلوهم بما كانوا يفسُقون » . أى أن تكون هذه العطلة من بين السُّنن التى استنها نبيُّ الله إسرائيل عليه السلام مثل : تحريم بعض الطعام على نفسه ﴿ كلُّ الطعامِ كان حِلاً لبنى إسرائيلَ إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قـبل أن تُنَـزَّلَ التـوراة ، قل فـأتوا بالتـوراة فـاتلوها إن كُنتُم صـادقين ﴾ صدق الله العظيم ، سورة آل عمران/ ٩٣ ، ٩٤ .

ختام :

وفى ختـام حديثى هـذا لايسـعنى إلا أن أتجه إلى العلىِّ القدير حامداً إياه أن قد هدانى لهذا ، ومكننى من القيام به ، ومستغفراً إياه عن أى خطأ أكون قد وقعت فيه ، فى التفكير أو التعبير أو التفسير أو التقصير . فما قصدتُ إلا الصدع بأمره تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فـانظروا كـيف بدأ الخلق ﴾ . وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ فى ذلك . كما أرجو أيضًا أن لا أكون قد تجرّأتُ على الأولين الذين أسسوا صرح هذه العلوم والذين أُكِنُّ لهم كل الاحترام والتبجيل ، ولا أقلل ولا أمس[illegible] فى علو قدرهم ، وإخلاصهم واجتهادهم وتضحياتهم وإيمانهم وأمانتهم . أعظمَ اللهُ ثوابهم بما قدموا . وأنا لم أقصد إلا إبداء رأيى . والقاعدة فى الآراء الاختلاف وإلا لما كانت الشورى . ﴿ سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

ولكم أيهـا السـادة الكرام الأعـزاء رجائى قبول عظيم شكري وامتنانى على جميل إنصاتكم ، وفقكم اللهُ وسدد خطاكم ومتعكم بالصحة والسعادة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حامد جوهر

عضو المجمع

شخصيات مجمعية



أولا : الاستقبال :

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ١٣ من مارس سنة ١٩٩١ عقد المجمع جلسة علنية لاستقبال عضو المجمع الجديد الأستاذ الصحفي الكبير مصطفى أمين يوسف الذى اعتذر من عدم الحضور بسبب وعكة صحية ألمتْ به فجأة ، وأناب عنه فى إلقاء كلمته الأستاذ إبراهيم الترزى عضو المجمع ، أما كلمة المجمع فى حفل استقباله فقد ألقاها فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد الطيب النجار عضو المجمع .

وفيما يلى نص الكلمات التى ألقيت فى الحفل :



كلمة المجمع
في استقبال العضو الجديد
الأستاذ مصطفى أمين

للدكتور محمد الطيب النجار
عضو المجمع

أيها السادة الأجلاء والإخوة الأكارم ،
سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

وبعد فإنه ليُسْعِدُ مجمع الخالدين أن يستقبل اليوم علمًا من أعلام الكُتاب البارزين فى مصر بل فى العالم العربى بأسره ، ذلكم هو الكاتب الفذ الأمين الأستاذ الكبير مصطفى أمين ، ونحن إذْ نحيى كاتبنا الجليل فإنما نحيى فيه حرية الرأى ونزاهة القلم ورسوخ القدم والإخلاص فى القول والعمل .

ولاشك أن النجاح فى هذه الحياة ليس بالأمر الهين الميسور لكل إنسان بل لابُدَّ لمن ينشده أن يتزود له بالأساس الصالح والعمل الدائب والكفاح الموصول . ذلكم بأن العظيم لايمكن أن يبنى مجده من الأوهام ولامن أحجار ملقاة فى الرغام ، إنما يبنى العظيم مجده من النجوم . ويمضى إلى غايته صاعدًا فوق أشلاء المتاعب والمصاعب .

وإن المقياس الصحيح الذى تقاس به الحياة وتوزن على ضوئه الآجال والأعمار ليس هو السنين الطويلة ولا الزمن المديد ، وإنما هو العمل الصالح والذكر الحميد ، وكما يقول الحكماء :

عمر الرجال يقاس بالمجد الذى
شادوه لابتقادم الميـــلاد

والناس فى هذه الحياة رجلان : رجل يفهم من الحياة مجرد العيش الرغيد والمتاع الشهى والمال الكثير . ومثل هذا الرجل لاخير فى حياته ولاقيمة لوجوده لأنه يعبر الحياة سابحًا فى ظلام الأنانية محاطًا بغلاف الأثرة الكثيف . دائرًا حول نفسه لايلوى على شئ إلا على منافعه ومآربه .

ورجل آخر يفهم من الحياة أن يكون حيًا فى أذهان الناس بأعماله ، متوغلاً فى أعماق الزمن بجليل مآثره وكريم أفعاله تتحدث الدنيا بما أسدى إليها من

الخير . وما قدم لها من البر والمعروف . ومثل هذا الرجل هو الذى يعرف قيمة الحياة ويدرك الأسرار الحقيقية للمجد والخلود .

وعلى هذا الأساس السليم والمنهج القويم نجد أخانا وزميلنا الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين يتخذ سبيله فى الحياة مخلصًا فى جهاده وكفاحه حتى غدا فى سماء الصحافة نجمًا ساطعًا وسما برسالتها فجعلها خالصة فى الدفاع عن الحق وذاد عنها سلطان الأهواء وطغيان الأحقاد واستبداد الفساد ، ولاغرو فهو الذى نشأ فى بيت الأمة بيت الزعامة الوطنية بيت الزعيم الخالد سعد زغلول وعرف منه معنى الوطنية وتنفس إلى جواره عبير الحرية ، وكان يردِّد معه دائمًا قوله الخالد : « إن الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة » وقوله : « يجب أن ينظر كل فرد من أفراد الشعب إلى حكامه نظر الجندى إلى قائده لانظر الطير إلى صائده » .

أيها السادة الأجلاء

لقد ولد مصطفى محمد أمين فى بيت الأمة بيت الزعيم الخالد سعد زغلول وهو جده لأمه وكان مولده فى ٢١ من فبراير عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر ، وتلقى تعليمه الابتدائى والثانوى فى المدارس المصرية ، ثم التحق بكلية الحقوق وسافر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة حيث التحق بجامعة چورچ تاون وحصل منها على شهادة الـ (M. A) مع مرتبة الشرف فى العلوم السياسية والاقتصاد والصحافة عام ألف وتسعمائة وثمان وثلاثين .

وقد بدأ عمله بالصحافة منذ كان طالبًا بالتعليم الثانوى فاشترك فى تحرير الرغائب وفى مجلة روز اليوسف وقام بتحرير باب القصة فى مجلة الفكاهة التى كانت تصدرها دار الهلال مع عمله بمجلة روز اليوسف . وفى عام ١٩٣٤ انفصل عن روز اليوسف واشترك فى مجلة آخر ساعة نائبًا لرئيس تحريرها الأستاذ محمد التابعى وشارك فى نفس الوقت فى تحرير جريدة الجهاد مع مديرها الأستاذ محمد توفيق دياب وكان يكتب فيها كل يوم عمودين تحت عنوان (مشاغبات) . وكانت مشاغباته هادئة هادفة . ثم تولى رئاسة تحرير مجلة آخر ساعة عام ١٩٣٨ . وفى عام ١٩٣٩ عين رئيسًا لقسم الأخبار بجريدة الأهرام ومحررًا دبلوماسيًا بها . وبعد عامين اثنين تولى رئاسة تحرير مجلة الاثنين والدنيا التى أصبحت أوسع المجلات انتشارًا وذلك إلى جانب عمله

بجريدة الأهرام . وفى ١١ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ أصدر مع شقيقه التوأم المرحوم على أمين جريدة أخبار اليوم . وقد أحدثت هذه الجريدة اهتمامًا بالقارئ . ولأول مرة فى تاريخ الصحافة تصبح هذه الجريدة منذ عددها الأول أوسع الصحف انتشارًا فى الشرق الأوسط . وقد بدأت أخبار اليوم فى شقة متواضعة بشارع قصر النيل بالقاهرة ثم أصبحت الدار بعد ذلك مبنى ضخمًا من أحد عشر طابقًا وتشتمل على أحدث معدات الطباعة وأصبح بها مايزيد على أربعة آلاف محرر وموظف وعامل ثم أقامت أخبار اليوم مبنى آخر من تسعة طوابق أمام المبنى الأول . وقد صادفت أخبار اليوم متاعب ضخمة وتعرضت لأزمات عصيبة هددها قرار الإفلاس عدة مرات وذلك بسبب استقلالها فى الرأى ومواقفها الوطنية المستمرة .

وفى عام ١٩٤٤ انتخب الأستاذ مصطفى أمين عضوًا بمجلس النواب . وفى عام ١٩٤٦ اشترى الأخوان مصطفى أمين وعلى أمين مجلة آخر ساعة من الأستاذ محمد التابعى وصدرت المجلة عن دار أخبار اليوم ثم أصدر الأخوان مصطفى أمين وعلى أمين مجلة الجيل . وفى نفس العام أصدرا جريدة الأخبار اليومية التى أصبحت الآن أوسع الصحف اليومية انتشارًا .

وفى عام ١٩٦٠ صدر قرار تنظيم الصحافة وأخذت أعاصير السياسة الهوجاء تعصف بالأستاذ مصطفى أمين فلفقت التهم الباطلة جزاءً وفاقًا لما كان يبديه من الآراء الحرة التى لم تتلاءم مع أفكار المسئولين فى ذلك الحين فنقل من رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم إلى مجرد إشراف شكلى على الجريدة . ومع ذلك فإنه لم يتخل عن مواصلة أفكاره ولم يتزحزح قيد أنملة عن المضى فى مساره.

وفى عام ١٩٦٥ ألقى القبض على مصطفى أمين بتهمة التعامل مع المخابرات الأمريكية وصدر الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . وكان الذى تولى كبر هذا الاتهام الباطل صلاح نصر الذى طغى وبغى وأمعن فى تعذيب الأستاذ مصطفى أمين لإرغامه على الاعتراف بأعمال لم يقارفها . وقد شاء الله بعد ذلك إلا أن يؤخذ هذا الظالم بظلمه ويذوق وبال أمره حيث حكم عليه بالسجن عشر سنين ، وثبتت براءة الأستاذ مصطفى أمين وأصدر رئيس الجمهورية قرارًا بالعفو عنه ليعود إلى الكفاح والنضال من أجل حرية الرأى

والإخلاص للوطن وقد قدم الاستاذ مصطفى أمين للمكتبة العربية اكثر من أربعين كتابًا عالج فيها كثيرًا من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية وكان من أهمها : المائتا فكرة ، وأفكار ممنوعة ، وأمريكا الضاحكة ، وكتبه الخمسة من سنة أولى سجن إلى سنة خامسة سجن ، وشخصيات لاتنسى ، وأسماء لاتموت ، وقلمى يضحك ويبكى ، ومن فكرة إلى فكرة ، وتحيا الديمقراطية ومن واحد إلى عشرة ، ومن عشرة إلى عشرين ، وعمالقة وأقزام ، وصاحبة الجلالة فى الزنزانة ، وصاحب الجلالة الحب إلخ .

ومن حقكم الآن أن تستمعوا إليه حينما يتحدث عن الصحافة فيقول : « الصحافة صاحبة جلالة ولكن الصحفى ليس ملكًا ، إنه جندى يحرس حريتها بقلمه ، وحريتها ليست حرية الصحفيين وحدهم ، بل حرية الشعب كله . ومن أجل ذلك كان قلم الصحفى هو صولجانه ، وكان سلاح الصحفى هو لسانه وكانت نزاهة الصحفى هى تاجه ، وحرية الصحفى هى جلالته وقيود الصحفى هى ذله وهوانه » .

وحينما يقول عن الديمقراطية فى كتابه « تحيا الديمقراطية » : « أول أساس الديمقراطية هو حرية المواطن فى أن يختلف مع الحاكم فى الرأى فلا يُعاقب على رأيه ولايرغم على السكوت ولايفصل من حزبه أو من وظيفته أو من جريدته أو من عمله ، أو من عضوية مجلس الشعب » .

ثم يقول : « وقد عرفت مصر طريقها عندما عرفت طريق الحرية وستعرف عن هذا الطريق الطريق إلى الرخاء . والذين يقاومون الحرية والديمقراطية والعدالة فى بلادنا يريدون منا أن نبقى فقراء ضعفاء مسحوقين لأنهم يعلمون أنهم لايستطيعون السيطرة على الأحرار وإنما يستطيعون أن يسيطروا على العبيد المستسلمين . ولن تستسلم مصر بعد اليوم لأحد » .

ثم يقول : « إن الرخاء لايعيش بين الأسلاك الشائكة ولا فى ظل التهديد والوعيد وإنما يعيش حيث يوجد الأمن والأمان ويستقر حيث يوجد القانون والحرية . وفى عصور الحكم الفردى تختنق الكفايات وتموت العبقريات ويصبح النبوغ جريمة يعاقب عليها القانون » .

وفى كتاب (المائتا فكرة) يتحدث عن رجل الدين وكيف يجب أن يعتز بكرامته يقول : « لقد رأى منصب شيخ الإسلام فى مصر رجالاً أقوياء تعتز بهم مصر ،

وأذكر أن واحداً من هؤلاء الشيوخ دُعِيَ لحضور حفلة لدى خديو مصر وأراد العاهل المصرى أن يجامل شيخ الأزهر فأرسل إليه عباءة ثمينة ليرتديها فى الحفل نظراً لأن شيخ الأزهر هذا كان معروفًا بالزهد ولايرتدى الثياب الفاخرة ولكن شيخ الأزهر أرسل سكرتيره يحمل العباءة إلى الحفلة ومعها خطاب للخديوى يقول فيه : « أرسل إليكم عباءتكم لتحضر الحفلة بالنيابة عنى » .

وأعرف شيخ إسلام آخر أبلغته الحكومة بأنها خصصت له سيارة ليركب فيها ولكنه اعتذر من عدم ركوبها وأرسل إلى رئيس الوزراء حسين رشدى باشا يقول له : « إن حمارى أضمن وأسرع وأقترح توزيع ثمن السيارة على فقراء المسلمين ، وأعرف أن ثورة ١٩١٩ كانت تعتبر الجامع الأزهر قلعتها الثانية وفوق منبر الأزهر وقف القسس يعانقون الشيوخ ووقف القس سرجيوس يخطب فى الناس ويقول : « أتعرفون لماذا ترون وجوه الإنجليز لونها أحمر ؟ لأنهم يشربون دماء الشرقيين الذين يستعمرونهم » !!

فى تاريخ الشرق ظهر رجال دين يحملون بيمينهم مشعل الدين وبيسارهم مشعل الحرية . فيهم المسلمون وفيهم المسيحيون ولكن جمعهم الإيمان بأن حب الوطن هو جزء من حب الله . وأن الكفاح الوطنى هو صلاة مقدسة مقبولة عند الله » .

وبعد فهذه إشارات خاطفة وكلمات محدودة عن الرجل الذى نذر حياته للدفاع عن الحق وتنفس به العمر فى ميدان الجهاد وتمرس بشدائد الحياة واستعذب الآلام فى سبيل تحقيق رسالته وراض نفسه على أدب اللسان والقلم . فكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة وتثقفت بالتجربة وقويت بالمران حتى غدا الكاتب الفذَّ الذى لايعرف اللغو . والذى تصدر عنه الكتابة عادة مستحكمة وطبيعة ملازمة ، فالفكر عميق والأسلوب رائق شائق دقيق والألفاظ منتقاة متخيرة تقع من النفوس موقع الماء من ذى الغلة الصادى وتتصل إلى القلوب دون أن يحجبها حجاب أو تغلق دونها أبواب .

فتحية طيبة للأستاذ الكبير مصطفى أمين ، ومرحبًا به فى عرين اللغة العربية حارسًا أمينًا ومجاهدًا مخلصًا . وأسأل الله أن يزيده هدى ورشادًا وتوفيقًا وسدادًا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد الطيب النجار

عضو المجمع



كلمة العضو الجديد
الأستاذ مصطفى أمين

الأستاذ الجليل رئيس المجمع

الأساتذة الأجلاء الأعضاء

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ،

وبعد

فإنه لشرف عظيم لى أن أنضم إلى مجمع الخالدين ، وهو شرف كبير لم يخطر ببالى ، ولم يمرّ بخيالى . وأعتقد أنكم لم تنتخبونى لشخصى ، ولكن لأننى واحد من جنود الصِّحافة التى شرّفها المجمع دائمًا بأن يختار واحدًا من أعضاء أسرتها ليكون عضوًا فيه . شرف قبلى كثير من الصحفيين بعضوية المجمع اللغوى أذكر منهم الأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازنى ، والأستاذ أحمد أمين رئيس تحرير مجلة الثقافة ، وأحمد حافظ عوض بك صاحب جريدة كوكب الشرق ، والدكتور أحمد زكى رئيس تحرير مجلة الهلال ورئيس تحرير مجلة العربى فى الكويت ، وأستاذنا أحمد لطفى السيد باشا رئيس تحرير جريدة الجريدة ، وإسماعيل مظهر رئيس تحرير مجلة المصور ، والشاذلى القليبى رئيس تحرير جريدة الصباح اليومية فى تونس ورئيس تحرير جريدة صوت العمل التى كان يصدرها الاتحاد العام التونسى ، وأمين الخولى الذى نذكر مقالاته الرائعة فى مجلة الرسالة والسياسة الأسبوعية ، والمقتطف ، والأب أنستاس الكرملى صاحب مجلة لغة العرب فى لبنان ، وأنطون الجميل مؤسس مجلة الزهور ورئيس تحرير جريدة الأهرام ، وتوفيق الحكيم ، وطه حسين رئيس تحرير جريدة كوكب الشرق ، والوادى ، والمحرر فى جرائد السياسة والاتحاد والجهاد ، وعباس محمود العقاد المحرر فى البلاغ والجهاد والضياء والأخبار والأساس ، وعبدالقادر المغربى المحرر فى جريدتى الظاهر والمؤيد ، وعبدالقادر حمزة باشا صاحب جريدة البلاغ وعشرات الصحف التى صادرتها الحكومة ، وأول من كتب المقال القصير فى الصِّحافة . وعيسى إسكندر المعلوف محرر جريدة لبنان ، ودكتور فارس نمر باشا أحد أصحاب جريدتى المقطم والمقتطف ، ومحمد توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد اليومية ،

والذى أصدر عشرات الصحف والمجلات التى عطلتها الحكومة ، والدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة اليومية ومجلة السياسة الأسبوعية ومحمد زكى عبدالقادر رئيس تحرير الأهرام وأحد رؤساء تحرير جريدة الأخبار اليومية ، ومحمد عبدالله عنان المحرر بجريدة السياسة والمؤرخ المعروف ، ومحمد فريد أبو حديد رئيس تحرير مجلة الثقافة ، ومحمد كرد على صاحب جريدة القبس اليومية فى دمشق ، والدكتور حسين مؤنس الكاتب الصحفى المعروف .

ولعل البعض منا لايعرف أنه عندما تُوفى أنطون الجميل باشا رئيس تحرير جريدة الأهرام عام ١٩٤٨ اجتمع مجلس إدارة الأهرام واختار الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس المجمع الحالى رئيسًا للتحرير ، ولكن القصر الملكى رفض الموافقة على الاختيار ، لأن الدكتور مدكور كان من المعارضين .

سادتى

إن مرسوم إنشاء المجمع نصّ على أن من أغراضه أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، وقد قام المجمع منذ إنشائه بهذه المهمة ولايجاريه فيه هيئة علمية أخرى فى العالم العربى وأقر المجمع عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية .

وقامت الصحافة المصرية بتبسيط اللغة وتسهيلها ، وبعد أن كان يقال إن كاتب هذا المقال لايفهمه إلا خمسة من القراء أصبح المقال يفهمه الملايين . واللغة ليست مقصورة على الكتب والصحف ، بل تمتد إلى المسرح والسينما والإذاعة المسموعة والمرئية . ومما يدعو إلى الأسف أن اللغة العربية هبطت فى السنوات الأخيرة ، وانتشرت اللغة الهابطة فى المسرح والسينما والإذاعة المسموعة والمرئية بل فى بعض الصحف والمجلات ، وذاعت كلمات هابطة على ألسنة الأولاد والبنات ، وانتشرت بين النساء والرجال . وبعد أن كان الشباب فى أيامنا يرددون قصائد شوقى وحافظ إبراهيم أصبح الشباب يردد أزجالاً وأغانى نزلت إلى هاوية من الإسفاف . وأرى أنه يجب علينا أن نقاوم هذه الموجة ونطالب بأن يعود للغة احترامها .

سادتى

من سُنن المجمع الحميدة أن يُعرِّف العضو الخالف بالعضو السالف الذى خلفه على كرسيه . وقد كان سلفى الدكتور المهندس إبراهيم أدهم الدمرداش شخصية عظيمة ، وشاعراً موهوباً وأديباً كبيراً ، ومهندساً عملاقاً ، قرأت تاريخه وأبحاثه وشعرتُ أننى عاجز عن أن أملأ كرسيه أو أؤدى للمجمع بعض ما أداه . ولد الدكتور الدمرداش عام ١٩٠٦ ، ونال بكالوريوس الهندسة سنة ١٩٢٥ من مدرسة الهندسة العليا ، وسافر فى بعثة إلى سويسرا ، حيث نال دبلوم الهندسة المدنية سنة ١٩٢٨ من جامعة زيورخ ، ثم نال فى سنة ١٩٣٠ شهادة الدكتوراه فى العلوم الهندسية من جامعة زيورخ ولم يكتف بدرجاته العلمية بل التحق بعدد من المصانع الكبرى فى سويسرا عاملاً حتى يدرس الجانب العملى إلى جانب العمل العلمى . ودخل بعض المصانع الكبرى وتدرب على العمل فى كثير فروعها ، ثم عين مدرساً بمدرسة الهندسة ، ثم أستاذاً مساعداً بكلية الهندسة ، وعندما تحولت مدرسة الهندسة إلى كلية الهندسة أصبح أستاذ كرسى حساب الإنشاءات ثم أصبح عميد كلية الهندسة بجامعة القاهرة ثلاث مرات فى سنوات ١٩٥٢ و١٩٥٤ و١٩٦٢ .

ثم انتخب نقيباً للمهندسين فى سنة ١٩٥٥ و١٩٥٦ ، ونال جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٨ وانتخب عضواً فى المجمع اللغوى سنة ١٩٧٣ فى الكرسى الذى خلا بوفاة القانونى العظيم الدكتور عبدالرازق السنهورى وتزيد بحوثه العلمية على الأربعين بحثًا .

وامتاز الفقيد بثقافة رفيعة وعلم غزير، وكانت له قصائد رائعة فى رثاء عدد من أعضاء المجمع اللغوى ، الذين تُوُفُّوا إلى رحمة الله . كان الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش أستاذاً عظيماً ، وله تلاميذ كثيرون نبغوا على يديه وانتشروا فى جميع البلاد العربية يبنون وينشئون ويعمرون وأصبحت هذه الإنشاءات العظيمة تماثيل للدكتور الدمرداش فى كل عاصمة عربية .

أيها السادة

إننى عاجز عن شكر الدكتور الشيخ محمد الطيب النجار على كلمته الكبيرة التى استقبلنى بها ، وعلى الصفات الكثيرة التى أسبغها علىّ وأتمنى أن أكون جديراً بهذه الصفات فى يوم من الأيام .

ولست أكثر من كاتب صحفى ، يقول مايعتقد ، ويؤمن بكل مايقول ، ويرى أن الصحافة هى أن تقول للحاكم مايريده

الشعب قبل أن تقول للشعب مايريده الحاكم .

وأخيراً أقول : إننى أتوقع فى المستقبل تغييرات كثيرة ومخترعات عديدة فى عصر الإلكترون ، أتوقع أن تُلغى المدارس والجامعات ، وأن يصبح التعليم فى البيت بفضل الاختراعات الإلكترونية ، وأن يجلس الطالب فى بيته ويدوس على زر فيسمع المحاضرات التى يريدها فى كل علم وفن ، ويسأل مايريد من الأسئلة ويسمع إجابات العلماء عن كل سؤال ، ويستطيع الطالب أن يجلس فى القاهرة ويرى ويسمع المحاضرات فى جامعة لندن أو جامعة باريس أو جامعة موسكو أو جامعة واشنطن ، وهذا يدعونا إلى أن نجد لغة مفهومة فى كل بلد عربى لاتحتاج إلى شرح ولا إلى قاموس .

العالم مقبل على حضارة عظيمة وستكونون أنتم أيها السادة رُسُلَ هذه الحضارة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مصطفى أمين

عضو المجمع

التأبين

(أ) فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ٨ من نوفمبر سنة ١٩٨٩ أقام المجمع حفلاً لتأبين عضوه الراحل الأستاذ محمد مرسى أحمد . وقد ألقى كلمة المجمع فى تأبين الراحل الكريم الأستاذ الدكتور محمود مختار عضو المجمع .

وفيما يلى نص الكلمات التى ألقيت فى الحفل :

كلمة الدكتور إبراهيم مدكور
رئيس المجمع
في رثاء الفقيد

سيداتى – سادتى

أحـيـيكم بتـحـيـة الإسـلام وأشكر لحضراتكم كريم مواساتكم لنا فى تأبين الفـقـيـد . وإنه ليعـز علينا أن نرى الموت يخطف زمـلاءنا واحـدًا وراء الآخـر وفى فترات متقاربة . فما تكاد دموعنا تجف على زميل راحل حتى تعود فتنهمر على زميل آخر . ولقد ودع المجمع منذ أيام قليلة الزمـيل الكريم والعـالم الجليل الدكتور محمد مرسى أحمد الذى اغتالته المنية فجأة وعلى غير انتظار فقضى بين عشية وضحاها . لقد اعتكف عنا الفقيد أعوامًا طويلة كان يصارع فيها المرض ولكنه انتـهى إلى حيث أراد الله لكل حى أن ينتهى . لقد كانت خسارتنا فيه فادحة وفجيعتنا فيه أليمة . لقد ترك بيننا فراغًا ليس من السهل أن يشغله سواه . على أننا إذ نبكى الدكتور محمد مرسى أحمد فإننا لانبكى فيه عضوًا مجمعيًا ممتازًا فحسب ولكننا نبكى فيه علمًا من أعلام الرياضيات ورائدًا من رواده ، نبكى فيه عالمًا تجاوزت كفايته الرياضية حدود بلده وشع ضوؤها على كثير من البلاد العربية فقد اجتمع للفقيد من صفات الصبر والجلد والقدرة ومواصلة العمل مالم يتهيأ إلا للقليل جدًا من الناس .

هذا أيها السادة هو فقيدنا الذى نجتمع اليوم لتكريم ذكراه رحمه الله وطيب ثراه وجعل الجنة مستقره ومثواه .

كلمة المجمع فى
تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مرسي أحمد

للدكتور محمود مختار
عضو المجمع

السيد الأستاذ الكبير رئيس المجمع

السادة الأساتذة الزملاء الكرام

أعضاء المجمع

السادة الأجلاء من أسرة الفقيد

سيداتى وسادتى

أليم على النفس أن يقف المرء لتأبين زميل وصديق عزيز أغلى مايكون الإعزاز والصداقة . وإنى إذ أولانى المجمع شرف إلقاء كلمة تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مرسى أحمد فقيد المجمع بل فقيد الوطن وفقيد العروبة ، أكاد لا أجد عبارة استهل بها حديثى خيرا مما أستهل به رائد الجيل العلمى فى مصر المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف عند استقباله للدكتور محمد مرسى أحمد عضوا فى هذا المجمع منذ سبعة وعشرين عاما . قال مصطفى نظيف :

« إنى إذ أتولى اليوم تقديم صديقى الدكتور محمد مرسى أحمد عضواً بالمجمع أوثر أن أقدمه لا بصفته مديرا لجامعة عين شمس وإنما بصفة من صفاته الذاتية تلازمه ولا تنفك عنه ، تصدر عنها أفعاله وتصرفاته فى الأعمال التى يمارسها والمناصب التى يتولاها تلك هى صفته العلمية .

فالدكتور مرسى عالم من علماء الرياضيات له مكان الصدارة بين أصحاب هذا العلم لافى مصر وحدها بل فى العالم العربى جميعا . وله منزلة مرموقة فى الدوائر والهيئات العلمية فى الخارج » .

تلك كانت كلمة الأستاذ مصطفى نظيف التى زادتها الأيام والسنون قوة على قوة وتأكيداً فوق تأكيد .

وكان من حق الفقيد على المجمع أن يجلو حياته الحافلة منذ نشأته حتى لقاء ربه بتفصيل دقيق ، ولكن هذا المقام المحدود لا يستطيع إلا أن يوجز ذلك إيجازا أو أن يجمع أطرافه فى أضيق ما يكون الجمع . فعذرا مسبقا إن لم أوفيه كل حقه .

فقيدنا العزيز الدكتور مرسى ولد فى أواخر العقد الأول من هذا القرن ببلدة أولاد يحيى مركز البلينة من محافظة سوهاج . وهى المحافظة التى أعطت مصر روادا وعلماء من أمثال رفاعة الطهطاوى والمراغى . وتلقى محمد مرسى تعليمه الابتدائى والثانوى فى أسيوط حتى حصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢٥ وكان ترتيبه الثالث فيها . وكان يريد له الوالد أن يدرس الطب ولكنه آثر مهنة التعليم فالتحق بمدرسة المعلمين العليا التى اختارها عن قصد وروية ، ولعله آنس فى نفسه الرغبة فى الاستزادة من العلوم الأساسية وخاصة علوم الرياضيات التى نبت حبه لها منذ المرحلة الثانوية . وواتاه الحظ بمنحه فرصة أكبر لإشباع رغبته وهوايته فى الاستزادة من علوم الرياضيات . ففى تلك السنة ١٩٢٥ أنشئت أول كلية جامعية لدراسة العلوم الأساسية فى مصر بل فى الوطن العربى كله . ،كان إنشاؤها حدثا علميا بارزاً فى تاريخ النهضة العلمية لافى مصر وحدها بل فى الوطن العربى . بها دخلت ميدان العلوم الأساسية المتقدمة وسارت فى ركب النهضة العلمية العالمية على مستوى التعليم الجامعى وفى البحث العلمى وفى التطبيق .

ووفرت الجامعة للكلية الناشئة كل أسباب النجاح فوطدت صلتها بجامعة لندن واستقدمت أساتذة أجانب من الدرجة الممتازة ثم فتحت أبوابها فى أكتوبر ١٩٢٥. ولكن لم يتقدم للالتحاق بها غير طالب واحد فبعثت الجامعة إلى المدارس العالية تستحثهم على تحويل عدد من أوائل المتقدمين لها ليكونوا نواة لكلية العلوم . ونجحت الجامعة فى مسعاها وحصلت كلية العلوم على اثنين وعشرين طالبا بالتحويل من تلك المدارس العالية كان من بينهم سبعة طلاب شعبة الرياضة والطبيعة يتقدمهم الطالب محمد مرسى أحمد وسعدت أن أكون من بينهم .

وأمضينا فى دراسة علوم الرياضة والطبيعة بالكلية أربع سنوات كان الطالب محمد مرسى فيها متميزا دائما . حتى أنى أذكر أن الأستاذ الدكتور على مصطفى مشرفة فى أحد اختباراته لطلبة السنة الثالثة منح الطالب محمد مرسى١٢٠ درجة من مائة ، مبررا ذلك أنه قد أجاب على أسئلة أكثر مما يتطلبه الحد الأقصى للدرجة وهو ١٠٠ .

وتخرجت الدفعة الأولى عام ١٩٢٩ وحصل محمد مرسى على البكالوريوس

كلمة المجمع فى
تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مرسي أحمد

للدكتور محمود مختار
عضو المجمع

السيد الأستاذ الكبير رئيس المجمع

السادة الأساتذة الزملاء الكرام

أعضاء المجمع

السادة الأجلاء من أسرة الفقيد

سيداتى وسادتى

أليم على النفس أن يقف المرء لتأبين زميل وصديق عزيز أغلى مايكون الإعزاز والصداقة . وإنى إذ أولانى المجمع شرف إلقاء كلمة تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مرسى أحمد فقيد المجمع بل فقيد الوطن وفقيد العروبة ، أكاد لا أجد عبارة استهل بها حديثى خيرا مما أستهل به رائد الجيل العلمى فى مصر المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف عند استقباله للدكتور محمد مرسى أحمد عضوا فى هذا المجمع منذ سبعة وعشرين عاما . قال مصطفى نظيف :

« إنى إذ أتولى اليوم تقديم صديقى الدكتور محمد مرسى أحمد عضواً بالمجمع أوثر أن أقدمه لا بصفته مديرا لجامعة عين شمس وإنما بصفة من صفاته الذاتية تلازمه ولا تنفك عنه ، تصدر عنها أفعاله وتصرفاته فى الأعمال التى يمارسها والمناصب التى يتولاها تلك هى صفته العلمية .

فالدكتور مرسى عالم من علماء الرياضيات له مكان الصدارة بين أصحاب هذا العلم لافى مصر وحدها بل فى العالم العربى جميعا . وله منزلة مرموقة فى الدوائر والهيئات العلمية فى الخارج » .

تلك كانت كلمة الأستاذ مصطفى نظيف التى زادتها الأيام والسنون قوة على قوة وتأكيداً فوق تأكيد .

وكان من حق الفقيد على المجمع أن يجلو حياته الحافلة منذ نشأته حتى لقاء ربه بتفصيل دقيق ، ولكن هذا المقام المحدود لا يستطيع إلا أن يوجز ذلك إيجازا أو أن يجمع أطرافه فى أضيق ما يكون الجمع . فعذرا مسبقا إن لم أوفيه كل حقه .

فقيدنا العزيز الدكتور مرسى ولد فى أواخر العقد الأول من هذا القرن ببلدة أولاد يحيى مركز البلينة من محافظة سوهاج . وهى المحافظة التى أعطت مصر روادا وعلماء من أمثال رفاعة الطهطاوى والمراغى . وتلقى محمد مرسى تعليمه الابتدائى والثانوى فى أسيوط حتى حصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢٥ وكان ترتيبه الثالث فيها . وكان يريد له الوالد أن يدرس الطب ولكنه آثر مهنة التعليم فالتحق بمدرسة المعلمين العليا التى اختارها عن قصد وروية ، ولعله آنس فى نفسه الرغبة فى الاستزادة من العلوم الأساسية وخاصة علوم الرياضيات التى نبت حبه لها منذ المرحلة الثانوية . وواتاه الحظ بمنحه فرصة أكبر لإشباع رغبته وهوايته فى الاستزادة من علوم الرياضيات . ففى تلك السنة ١٩٢٥ أنشئت أول كلية جامعية لدراسة العلوم الأساسية فى مصر بل فى الوطن العربى كله . ،كان إنشاؤها حدثا علميا بارزاً فى تاريخ النهضة العلمية لافى مصر وحدها بل فى الوطن العربى . بها دخلت ميدان العلوم الأساسية المتقدمة وسارت فى ركب النهضة العلمية العالمية على مستوى التعليم الجامعى وفى البحث العلمى وفى التطبيق .

ووفرت الجامعة للكلية الناشئة كل أسباب النجاح فوطدت صلتها بجامعة لندن واستقدمت أساتذة أجانب من الدرجة الممتازة ثم فتحت أبوابها فى أكتوبر ١٩٢٥. ولكن لم يتقدم للالتحاق بها غير طالب واحد فبعثت الجامعة إلى المدارس العالية تستحثهم على تحويل عدد من أوائل المتقدمين لها ليكونوا نواة لكلية العلوم . ونجحت الجامعة فى مسعاها وحصلت كلية العلوم على اثنين وعشرين طالبا بالتحويل من تلك المدارس العالية كان من بينهم سبعة طلاب شعبة الرياضة والطبيعة يتقدمهم الطالب محمد مرسى أحمد وسعدت أن أكون من بينهم .

وأمضينا فى دراسة علوم الرياضة والطبيعة بالكلية أربع سنوات كان الطالب محمد مرسى فيها متميزا دائما . حتى أنى أذكر أن الأستاذ الدكتور على مصطفى مشرفة فى أحد اختباراته لطلبة السنة الثالثة منح الطالب محمد مرسى١٢٠ درجة من مائة ، مبررا ذلك أنه قد أجاب على أسئلة أكثر مما يتطلبه الحد الأقصى للدرجة وهو ١٠٠ .

وتخرجت الدفعة الأولى عام ١٩٢٩ وحصل محمد مرسى على البكالوريوس

بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى ، مما حفز الدكتور مشرفة على إيفاده فى بعثة للخارج التحق فيها بجامعة أدنبرة باسكتلندا التى لم تكتف باعتماد شهادة البكالوريوس بل أعفته من الحصول على درجة الماجستير فسجل لدرجة الدكتوراه رأسا وحصل عليها فى عامين اثنين فقط ، ولم يكن عمره قد جاوز ثلاثا وعشرين سنة . فأشار عليه أستاذه أن يلتحق بجامعة كمبردج للاستزادة من تخصصه. فقضى بها سنة نال فيها دبلوما فى البحوث الرياضية سجلت كفاءته ونبوغه .

وعاد الدكتور مرسى إلى كلية العلوم ١٩٣٢ حيث عين مدرسا للرياضة البحتة . وتدرج فى وظائف التدريس إلى أن عين أستاذاً للرياضة البحتة عام ١٩٤٣ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره . وكان أول مصرى يشغل كرسى الرياضة البحتة وظل يشغله طيلة ١٥ عاما .

وكان الدكتور مرسى طوال محاضراته قريبا من نفوس طلابه تلين فى عباراته أعقد المسائل . وكان ضليعاً فى لغتيه العربية والإنجليزية يحاضر بالعربية فى الفرقتين الأولى والثانية ، وفى الفرقتين الثالثة والرابعة يحاضر بالإنجليزية بنفس الطلاقة واليسر .

وكان الدكتور مرسى أستاذا كما ينبغى أن يكون أساتذة الجامعات ، قديراً متمكناً من علمه متعمقاً فيه ، وكانت له مدارس بحث متميزة فى تخصص واسع هو كثيرات الحدود . تخرج منها بدرجة الدكتوراه على يديه عدد كبير ممن شغلوا بعد ذلك كراسى الأستاذية فى الجامعات المصرية والعربية .

وكانت أهم أعماله تتناول نظرية الدوال والمعادلات التفاضلية وكثيرات الحدود ونشر له فيها ٢٥ بحثا فى المجلات العلمية العالمية والمصرية مثل الجمعية الرياضية فى إدنبره ، والجمعية الرياضية فى لندن ، والأكاديمية العلمية فى باريس ، والمجلة الرياضية الفرنسية وجورنال السفورد الرياضى ، والجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية .

ولم تحل مهام مناصبه الكبيرة التى تقلدها بعد ذلك بينه وبين مداومة الاهتمام بمهام الأستاذية . فقد ظل يعنى بعلمه ويرعاه بنفس النشاط ويعمل على رفع المستوى الأكاديمى لعلمه الرياضى حيثما يكون . فقد شارك مشاركة فعالة

فى إنشاء الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية عام ١٩٣٦ ورأسها بعد وفاة الدكتور على مشرفة وعهد إلىّ بنيابة الرئاسة ممثلا للطبيعة وبتحرير مجلتها البحثية . وانتظم العمل بيننا فى الجمعية والمجلة لفترة ناهزت ٣٥ عاما حتى بعد أن ترك الكلية . وما زالت هذه الجمعية تؤتى ثمارها حتى اليوم وقد بلغت ٥٣ عاما . وشارك الدكتور مرسى فى إنشاء الاتحاد العلمى المصرى ، والمجلس الأعلى للعلوم ، وأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا والأكاديمية المصرية للعلوم ، والمجمع المصرى للثقافة العلمية ، والمجمع العلمى المصرى وأسهم فى العديد من المؤتمرات والندوات الدولية والمحلية .

واهتم الدكتور مرسى اهتماما خاصا بحركة ترجمة الكتب العلمية المتخصصة إلى العربية وتكونت لها جماعة برئاسة الدكتور مشرفة واتسع نشاطها بتشجيع من المجلس الأعلى للعلوم لإعداد الكتب العربية التى تصلح للدراسة الجامعية من حيث مستواها العلمى والعالمى .

وإلى جانب هذه الكتب الدراسية كانت له أعمال قيمة في ترجمة الكتب المرجعية والثقافية الرفيعة فأخرج منها كتابين للفيلسوف الرياضى برتراند رسل عن « أصول الرياضيات » و« مقدمة للفلسفة الرياضية » كما قام بتأليف كتب عن نيوتن وأنيشتين ،وترجمة نحو خمسة عشر كتابا رياضيا مرجعيا وثقافيا عاليا .

وتردد اسم الدكتور مرسى فى هيئات علمية عالمية دعته لإلقاء محاضرات متخصصة فيها ، فكان خير سفير لمصر فى الخارج يتحدث عن مدى التقدم العلمى بمصر العربية ويصحح الصور المشوهة التى كانت متداولة فى تلك البلاد . ودعته جامعة استنبول لإلقاء سلسلة من المحاضرات على طلاب البحوث فيها ودعته الجامعة الأمريكية فى بيروت ، ودعته الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها الكثير.

ولم يقتصر نشاط الدكتور مرسى على الإسهام فى النهضة العلمية فى مصر بل امتد إلى البلاد العربية حيث أسهم فى إنشاء جامعة الرياض التى تشع اليوم فى ربوع الجزيرة العربية نهضة علمية حديثة .

وفى عام ١٩٦٥منح الدكتور مرسى جائزة الدولة التقديرية اعترافا بآثاره

العلميـة والثـقـافـيـة التى تمثلت فى أنه صـاحب مـدرسـة علمـيـة فى الرياضـة البحتة تعتبر من أكثر المدارس ازدهارا فى العالم . كما منح وسام الاستحقاق من الدرجة الثانية ثم من الدرجة الأولى ووسـام العلوم والفنون من الطبـقـة الأعلى .

وقـد أولع الدكـتـور مـرسـى بإحـيـاء التـراث العلمى العـربى فـاشـتـرك مع الدكتور مشرفة فى تحقيق كتاب الجبر والمقابلة للعالم الرياضى العربى محـمـد ابن مـوسـى الخـوارزمى . وقـد كـان هذا الكتـاب هو المنهل الذى أخـذ منه علمـاء أوربا أصـول علم الجبر . ويعتبر تحقيقه وإخـراجـه من أهم إنجـازات الدكـتـور مـرسـى وأبعدهـا أثرا فى إحـيـاء التـراث العربى .

وأستأذن هنا فى وقفة قصيرة مع هذا الكتـاب التـاريخى الفـذ لمؤلفـه عـالم الرياضـيـات العربى مـحـمـد بن مـوسـى وأصله من خـوارزم . وكـان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون الذى حكم فيما بين ٨١٣ - ٨٣٣ مـيـلادية . وقـد قـام بوضع كتاب فى الجبر نقله عنه الكثيرون وترجم إلى اللغـة اللاتينيـة ومنهـا إلى اللغات الأوربية وأجمع المؤرخون على أن الخوارزمى يعتبر بحق واضع علم الجبر وقد اشـتـهر عند الإفـرنج شـهـرة واسـعـة حتى اسـتـخدم لفظ الجبر فى جميع لغات العـالم مـأخـوذا عن الأصل العـربى الذى وضعه له الخوارزمى .

وفـى علوم الحـاسـبـات الحـديثـة (الكمـبـيـوتر) اتخـذ لفظ خـوارزم (algorithm) كـمـصـطلح علمى عـالمى تكريما وتقديرا لواضع علم الجبر ويطلق هذا المصطلح العلمى خـوارزم على كل مـجـمـوعـة مـحـددة من خطوات منطقيـة وحسابية تحدد المنهاج لحل مسألة ما . ومن هـذا المصطلح اشـتق اسم لغـة من لغـات الكمـبـيـوتر هى اللغـة الخـوارزمـيـة (algorithmic language) التى تسـتـخـدم الخـوارزمـات وتخـضـع لقـواعـدهـا ويقـول مـرسـى ومشرفة فى مقدمـة كتابهمـا عن تحـقـيق كـتـابهـمـا عن الجبـر والمقـابلة للخوارزمى :

« ليس يكفى أن نتـحـدث عن مـجـدنا العلمى كـمـا لوكـان أسطورة أو حـديث خـرافـة يتـغنى به الشـعـراء ويتـغـالى فى وصـفـه الخـيـال بل يجب أن يظهـر هذا المجد فى صورة ملمـوسـة تراهـا الأعين

وتنالها الأيدى . لذلك كان من المهم أن نعنى بنشر الكتب التى وضعها أجدادنا وخاصة ماكان منها كبير الأثر فى تكييف الفكر البشرى .

ولاشك أن فى مقدمة هذه الكتب كتاب الخوارزمى فى الجبر والمقابلة الذى حققه مرسى ومشرفة .

والواقع أن سجل العلماء العرب فى الرياضيات بوجه خاص سجل حافل مشرق . نذكر من بينهم فى ترتيب زمنى ثابت بن قرة . محمد بن مرسى الخوارزمى وعلى مشرفة ومحمد مرسى أحمد .

سادتى :

هذا جزء من كل من النشاط العلمى المتميز لفقيدنا الدكتورمحمد مرسى أحمد الذى جعل منه مثلا رائعا لما يجب أن يكون عليه الأستاذ الجامعى علما وخلقا وإنتاجا . أما إنجازاته الإدارية فى المناصب التى تقلدها بدءًا من عمادة كلية العلوم ثم وكالة الجامعة فإدارة الجامعتين العريقتين عين شمس والقاهرة ثم وزارة التعليم العالى فهى كفيلة بأن تتحدث عن نفسها بلسان أفصح منى بيانا وأقوى حجة . هذا المثل الرائع للأستاذ الرائد والإدارى الضليع والمصرى العريق تجسد فى الدكتور مرسى حتى أصبح من صفاته الملازمة لاسمه أينما ذكر .

وقدانتخب الدكتور مرسى لعضوية المجمع عام ١٩٦٢ وشغل الكرسى الذى كان قد خلا بوفاة الأستاذ الحاخام حايم ناحوم الذى كان انتخابه فى المجمع تأكيدا لمبدأ سام هو أن المعرفة هى تراث الإنسانية وأن التقدير العلمى للأشخاص لا يحجبه سياسة أومذهب . وظل عطاء الدكتور مرسى للمجمع وافرا متواصلا فى مجلسه وفى مؤتمراته وفى لجانه العلمية المتخصصة الرياضية والطبيعية والهندسية زهاء عشرين عاما حتى أقعده المرض عن الانتقال إلى مقر المجمع ، وإن ظل ماثلاً فيه بشخصيته الوضاءة وآثاره المجمعية .

أستأذن سيداتى سادتى بأن أختتم حديثى بكلمة قلبية وجيزة أوجهها للمرحوم الدكتور محمد مرسى أحمد فى مثواه الأخير فأقول له :

« الآن وقد سعيت أنت قبلنا للقاء وجه الله فاطلب إلى ربك أن يلحقنا بك فى زمرة الصالحين . وسلام عليك يوم ولدت ويوم انتقلت من دار الخالدين إلى دار الخلود » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمود مختار

عضو المجمع

كلمة الأسرة

للدكتور أمين زايد

سيادة الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع

السادة الأعضاء . .

أتشرف أن أقف أمامكم لألقى كلمة الأسرة فى حفل تأبين أستاذنا الراحل الدكتور محمد مرسى أحمد وبادئ ذى بدء اعتذر إليكم عن أية سهام شاردة قد تنطلق عفوا من يدى لتصيب لغة الضاد فى كبدها فأنا لست ضليعا فى قواعد النحو والصرف والإعراب ولكن شاءت المقادير أن أتحدث إلى فرسان اللغة العربية محتشدين فى معقل دارهم فمعذرة ثم معذرة ورجائى أن تغضوا الطرف عن أى نشاز قد يصيب رنين اللغة أو يخدش جمالها على لسان شخصى الضعيف .

ترجع صلتى بأستاذنا الكبير الراحل أنى تشرفت بمصاهرته بزواج كبرى بناته منذ أكثر من ثلاثين عاما ، فكنت أقرب أزواج البنات إليه ، وأكثرهم التصاقا به وشاهدته يرتقى سلم المناصب الرفيعة درجة بعد درجة ، من نائب رئيس جامعة القاهرة ، فرئيسا لجامعة عين شمس فرئيسا لجامعة القاهرة ثم وزيرا للتعليم العالى على مدى فترة زمنية لاتزيد عن ثلاثة عشر عاما . . كان خلالها نعم الرائد والقائد لمسيرة العلم والجامعات ، ولم تغير تلك المناصب من معدنه الأصل . والرجال كما تعلمون معادن وأستاذنا الراحل كان من المعادن النادرة التى قلما يجود بها الزمان . . أدرك بحسه وفطرته السليمة وهو أستاذ الرياضيّات ، أن الجامعة فى تصوره مثلث متساوى الأضلاع ، فهو علم يُدَرّس وأساتذة يُدَرِّسون وطلاب يتلقون العلم على أيديهم وكان حرصه على الأضلاع الثلاثة متساوياً . . فاهتم بالتقدم العلمى وبذل كل ما فى جهده لدفع عجلته إلى الأمام .

واهتم بالأستاذ الجامعى الذى هو فى نظره حجر الزاوية فى التقدم العلمى وحمله الأمانة فى عنقه ولاننسى مبدأ له لا رقيب ولاحسيب على الأستاذ الجامعى إلا ضميره فوضعه بذلك فى مكانة

القاضى فى محراب العدالة . . أما الطلاب وهم القاعدة العريضة فى الجامعة ، فكان يحنو عليهم كما يحنو الأب على ابنه ويأخذ بيدهم ويشجع النابهين منهم ، ولا عجب ولاعجاب أن يأتى ذلك الفعل من رجل عصامى شق طريقه فى الصخر وسلك طريق العلم والنور ومشى على الدرب معتمدا على نفسه فلا وساطة ولا محسوبية ولا غيرها من تلك الأمراض الخبيثة التى ابتلى بها مجتمعنا فى هذه الأيام .

تعلم الفقيد الراحل فى كتاب قرية البلينة فى صعيد مصر الخالدة وحفظ القرآن الكريم على يد سيدنا الذى توسم فيه الخير والنجاح فنصح والده أن يكمل له مسيرة العلم فسافر إلى أسيوط حيث المدرسة الثانوية منارة العلم فى صعيد مصر فى ذلك الوقت ، ثم التحق بكلية علوم القاهرة بقسم الرياضة البحتة فتتلمذ على يد أستاذ مصر الراحل المغفور له الدكتور مصطفى مشرفة ، الذى توسم فيه هو الآخر مستقبلاً زاهراً ونبوغًا باهرًا ، ثم سافر إلى الخارج بعد تخرجه من كلية العلوم إلى المملكة المتحدة فى بعثة علمية ليحصل على الدكتوراه فى فترة زمنية قياسية .

عاد بعدها ليُدَرِّس بكلية العلوم ثم أصبح رئيساً لقسم الرياضة البحتة ثم عميداً للكلية ثم ما تلاها من مناصب قيادية فى إدارة الجامعة .

كان حبه لوطنه عميقاً راسخاً والله أشهد أنى لم أره يبكى فى حياته قط إلاّ يوم الهزيمة فى عام ١٩٦٧ ، فتدفق الدمع من عينيه مدراراً ويبكى كما يبكى الطفل الصغير على فاجعة مفزعة أصابت هذا البلد الأمين ومصيبة ابتلينا بها أجمعين .

كان حرصه على طلابه ورعايته لهم تفوق حد الخيال وسأقص عليكم قصة محدودة سمعتها منه حينذاك . . فما إن وقعت الواقعة ودنس الأعداء أرض البلاد فى عام ١٩٦٧ حتى هب شباب الجامعة فى ثورة عارمة تطالب بقصف رؤوس المسئولين عن الهزيمة . . وضاقت الحكومة بهم ذرعاً واستدعى رأس الدولة رؤساء الجامعات فى ذلك الوقت للاجتماع بهم والاستماع إلى آرائهم فى ثورة الطلاب . . وبقى أستاذنا الراحل يستمع ولا يتكلم ، فأدهش ذلك رئيس الدولة فتوجه إليه بالسؤال : أريد أن أستمع إلى رأيك . . وفى وقار بالغ قال

الشيخ الكبير أستاذ الرياضيات وتلميذ أينشتين ونيوتن إن لكل فعل رد فعل . هكذا قال نيوتن وهكذا ندرس . فالهزيمة كانت خاطفة ماحقة ساحقة وكان رد فعلها عند الشيوخ مثلى حسرة . أما عند الشباب فكان رد الفعل ثورة وغليانًا وانتفاضة وفورانًا وتلك ظاهرة صحية وإن لم تحدث فعلى هذه الأمة العفاء .

فوافقه رئيس الدولة على أن يتحمل مسئوليته داخل الجامعة ، واجتمع أستاذ الجيل بطلابه قائلا لهم : إنى أقرب إليكم من أنفسكم أشعر بخلجاتكم واستمع إلى دقات قلوبكم . . افعلوا ما شئتم داخل حرم الجامعة فهذا هو حصنكم الحصين ، وأنتم بداخله أحرار آمنون .

كان لوالدى وأستاذى الدكتور مرسى فضل كبيرٌ علىّ ، فقد تعلمت منه وعلى يديه مالم أكن أعلم . . وكانت له نظرة ثاقبة وحكمة بالغة فى كل مايعرض عليه من أمور وموضوعات . . وإذا توجهت إلى نفسى بالسؤال قائلاً : ماذا تعلمت منه .تعلمت منه أن للحياة أصولا ثابتة وقواعد راسخة ، يجب ألا نحيد عنها أبداً ، وإلا وقعنا فى هوة سحيقة لا قاع لها ولا قرار . . فالصدق والأمانة والعدل قيم إنسانية سامية . . والحق يقال إننا فى زماننا هذا نعانى كل المعاناة ، لا بسبب فقر فى الموارد بل بابتعادنا عن تلك القيم الجوهرية .

تعلمت منه أن التواضع شيمة من شيم العلماء ، فمن تواضع لله رفعه . . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . . تعلمت منه ما قاله الله تعالى فى سورة الإسراء : « ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

تعلمت منه الوفاء لمن علموه والرفق بمن تتلمذوا على يديه .

تعلمت منه عفة اللسان وطهارة اليد وقد تعجبون أيها السادة أن الأستاذ الراحل كان يسكن حتى وفاته فى شقة متواضعة استأجرها حين كان مدرسا بكلية العلوم . رحم الله فقيدنا العزيز فقد كان زميلاً عزيزاً لكم ينتمى إلى جيلكم . جيل العمالقة والقمم الشامخة ، ذلك الجيل الذى أرسى قواعد الفضيلة والعلم والأخلاق ذلك الجيل الذى تعلمنا منه نحن المعاصرين لكم . . .

ويا حسرتاه على الأجيال القادمة التى أطلت برؤوسها فى هذه الأيام فجعلتنا نشعر أننا نعيش وكأننا غرباء فى الزمان

وغرباء فى المكان .

ختاما أرجو أن تتقبل يا سيادة رئيس المجمع والسادة الأعضاء وسكرتارية المجمع جزيل الشكر من العائلة ، فقد مرض شيخنا الراحل لمدة عشرة أعوام قبل وفاته . والحق يقال إنكم لم تنقطعوا خلال تلك الفترة الحزينة عن إرسال خطاباتكم ومطبوعاتكم إليه أثناء مرضه .

كان لكل ذلك أثرسعيد فى نفسه ومن رأيته فى مرضه العضال يتألم حزيناً مكتئبا . . حتى تصله رسالة منكم تطلعه عليها زوجتى وكبرى بناته . . فسبحان مغير الأحوال . . يبدل حزنه ودموعه ابتسامة وينشرح صدره وتتفرج أساريره . . فشكرا لكم أيها السادة الأوفياء على سؤالكم عنه فى مرضه وشكراً لكم على حفل اليوم لتأبينه وتخليد ذكراه .

والله ولى الصابرين . .

أمين زايد
أستاذ طب وجراحة العيون
جامعة القاهرة

(ب) فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٩٠ أقام المجمع حفلاً لتأبين عضوه الراحل الأستاذ عبدالعزيز محمد رحمه الله . وقد ألقى كلمة المجمع فى تأبين الراحل الكريم الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عضو المجمع .

وفيما يلى نص الكلمات التى ألقيت فى الحفل :



كلمة المجمع
في تأبين المرحوم الأستاذ عبدالعزيز محمد حسن

للدكتور حسين مؤنس
عضو المجمع

فى عصرنا هذا ، كما هو الحال فى كل عصر مضى يكثر الرجال الصادقون المخلصون الذين يهبون حياتهم وجهودهم كلها للقيام بالواجب ، ولكن النادر فعلاً هو أن يكون أولئك الصادقون المخلصون موهوبين فى نفس الوقت ، أى أن قيامهم بالواجب يكون عملاً ضخمًا مستمرًا وأداءً متصلاً كما لابد أن يؤدى وإنما يكون فيه ابتكارٌ وتجديدٌ وتوجيهٌ دائمًا إلى الأحسن . فلايكون عملهم مجرد قيامٍ بالواجب وتحريرًا للرقبة من الالتزام الشخصى ، وإنما يكون فى نفس الوقت تقدمًا بالإنسانية وسيرًا بالحضارة إلى الأمام ، كما نجد فى حالات لطفى السيد وعبدالرازق السنهورى وعباس محمود العقاد وأمثالهم ممن نهضوا بمصر والعالم العربى ونقلوها من عصر إلى عصر ومن مستوى إلى مستوى أرفع .

من هؤلاء الرجال الأستاذ الدكتور عبدالعزيز محمد حسن رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان قانونيًا مجتهدًا مقبلاً على العمل يُنفق فيه كل وقته وجهده ، وكان إلى جانب ذلك قانونيًا مجددًا يُدخِل على مايتناوله من عمل قانونى سواء فى المحاماة أو القضاء تقدمًا عظيمًا شاملاً ، ويخلِّف كل ميدان عمل فيه أحسن بكثير مماوجده عليه ، فأثره عظيم فى القانون والقضاء والمحاماة ، فهو فى العمل القانونى نفسه مجدد متعمق مدرك لأهمية الدور الذى يقوم به عارف بأساليب الإتقان فيه والنهوض به وسد مايلقى فى عمله من وجوه النقص ، أما عمله فى القضاء فهو مفخرة كبرى ، ففى كل وظائف القضاء التى تولاها نجد هذا الرجل يدرس القضايا درسًا كاملاً شاملاً ، ويبحث دائمًا عن وجه الحق ليصوره ولتكون أحكامه دائمًا تأييدًا له ، حتى إن القانونيين ودارسى القضاء يستذكرون قضاياه ويتتبعون ملفاته وتعليقاته ودراساته الفردية أو الجماعية على أنها أعمال مثالية فى ممارسة القضاء وخدمة العدالة ، أما فى المحاماة

على أنها أعمال مثالية فى ممارسة القضاء وخدمة العدالة ، أما فى المحاماة فنحن هنا أمام رجل لم ينظر إلى نفسه أبدًا على اعتبار أنه موكَّل يلتمس أساليب موكِّله بأى طريق ، وهو لم يبحث قط عن الثقوب التى لايخلو منها قانون لينفذ منها ويصل إلى مايريد إظهاره للقضاة على أنه الحق ، بل إن عبدالعزيز محمد حسن المحامى رجل عدالة لايقبل من القضايا إلا مايرى أنه حق يستحق الدفاع عنه ، وإذا اتضح له أثناء البحث أن موكله لم يطلعه - قاصدًا أو غير قاصد - على وجه الحق فى قضيته فهو لايعنى بالموكّل بل يقصد إلى القانون وحده ويلتزم بالحق وحده أى أنه أولاً وقبل كل شئ إنسان حر الضمير يقظ النفس ، يخدم الإنسانية كلها ، ولهذا السبب أيضًا يدرس هواة مهنة المحاماة الكريمة قضايا هذا الرجل على أنها مدرسة قانونية .

وإلى جانب هذا كله فإن الرجل كان مجددًا ، فما من قانون يمر به إلا ويدرسه ويدل أهل القانون على وجوه النقص فيه والسبيل إلى تصحيحها ، بل هو اقترح صيغًا قانونية جديدة لكثير من القوانين واجتهد فى إقرار هذه الصيغ ، وفى هذا السبيل قام الرجل بما يشبه المعجزات حقًا ، ومن أعماله الجليلة التى أدى بها خدمة كبرى للمشتغلين بالقانون مجموعة القواعد القانونية التى قررتها محكمة النقض فى خمسة وعشرين عامًا سواء فى المواد المدنية أو فى المواد الجنائية ، فقد درس أحكام محكمة النقض خلال تلك الفترة الطويلة وجمعها ورتبها وأشرف على إخراجها فى سفر ثمين يعتبر عونًا لاغنى عنه للباحثين من رجال القانون سواء أكان فى محيط الفقه أو محيط القضاء .

وتستوقف نظرنا حياته الوظيفية منذ تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٢ وكانت سِنُّه إذ ذاك ثلاثًا وعشرين عامًا فقد ولد فى أوائل يناير سنة ١٨٩٩ فى مدينة أبى قرقاص ، وقد اشتغل بالمحاماة بعد تخرجه ، وسرعان مابرزت مواهبه فى ميدان العمل ، ولفت الأنظار بسعة الاطلاع والقدرة على البحث وسداد الرأى وسلامة المنطق فى الجدل والمرافعة ، وأثار الإعجاب فى نفس الوقت بسلامة الخلق والجد الصارم والأمانة الكاملة فى القول والعمل ، هذا إلى جانب تواضع أصيل يدل على أن

ورجل كهذا لايمكن أن يغفل عنه القائمون بأمر القضاء فى وزارة العدل فعين قاضيًا فى محكمة الإسكندرية الابتدائية فى مايو ١٩٢٩ أى بعد سبع سنوات من تخرجه ، وهنا يدهشنا صعوده السريع والمتصل فى سلم الوظائف القضائية ، فعين فى سنة ١٩٣٢ نائبًا بإدارة قضايا الحكومة . فقد ذكرنا تعيينه نائبًا بإدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٣٢ ، وبعد ذلك بعشر سنوات ، أى فى سنة ١٩٤٢ عين رئيسًا للتفتيش القضائى بوزارة العدل ، وفى سنة ١٩٤٤ يعين مستشارًا بمحكمة الاستئناف ، وبعد أربع سنوات - ١٩٤٨ يعين مستشارًا بمحكمة النقض ، وفى سنة ١٩٥٢ يعين رئيسًا لإدارة قضايا الحكومة ، وفى سنة ١٩٥٣ يصبح وكيلاً لمحكمة النقض ، وفى سنة ١٩٥٤ يصبح رئيسًا لمحكمة النقض ويظل فى هذه الوظيفة القضائية الكبرى حتى نهاية الخدمة ، أى بلوغه الستين سنة ١٩٥٩ ، وهذه كلها وظائف كبرى تولاها الرجل بكفاية وعلم وثقة فى النفس دون أن ينظر إلى ماينظر إليه أمثاله من كبار رجال القضاء من النظر إلى الوزارة أو رئاسة الوزارة مما يستدعى دخوله السياسة ، ولكن السياسة كانت ولاشك ستشغله عن القانون فابتعد عنها وظل رجل قضاء وعلم وبحث وأمانة .

وبعد انتهاء خدمته فى الحكومة عاد إلى المهنة الحبيبة إلى قلبه وهى المحاماة ، عاد ليدافع عن المظلومين كما هو أسلوبه الذى جرى عليه ، فهو يناضل فى دفع الباطل ويجاهد فى رد الحقوق إلى أهلها .

ورجل كهذا لايمكن أن يظل بعيدًا عن مسئوليات العمل الجامعى فسعت إليه الكليات القانونية ليتولى الأستاذية لفترات محددة إلى جانب عمله القضائى الحكومى ، فألقى الرجل سلاسل محاضرات بجامعة القاهرة وفى كلية الحقوق بجامعة عين شمس . وفى سنة ١٩٣٧ انتدب أستاذًا للحقوق بجامعة بغداد ، وهناك وضع إلى جانب التدريس شرحًا وافيًا للقسم العام من قانون العقوبات فى العراق وبعد عودته إلى مصر عاد إلى المحاماة ، وفضلاً عن ذلك نجده يسهم بنصيب جوهرى فى أعمال لجان تعديل القوانين ، ومن ذلك لجنة تعديل قانون العقوبات ، ولجنة تعديل قانون المرافعات كما نجد رجل القانون الأول فى مصر إذ ذاك ، وهو عبدالرازق السنهورى يستعين به فى تعديل القانون المدنى .

وتتجلى براعته ومهارته فى الأحكام العديدة التى دونها طوال حياته القضائية والتى توّجها بالأحكام التى أصدرتها تحت رياسته الدائرة المدنية بمحكمة النقض . وهذه الأحكام يعرف قدرها القلائل من أهل القانون الذين يطلعون عليها فيلقون فيها ثروة غنية من البحث القانونى العميق ونماذج تعد أمثلة رائعة لحسن العرض والتأصيل المنطقى السليم ، والدقة فى إيراد الحجج المقنعة والرد على ما يثار من اعتراضات ، وكل هذا فى أسلوب عربى بليغ رصين وعبارة جلية موجزة .

وهذه العبارة الأخيرة تفتح لنا بابًا عظيمًا من أبواب امتياز الأستاذ عبدالعزيز محمد حسن فقد كان يعتز باللغة العربية الرفيعة فى أدائها ، ويعمل على السمو بها ، ويؤدى رسالة الحفاظ على سلامتها ورفعتها كأحسن مايكون .

وبهذه المناسبة نقول إن لغة القانون كانت فى أوائل القرن الماضى قد هبطت إلى مستوى يبعث فى النفس الأسى ، ولايعجب الإنسان لانحدار اللغة العربية بصفة عامة وفى مجال التشريع والقضاء بصفة خاصة فقد كان هذا عصر محمد على باشا ، ذلك التاجر الذى وصل إلى حكم مصر بفضل المصريين فكان أول مافعله عندما استقر له الأمر أن أهمل المصريين وحاول أن يكون تركيًا ليكسب احترام الدول وهو لم يهتم أبدًا بالمصريين أو باللغة العربية ، فالمصريون كانوا فى نظره عبيدًا واللغة العربية شبطت إلى مستوى خفيض لايُصَدَّق ، ففى سنة ١٨٤٢ مثلاً أنشأ محمد على مجلسًا سماه مجلس الجمعية القانونية ليحل محل الديوان العالى أو الديوان الخديوى فى مصر ، ونقرأ فى حاشية اشتمل عليها الأمر الصادر بتشكيل هذا المجلس مايلى : « حيث إن فى البلاد المنتظمة محاكم قانونجى مخصوصة لكل مصلحة ، البرية بخلاف والبحرية بخلاف والملكية وكان يجب علينا أيضًا أن نشكل جمعيات حقانية لكل مصلحة مثلهم ، ولكن لايوجد عندنا الآن رجال لتشكيل الجمعيات المتفرقة ، فلذا يجب أن هذه الجمعية تنظر جميع القوانين الآن ، وعند وسعة وقت نكون قد حصلنا على رجال ذوى عدالة ونعرفكم عن الجمعيات المتفرقة ومحلات تشكيلها والمعلومية لزم التحشية » . ونجد أن قانون مجلس جمعية الحقانية هذه يعبر عن مقترفة الزنا بقوله : الفلانية الثابت عليها الفلت .. وفى نص هذا القانون وعند التحدث عن رجل قتل عن غير قصد يقول « وإنما كان ناشئًا عن غشومية الفاعل ».

وهذا هو الأسلوب القانونى الذى وجده رجال القانون من أمثال السنهورى وعبدالعزيز محمد ، وكان عليهم أن يعملوا بجد لتغيير لغة القانون وتعريبها ورفعها إلى مستوى البلاغة ، ومن حسن الحظ أنهم كانوا قادرين على ذلك ، ولايتسع المجال هنا لإبراز الجهود المضنية التى قاموا بها حتى وصلوا بلغة القانون إلى المستوى الذى نجدها عليه اليوم رغم أن الدولة كانت تقرر أن يدرس القانون فى مدرسة الحقوق باللغة الفرنسية وأحيانًا بالتركية ، وعندما جاء الإنجليز فرضوا تدريس القانون باللغة الإنجليزية فلم يكن يدرس باللغة العربية إلا الشريعة وبعض مواد أخرى ، كأن اللغة العربية كانت عاجزة عن التعبير القانونى ، فاجتهد هؤلاء وأولهم المغفور له عبدالرازق السنهورى الذى تولى محكمة النقض المستقلة فوضع تقاليد راسخة فى صياغة الأحكام وتحريرها وخلفه فى ذلك من تولى هذه المحكمة من القانونيين من أمثال عبدالعزيز محمد حسن ، فقد كان حريصًا جدًا على سلامة التعبير بلغة عربية رفيعة ، فقد كان أديبًا لغويًا ، وهذا هو الذى رشحه لعضوية مجمعنا هذا سنة ١٩٦٩ خلفًا للمرحوم الأستاذ حامد عبدالقادر . وقد أثبت أنه من أنشط رجال المجمع فى لجان القانون واللغة وقدم خدمات جليلة للغة العربية لازلنا نذكرها إلى اليوم حتى وفاته عليه ألف رحمة من الله سنة ١٩٩٠م .

حسين مؤنس

عضو المجمع



كلمة الأسرة

للدكتور محمد حسن فج النور

السيد الأستاذ الفاضل رئيس المجمع
السادة الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع
السلام عليكم ورحمة الله

حقيقة لا أستطيع أن أصف هذه اللحظات التى أقف فيها أمام أعلام الثقافة فى مصر والوطن العربى ، وأئمة الفكر المستنير فيه وحماة اللغة العربية فى شتى الأرجاء - نيابة عن أسرة المغفور له المستشار عبدالعزيز محمد عضو المجمع .

ولاريب أن المهمة الصعبة التى يضطلع بها المجمع لهى من المهام السامية التى لايستطيع أن ينهض بها إلا رجال أفذاذ اختارهم القدر لقيادة أمتنا فى مسيرتنا الفكرية والثقافية .

وقد استطاع المجمع بتوفيق من الله وبفضل رجاله الأجلاء على مر السنين أن يحفظ للغة العربية - لغة القرآن الكريم - جلالها وقدرها بين لغات العالم وأن يبقيها لغة حية تساير تطور العلوم على تنوعها ، دون المساس بجوهرها أو عناصرها التى ترتكن إليها ، وتلك مهمة معقدة لايبقى فيها إلا من كانوا رجالاً من طراز أعضاء مجمعكم الموقر

إن عضوية فقيدنا الراحل فى المجمع الجليل لهى شرف لنا جميعًا - نحن أسرة الفقيد - فالانتساب لهذا المجمع شرف لايدانيه شرف مهما بلغ وارتقى . وستذكر الأجيال فى مصر - والأمة العربية - ماقدمتموه أيها السادة الأجلاء للغة العربية من أياد لن تكون أبداً محلاً لنسيان أو نكران ، ويكفى أنكم المحافظون الأمناء على لغة القرآن الكريم - يكفى هذا حتى يتقدم إليكم الجميع بالشكر الجزيل عرفانًا بالجميل ووفاءً لحقكم علينا .

إن اللفتة الكريمة من مجمعكم الموقر تكريماً لذكرى فقيدنا الراحل أمر ليس مستبعداً من رجال هم الوفاء ذاته ، وكان لهذه اللفتة أكبر الأثر فى نفوسنا المكلومة على فقد راحلنا الكريم . وباسم الأسرة أتقدم لحضراتكم بوافر الشكر والتقدير على لفتتكم الكريمة ، والله أسأل أن يبقيكم دومًا - كما أنتم - نبراسًا نهتدى به وعلامة مضيئة للفكر وللاستنارة .

وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله

محمد حسن فج النور

رئيس الهيئة العامة لسوق المال





مطابع الدار الهندسية



